طه حسين

هذا العدد الخاص الذي تصدره « المعرفة » في الذكرى الاولى لوفاة طه حسين يثير عدة مسائل .

فهو ، أولاً ، لا ينطلق من موقف التعصب لطه حسين، هذا التعصب الذي نلمحه أحياناً في بعض ما ينشر عنه من دراسات . لقد كان طه حسين، وبحق ، واحداً من الرواد الاوائل الذين اسهموا في بلورة الملامح الثقافية لعصرهم، غير ان طه حسين في الوقت نفسه لايعلو على النظرة النقدية الفاحصة المدققة . من هنا فان أكثر من دراسة يتضمنها هذا العدد ، تضع طه حسين أمام هذه النظرة النقدية التي لا تخلو من قدر من الصواب .

وهو ، ثانياً ، يقدم طه حســين كما يراه كتاب القطر العربي السوري . صحيح أن محاولة تقديم طه حسين بهذه الطريقة لا تخلو من بعض العيوب ، غير ان الصحيح أيضاً هو ان المحاولة تستحق تقديراً خاصاً لأنها تثبت أن طه حسين لم يكن لمصر وحدها ، وانما كان في الوقت نفسه للأمــة العربية كلها . وسوف يكتشف القارىء الحصيف أن مستوى الدراسات

المنشورة في هذا العدد لا يقل ، ان لم يكن يفوق ، مستوى ما نشر عن هذا الكاتب العظيم منذ وفاته .

وهو ، ثالثاً ، يضم دراسة للكاتبة الفرنسية الكفيفة انجيل فانييه كتبتها خصيصاً للمعرفة . وكنت قد كتبت الى الكاتب الصديق وليد فستق المقيم حالياً في باريس بقصد اعداد رسالة دكتوراة عن طه حسين ، بعزمنا على اصدار عدد خاص عن طه حسين في ذكرى وفاته الأولى ، فبادر الى الاتصال بـ « فانييه » التي ابدت رغبتها في الاسهام في هذا العدد ، فكانت دراستها « طه حسين واسرار الليل » التي كتبتها خصيصاً لهذا العدد من «المعرفة»، والتي تكشف عن جانب من أدب طه حسين لا يقدر على الكشف عنه سوى كاتب يعاني من مثل ما عاني منه طه حسين من كف البصر .

رئيس التحرير

القصيدة الاغريقية

عبد الوهاب البياتي

- ١ -

قالت : ما أقسى ، حين يغيب النجم ، عذاب العاشق أو حين يموت البحر . انتظريني : قال المجنون : وظلي ميتة بين الموتى واقتربي من ضوء الشمعة ، ان الله يرانا ويرى وجهي الخائف مقترباً من وجهك محموماً تحت نقاب الدمع . اقتربي ، فدموعك في شفتي ملح البحر وطعم رغيف الخبز . انتظريني : قال المجنون .

- ٢ -

كانت أغصان السرو وأشجار الدُفلى تخفي عني مدناً ونجوماً تسبح في عطر بنفسج ليل يصعد من أغوار القلب الانساني ، وكانت امرأة عارية فوق حصان تضحك في العاصفة .
انتظريني ! لكن البحر الميت غطاها بالأعشاب وبالزبد المتطاير في الربيع، افتريني: ناداها ، لكن صهيل حصان البحر الاسطوري تمزق فوق صخور الشاطىء ، وانطلقت بضفائرها الذهبية تعدو عارية : آلهة الشعر المجنون الى «دلفي» تبكي أقدار الشعراء .

- ٣ -

كانت في الفجر تمشط شعر الأمواج
وتداعب أوتار القيثار

- ٤ -

كانت بضفائرها الذهبية ترقص عارية تحت الأمطار

- ٥ -

دهمتني ، وأنا في منتصف الدرب الى « دلفي » صاعقة خضراء

- ٦ -

كنا أربعة : أنا والموسيقيُّ الأعمى
ودليلي
ومغني آلهة « الأولمب » الحكماء

-٧-

حملتني في البحر « الأيجي » ، الى « دلفي » أشرعة الفجر البيضاء

-٨-

وضعوني في باب المعبد أخرس مشلولاً
وضعوا فوق جبيني زهرة عباد الشمس ،
وغطوني برداء .

-٩-

قالوا : انطق باسم الحب
وباسم الله
وتكلم واقرأ هذا اللوح المحفوظ وراء المحراب

-١٠-

شق ملاك صدري
أخرج من قلبي حبة مسك سوداء

-١١-

قال : اقرأ ! فقرأت وصايا آلهة الشعر المكتوب على الألواح
صعدت كلماتي من بئر شقاء العشاق الشهداء

-١٢-

كانت تستلقي بضفائرها الذهبية عارية فوق رمال الشاطىء تبكي عند مغيب النجم : حصان البحر الاسطوري وترمم في الأفق دوائر حمراء وتهمس للريح : اشتعلي باثار الحب وكوني شارة هذا الليل الأبدي القادم من أطلال المدن الاغريقيـــة ، كوني مغزل نار قميص الفجر الشاحب ، كوني مفتـــاح الباب المغلق واشتعلي حباً باقطرات المطر المتساقط في كل الغابات°

كانت ترمم فوق الرمل عيوناً وشفاه°

وبدأ تستجدي قطرات المطر الخضراء°

قالت : فلنرحل !. قال المجنون : انتظري ، ظـــلي ميتة بين الموتى ، واقتربي من ضوء الشمعـــة ، ان الله يرانا ويرى وجهي الخائف مقترباً من وجهك محموماً تحت نقاب الدمع . انتظري : قال المجنون

-١٣-

منحتني آلهة الشعر الصافي
وأنا في درب العودة من « دلفي » :
البركات
وسلاح الـكلمات

١٩٧٤ - ١٠ - ٣

المقصود بالشعر الصافي ، هنا ، الشعر الذي تتحد فيه القضية بحيث يصبح الشعر هو القضية ، والقضية هي الشعر ، وهو مفهوم مغاير تماماً لمفهوم البرناسيين وغيرهم للشعر الصافي .

تحيّة لروح طه حسين

فريد جحا

- ١ -

كان العالم في الايام الاخيرة من تشرين الاول عام ١٩٧٣ مشغولاً بأنباء الحرب العربية التحريرية ، هذه الحرب التي هزته احداثها ونتائجها من اقصاه الى اقصاه . وكانت اذاعات الدنيا تنقل اخبار تلك الحرب اولاً بأول وبكل تفصيل ، وتنقل ردود الفعل من عواصم العالم ساعة ساعة .

مع هذا فقد أضيف الى تلك الاخبار خبر محزن يعلن وفاة عربي عظيم . لقد طيرت وكالات الانباء يوم الاحد الثامن والعشرين من ذلك الشهر الخبر التالي :

« توفي في السابعة والنصف من صباح اليوم الدكتور طه حسين ، عميد الادب العربي ، بنوبة قلبية عن أربعة وثمانين عاماً » .

رددت اذاعات العالم الناطقة بالعربية هذا الخبر عدة مرات ، ونشرته صحف المساء في ذلك اليوم ، وابرزته صحف اليوم التالي في صفحاتها الاولى، مخصصة للتعريف بالفقيد ، والحديث عن حياته ومكانته وآثاره ، أعمدة كثيرة فيها .

طه حسين يستحق هذا الاهتمام الذي لقيه نبأ وفاته في وقت كان فيه العالم مشغولا بأحداث كادت تودي به الى حرب كونية .

انه بحياته التي كانت اشبه بالملحمة ، وبآثاره التي تجاوزت الخمسين عدداً ، ربما فيها من أصالة ذاتية ، وبأثره الكبير الكبير الذي تركه في تلاميذه وقرائه ... طه حسين من أجل ذلك يستحق كل اجلال وتكريم ، فهو الرائد الاديب المؤرخ المربي الصحفي ، الذي عاش حياته المديدة متعلماً ومعلماً ومناضلاً ، وداعياً من دعاة الحرية والتقدم والتعليم والثقافة العريضة .

- ٢ -

عرفت الدكتور طه حسين منذ اكثر من ثلاثين عاماً . كنت طالباً في المرحلة الثانوية يوم اتيح لي أن اقرأ نصاً طريفاً من كتابه « الايام » ، نصاً دفعني دفعاً الى قراءة الكتاب كله ، ثم الى قراءة آثاره التي كانت قد صدرت حينئذ .. ولعله اتيح لي أن استمع لطه حسين يحاضر بالفرنسية في مؤتمر اليونسكو المعقود ببيروت عام ١٩٤٧ عن « مكانة الحضارة العربية بين الحضارات الانسانية » وبالعربية في دمشق عام ١٩٥٦ عن « شعراء الشام » ، فكان في حديثه المتأني ، واسلوبه الرائع ، والقائه الممتع العذب ساحراً شد اليه الاسماع شداً . اعجبت بطه حسين اعجاباً لا حد له ، واحببته حباً بلغ أعماق القلب مني ، فقرأت كتبه كلها ، وتتبعت اخبار نشاطه الجم ، حتى اليوم الذي نعاه الي المذياع فيه .

- ٣ -

هل كان طه حسين « اسطورة » كما حلا لرئيس تحرير احدى كبريات المجلات العربية أن يسميه ؟ لا ! لم يكن طه حسين كذلك ؛ فالاسطورة أحلام وضباب وخيالات تحاول أن تمسك بها فتفلت منا . أما طه حسين فانسان عاش بيننا ، رأيناه ، وسمعناه ، وقرأنا آثاره ، وشهدنا نضاله ضد المعوقات ، حتى استوى على ارفع عروش الثقافة .

حياته – كما سنرى بعد قليل – ملحمة ، وآثاره تؤلف مكتبة متنوعة ، ومكانته رفيعة ، وأثره فيمن أتى بعده من مفكرين وعلماء وأدباء كبير كبير . طه حسين من رواد نهضتنا الفكرية والأدبية المعاصرة ، أسهم فيها بنضاله وبقلمه من أجل الحرية والتقدم والتجديد ، وقدم لها آثاراً نقلت الفكر والأدب العربيين من ظلمات عصور الانحدار ، الى آفاق القرن العشرين وأنواره . وهي آثار متنوعة : فيها الادب والتاريخ والتربية والمقالات الصحفية السياسية ، فضلا عن اسهام صاحبها في التعليم الجامعي ، وفي تيسير المدرسة ، وفتح أبوابها أمام الجماهير العريضة من أبناء مصر العربية ايماناً منه بأن العلم كالماء والهواء بالنسبة للانسان . انه ، عندما قيضت له الظروف أن يلي وزارة المعارف ، يصر حتى تقر مجانية التعليم ، وتفتتح المدارس الكثيرة ، وتوحد هذه المدارس فيدخلها أبناء الشعب جميعاً ، دون تفريق بين طالب وآخر .

- ٤ -

لا ! ليس طه حسين أسطورة ، بل هو انسان عبقري ، حرمته الطبيعة حاسة البصر ، وعوضته عنها ذكاء حاداً ، وذاكرة عجيبة ، وأتاحت له الظروف أن يتعلم ، وأن يتصل أعمق الاتصال بالثقافتين العربية والغربية . فاذا ما أضفنا الى ذلك نشاطه الواسع ، وقدرته الفائقة على العمل ، ظهر أمامنا تفسير كامل لما تركه طه حسين من نتاج نال تقدير العالم واحترامه .

- ٥ -

فأي جوانب هذه العبقرية نأخذ ؟ وأيها ندع ؟ ما كانا ان ننفق الساعات في استعراض أحداث حياته ، أو في الحديث عن كتبه ، أو نتناول اي جانب من جوانب

عبقريته التي أشرنا اليها منذ قليل ... على أننا مها حاولنا ان نفي الرجل حقه ، غير مدركين ذلك ، لان الاحاطة بما خلّفه من فكر وأدب وثقافة وأدب ، يحتـاج الى بحث مفصل في كتاب ضخم . أما هذه المقالة فحسبها أن تكون تحية مفعمة بالعطر ، متواضعة أشد التواضع ، تضمها طاقة من زهر ، إكباراً منا لروح طه حسين ، الانسان العظيم ، والأديب الكبير ، والمفكر الواسع الأفق ، والمعلم المؤثر في طلابه وقرائه .

- ٦ -

حياة طه حسين المديدة بين سنتي ١٨٨٩ و ١٩٧٣ ملحمة بكل مايحمل هذه الكلمة من معنى . تدلل على ذلك باستعراض أهم أحداثها بايجاز .

ولد في عزبة متواضعة في صعيد مصر ، وكان سابع ثلاثة عشر من أبنـاء أبيه . أصابه الرمد في الخامسة فأهمل أياماً ، ثم دعي الحلاق ، فعالجه علاجاً ذهب بعينيه .

حفظ القرآن في قريته ، ثم غادرها في عام ١٩٠٢ الى الازهر حيث قضى فيه عشر سنوات يتلقى عن اساتذته دروساً فيها التقليد ، ودروساً أخرى فيها بعض الحياة التي اشاعها الشيخ محمد عبده بفكره النير .

منذ عام ١٩٠٨ بدأ يتبرم بالازهر ، فأقلع عن حضور الدروس التي لم يكن يميل إليها ، ولما افتتحت الجامعة المصرية في تلك السنة ، سارع في الانتساب اليها ، واستمع الى اساتذتها من العرب والمستشرقين الذين كان بينهم : اغناسيو غويدي يحاضر في أدبيـات الجغرافيا والتاريخ ، وليتمان في اللغات السامية ، وناللينو في الفلك عند العرب ، ثم في تاريخ الادب العربي ، وسانتلانا في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، وميلوني في تاريخ الشرق القديم ، وماسينيون في الاصطلاحات الفلسفية .

وأقبل على تعلم اللغة الفرنسية ، فلما آنس من نفسه قدرة على متابعة الدروس التي تلقى بها ، حضر دروس الادب الفرنسي التي كان يلقيها (لوي كليان) استاذ جامعة ليل المنتدب للتدريس في الجامعة المصرية .

وكان في تلك الاثناء قد بدأ يحضر للدكتوراه ، فقام بذلك دون اشراف من استاذ،

وحضرها بنفسه ، وقدمها ، ونوقشت بين يدي الجمهور في الخامس عشر من مايس سنة ١٩١٤ ، ومنح إثر ذلك شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جداً .

وكان ذلك حدثاً هاماً ؛ فذكرى أبي العلاء ، كما قال عنها في مقدمتها ، « أول كتاب قدم الى الجامعة ، وأول كتاب امتحن بين يدي الجمهور ، وأول كتاب نال صاحبه اجازة علمية من جامعة عربية ، يضاف الى هذا كله مالي الكتاب من قيمة ذاتية تجلت في منهج بحث علمي دقيق ، وإلقاء اضواء على علم بارز من اعلام الفكر العربي (هو المعري) ، ونتائج باهرة توصل اليها فيما يتعلق بذلك . لهذا لانعدو الحقيقة حين نقرر ان ذكرى أبي العلاء أثر هام وتاريخي في حياتنا الادبية والفكرية .

وأوفد طه حسين ، مكافأة له على جده ، الى فرنسا ، فدرس في مونبلييه ، ثم في باريس ، وألم بجميع أطراف الثقافة ، فحضر دروساً في علم النفس ، وفي الادب الفرنسي وفي التاريخ الحديث ، ودرس اللاتينية واليونانية وآدابها ، واستمع الى دروس في التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني . واتيح له أن يتتلمذ على عالم الاجتماع العظيم (دوركهايم) ، وأن يحضر تحت اشرافه رسالته عن (الفلسفة الاجتماعية عندابن خلدون) وان يتلقى دروساً على (ليفي بريل) وكان يحاضر عن ديكارت ، ولما فرغ من رسالة الدكتوراه عن ابن خلدون ، نوقشت في الشهر الأول من عام ١٩١٨ ، ومنح بعد المناقشة شهادة الدكتوراه من جامعة باريس . وكان في اثناء ذلك قد اقترن بالسيدة (سوزان) التي شاركته حياته كلها ، والتي كان لها أثر لايقدر في حياته وسعادته ودراسته .

وعاد الى القاهرة عام ١٩١٩ ليبدأ القسم الثاني والهام من حياته ، فلقد عين استاذاً في الجامعة فدرس تاريخ اليونان والرومان ، ثم الادب العربي بدءاً من عام ١٩٢٥ .

وصدر له عام ١٩٢٦ كتابه « في الشعر الجاهلي » فقامت حوله ضجة هائلة ، قوت الاسباب السياسية من عوامل إثارتها ، فنوقشت قضية الكتاب في مجلس النواب ، فوقف رئيس الوزارة الى جانبه ، فطويت القضية من المجلس ، ولكنها اثيرت في المحكمة ، في صورة دعوى رفعت ضد المؤلف أمام النيابة العامة . كان طه حسين في اوربا ، فلما عاد وجد القضية قد ملأت أعمدة الصحف ، وشغلت الأندية ، فوقف في وجه المتعنتين مدافعاً عن الكتاب ، على الرغم من أن النيابة العامة قد أصدرت قراراً بسحبه من البيع .

وفي عام ١٩٢٨ عين عميداً لكلية الآداب، ثم أكره على الاستقالة من هذا المنصب لاسباب سياسية ، ثم انتخب عام ١٩٣٠ عميداً لهذه الكلية ، فطلب منه أن يكون رئيس تحرير جريدة رئيس الوزارة ، فرفض ، فما كان من ذلك الرئيس الا ان انتقم من طه حسين بنقله الى وزارة المعارف، وهو نقل نفذه، ولكنه رفض العمل في الوزارة، وشن حملة صحفية ، ووقفت الجامعة الى جانب واحد من أركانها ، وكانت معركة مارس فيها صدقي رئيس الوزراء طغيانه الى النهاية حين أحال طه حسين الى التقاعد .

ولكن ذلك لم يقعده عن العمل فشمر عن ساعد الجد ومارس العمل الصحفي كاتباً، ورئيساً لتحرير احدى الصحف ... ثم تزول الأسباب السياسية التي أبعدته عن الجامعة، ويعود اليها أواخر عام ١٩٣٤ ، حيث العمل الجامعي استاذاً ثم عميداً لكلية الآداب حتى نهاية عام ١٩٣٩ ، حين انتدب مراقباً للثقافة في وزارة المعارف ، ثم مستشاراً فنياً لها ... ولما افتتحت جامعة الاسكندرية عام ١٩٤٢ انتدب مديراً لها حتى أحيل على التقاعد في السادس من تشرين الاول عام ١٩٤٤ .

وكان العام ١٩٥٠ ... في تلك السنة ألفت وزارة وفدية شعبية ، فكان طه حسين بين اعضائها وزيراً للمعارف ، وهو عمل بقي يليه حتى أقيلت الوزارة إثر حريق القاهرة في أوائل عام ١٩٥٢ ... في السنتين اللتين قضاهما وزيراً قرر مجانية التعليمين الثانوي والفني ، وحاول أن يجعل التعليم الجامعي مجانياً ولكن الملك أبى ذلك ... كذلك حول عدداً هائلا من المدارس الاولية الى ابتدائية،وافتتح آلافاً من الصفوف ، محققاً شعاره المشهور « التعليم ضروري للناس ضرورة الهواء والماء » وكان من نتائج ذلك انتشار التعليم انتشاراً واسعاً في اوساط الشعب المصري الكادحة ، لذلك كانت مجلة الطليعة القاهرية على حق حين قالت : « ان في اعناق المثقفين المصريين ديناً ثقيلا لطه حسين ، فما منهم الا من استمد من نوره عقله قبساً ، بل ان اجيالا بكاملها كان يمكن أن تنفق حياتها في غير جدوى ، لولا ايمان هذا الرجل العظيم بحق الانسان في العلم والحرية... »

وعكف منذ العام ١٩٥٢ على الانتاج الفكري الخالص ، وعلى النشاط في المجامع العلمية واللغوية التي كان عضواً فيها ... حتى أقعده المرض، فجعله رهين البيت ،وصرفه عن اي نشاط ، نستثني من ذلك حضور افتتاح دورة مجمع اللغة العربية مرة في العام ، والاستماع الى القراءات المختلفة ،واستقبال الضيوف الأعزاء ... على هذه الصورة قضى السنوات الثلاث الاخيرة حتى وافته المنية في الساعة السابعة والنصف من صباح الثامن

والعشرين من تشرين الاول لعــام ١٩٧٣ ، فنقلت وكالات الأنباء خبر وفاته ، وحزن عليه محبوه ، وعارفو فضله ، في انحاء العالم ، وهم كثيرون .

– ٧ –

هذه حياة طه حسين ، الحياة الملحمة التي نقلت الطفل الضرير من قرية بائسة في صعيد مصر ، وصعدت به تصعيداً ، حتى أحلته منزلة عالية بين الادباء المفكرين ، لا بين ابناء قومه فحسب ، بل بين ادباء العالم أجمعين . ألم تورد الصحف « انه فاز وخمسة أشخاص بجوائز الامم المتحدة لأبرز المنجزات في حقل حقوق الانسان ؟ وأنه كان سيتلقى تلك الجائزة لو عاش في العاشر من الشهر الماضي ؟ »

انها ملحمة الانسان العبقري ، الذي دخــل التاريخ من أوسع ابوابه ، وعاش ملحمة حياة ملأت الاسماع ، عطاءاً غزيراً ، وأثراً كبيراً في نفوس طلابه وقرائه .

ولعل أبرز مايمكن أن يقال تحية لطه حسين ثلاثة امور: نتاجــه الضخم المتنوع الثمين ، ونضاله في سبيل ما يؤمن به ، ودعوته لثقافة عريضة .

ولنتحدث بإيجاز عن كل أمر منها .

– ٨ –

خلف لنا طه حسين تراثاً ضخماً تجلى في أمرين :

نتاج هائل من المقالات نشرها في الصحف ، جمع بعضها في كتب ولم يجمع بعضها الآخر – وهو القسم السياسي – . وكتب بلغ عددها خمسة وخمسين كتاباً ، تقع في ستة وستين مجلداً . واحد منها باللغة الفرنسية ، وستة منها ترجمات عن هذه اللغة ، وكتابات من تراثنا ، حققها ونشرها طه حسين بالاشتراك مع العبادي والابياري ، وما تبقى من تأليفه وابداعه .

تلفت نظرنا حين نستعرض تراث طه حسين ، الامور التالية :

١ – تنوع هذا التراث : ففيه التاريخ الأدبي والاجتماعي ، والتاريخ القديم ، والتاريخ العربي الاسلامي ، وفيه الدراسات الادبية والنقدية ، والفنون الادبية الصرف من سيرة وقصة ورواية ومقالة .

٢ – يمثل هذا التراث في مضمونه انساناً استطاع أن يلم بالثقافة العربية والثقافات الانسانية قديمها وحديثها ، وأن يفيد من هذا الالمام في دراسته ، وفيما يدعو اليه من قيم ومبادىء .

٣ – شخصية المؤلف لاتغيب عنا لحظة واحدة فيما كتب وعلم وألف وترجم . تظهر في ثقافة واسعة ، ولغة عربية متمكنة ، وذوق أدبي مرهف ، واسلوب هو نسيج وحده بين أساليب العرب .

٤ – اسلوب طه حسين في كتابته اسلوب متميز ، متأثر بأساليب كتاب العصر العباسي ، وبالجاحظ منهم خاصة ، وبالجملة الفرنسية الطويلة . الكلمة تعبر في هذا الاسلوب عن الفكرة أو العاطفة بدقة ، والجملة الاساسية في الفقرات طويلة ، تجزئها الفواصل الى جمل اخرى صغيرة ، وفيها التوازن والايقاع والتكرار والترادف . وترفرف على ذلك كله موسيقى محببة ، تلذ الأذن ، وتشد القارىء ، وتجعله يعيش معها سعادة لاتوصف .

٥ – تؤرخ بعض كتبه فترات من تاريخنا الفكري والأدبي المعاصر . « فذكرى أبي العلاء » اول كتاب ينتجه مؤلف عربي متبعاً فيه المناهج العلمية في التأريخ الأدبي . و « في الشعر الجاهلي » أول كتاب عربي أعمل فيه صاحبه العقل ، واسلوب ديكارت في البحث والمناقشة . و « الايام » أول أثر رائع في السيرة الذاتية بلغة العرب ، بشهادة النقاد العرب والاوربيين ، وكتاباه « الفتنة الكبرى » و « علي وبنوه » يحملان ميزة نادرة في عرض تاريخنا العربي والاسلامي ، عرضاً جديداً يستند الى اصول الدراسة التاريخية الحديثة .

٦ – الكثير مما خلف طه حسين قد دخل التاريخ الأدبي ، ومثل العصر الذي عاش فيه ، يبقى منه خالداً : اسلوب صاحبه في الكتابة ، وطريقته في فهم النص وعرضه ودراسته ، واعطاء المعري حقه في أدبنا وكان متوارياً ، وتأريخه عصر صدر الاسلام في كتابيه « الفتنة الكبرى وعلي وبنوه » ، ثم كتابه العظيم « الايام » الذي ترجم الى اللغات الفرنسية والانكليزية والروسية والفارسية والاسبانية والصينية ، اعترافاً من امم الكون بقيمته الانسانية .

– ٩ –

عاش طه حسين حياته كلها مناضلاً من أجل مايؤمن به ، منافحاً عنه ، يخوض المعارك الادبية والفكرية والسياسية لايلويه عن ذلك ما تعرض له من أذى واضطهاد .

ناضل تحقيقاً لذاته ، فجد واجتهد ، ودرس وارتحل وتعلم ، حتى استطاع أن يلم بالثقافة العربية ، والثقافات القديمة ، والثقافات الحديثة ، وان يعرفها معرفة الانسان المتمكن منها ، والذي يخوض عبابها غير هياب . وإن أنس لا أنسى محاضرته التي استمع اليها مفكرو العالم وعلماؤه وادباؤه ، في مؤتمر اليونيسكو ببيروت عام ١٩٤٧ ، محاضرته التي وقف يحدث الدنيا مجموعة في مؤتمر ، وباللغة الفرنسية ، عن مكانة «الثقافة العربية بين الثقافات الانسانية » .. لقد أنصتوا اليه مدهوشين ، وشدوا على يديه مهنئين ، لانه بدا امامهم قمة اطلاع ، وذروة معرفة ، وفيضاً من ذوق .

وآمن طه حسين بالتقدم وبالسير الى الأمام فخاض معارك ضارية ضد كل الذين كانوا يريدون ان يشدوا عجلة التاريخ الى الوراء ، وان يوقفوا سير الأمة إلى مشارف القرن العشرين . كان مع اصلاح الازهر والعودة به الى أيامه الزاهرة ، أيام كان قلعة للفكر الحر ، لامكاناً لقراءة المتون والشروح ، وكان ضد من حاولوا الاقتصار على الثقافة العربية القديمة ، والعزوف عن الثقافة الاوربية ، وكان أخيراً مع الحرية بأجلى معانيها ، فوقف ضد الاضطهاد السياسي ، ودافع عن حرية الجامعة واستقلالها ، ودعا الى حرية الصحافة في التعبير عن الرأي ، ولقي في سبيل ذلك عنتاً ، ولكنه لم يلن ولم يهن ، على الرغم من أن جهاده هذا في طلب الحرية قد كلفه أحياناً رزقه .

وكان طه حسين يحس بالجهل الذي يرزح تحت وطأته الشعب المصري ، ويؤمن بأنه أهم أسباب تخلفه ، وبأن المدرسة طريق التقدم والفلاح . لذلك دعا الى نشر التعليم وتوحيده ومجانيته ، وفتح السبيل أمام جميع ابناء الشعب دون حدود أو سدود ، ثم طبق ذلك حين ولي وزارة المعارف ، فجعل التعليم مجانياً ، ميسراً للكثيرين من ابناء الشعب .

— ١٠ —

حين عاد طه حسين من فرنسا وبدأ نشاطه الأدبي والفكري ، كان الادباء والمفكرون العرب ينقسمون في نظرتهم الى الثقافة الى فريقين : فريق يتعلق بالقديم ويعجب بالثقافة العربية كل الاعجاب ، ويرى فيها الخير كله ؛ يكفي المثقف — في رأي هؤلاء — اطلاعه على ماخلف العرب في عصورهم الزاهية من أدب وعلم وفلسفة ، أما الثقافة الأوربية فشر ، لأنها ثقافة الاعداء المستعمرين الذين أنزلوا بالعرب وبالشرق أذى كبيراً .

وفريق آخر اتيح له أن يطلع على الثقافة الغربية فبهرته هذه الثقافة ، ورأى فيها انجازات رائعة ، وعلماً سامياً ، وآداباً تطاول السماء ... لذلك دعا الى الاغتراف منها ، والى العزوف عن الثقافة العربية التي لا تضاهي هذه الثقافات الوافدة ، ولا تلبي حاجات العصر ، وتعيق التقدم .

أما طه حسين ، الذي أتيح له أن يطلع في مصر وفي فرنسا على كلتا الحضارتين، وأن يتعمق كلتا الثقافتين ، فاتخذ رأياً ثالثاً . لم يقدس القديم لقدمه ، ولم يبهره الجديد بروعته وجدته ... بل دعا الى احياء تراثنا العربي ، ثم الى دراسته وابراز الجوانب السامية فيه ، ودعا ايضاً الى ضرورة الاطلاع على الثقافة الغربية اطلاعاً واسعاً ، وذلك بترجمة آثار اعلامها في الفن والعلم والآداب والفلسفة ، ثم في تمثل هذه الثقافة والافادة منها .

فالمثقف الحق في رأيه من تعرف تراثه العربي وأخذ أحسن أطايبه ، وألم بالثقافة الغربية الماماً حسناً . بل ان المثقف الحق في رأيه ، هو الذي يضيف الى هاتين الثقافتين اطلاعاً كافياً على الثقافتين الكلاسيكيتين اليونانية والرومانية . أليستا أساس الحضارة الأوربية الحديثة ؟ أما كانتا في أيامها تقدماً عظيماً للانسانية في سيرها الوئيد نحو الحضارة ؟

موقف طه حسين هذا من الثقافة ، هو رأي الرواد العرب الذين كانت لهم اليد الطولى في نهضتنا الحديثة التي قامت على احياء التراث العربي ، والتمسك به ودراسته ، وعلى الاطلاع على الثقافات الغربية والشرقية القديمة والحديثة .

وكان طه حسين في ادبه وفكره صورة لهذا الامتزاج بين الثقافات ، فلقد ألح على احياء التراث وعلى تحقيقه ونشره وطباعته ودراسته ، ودعا الى الترجمة عن اللغات الاوربية الحديثة وأسهم بنفسه في ذلك فترجم عدة كتب . وعمل عندما كان عميداً لكلية الآداب على ادخال الدراسات اليونانية واللاتينية الى أقسام هذه الكلية . وعندما تلقت الجامعة العربية تبرعاً مالياً سخياً ينفق لانجاز عمل ثقافي هام ، أشار بترجمة آثار شكسبير كاملة الى اللغة العربية ، ونشرها ووضعها بين ايدي القراء العرب .. وتم ذلك بالفعل او كاد ، فقد عرّف شكسبير في كتاب ، ثم تتالت ترجمات مسرحياته في اجزاء كثيرة ، .. وهو عمل – في الحق – عظيم ، يدل على بعد نظر طه حسين، لاسيما اذا تذكرنا المكانة الانسانية الرفيعة التي يحتلها شكسبير ، والفائدة الكبرى التي نجنيها حين نجد آثاره بين ايدينا .

ان فهم طه حسين الثقافة بمعناها الشامل ذاك وعمله في سبيلها، أبرز جوانب عبقرية هذا الانسان العظيم .

خاتمة

مها اختلف النقاد والمفكرون في تقييم طه حسين وأدبه وآثاره ، فان التاريخ قد سجل له :

أنه أحد روادنا العرب الاوائل الذين أسهموا بحياتهم ونتاجهم في دفع نهضتنا العربية الحديثة الى الامام أشواطاً طويلة .

وأنه رمز انساني خالد في حياته الادبية والسياسية والاجتماعية ..

وأن منهجه القائم على العقل وعلى حرية الرأي ، وأسلوبه المتميز بالجرس الحلو والاطناب واستيفاء المعاني ، وبالقدرة على الامتاع والاقناع ... ان ذلك قد رفع طه حسين الى مرتبة الخالدين .

نضيف الى ذلك « الأيام » الذي ضمن له مؤلفه قيمة عالية حين استطاع ان يجعل من سيرته الذاتية الصرف سيرة انسانية ، امتعت جميع الذين قرأوها في طبعاتها العربية التي تجاوزت الاربعين ، وفي ترجماتها الى اللغات الحية الكثيرة التي نقلت اليها .

ثم نختم هذه التحية بالكلمة الجميلة التي أبَّن فيها العلامة عبد الله العلايلي فقيدنا قائلاً :

« عبقري شق طريق الابداع الفني ، وخلق جيلاً دفع بالأدب العربي الى القمة : إن في القصة ولا أجمل ، أو في النقد ولا أعمق ، أو في التحليل ولا أجمل ، أو في كسر القيود ولا أجرأ .

ويوم يرى فن النهضة نفسه في المرآة ، يرى وجه رجل واحد فقط ، كانوا يدعونه طه حسين . »

طه حسين :

ذكريات ومواقف

الدكتور شكري فيصل

أجَلُّ هو ، في عيني وفي نفسي ، من أن أتناول حياته ببحث ، أو أن أعرض لكتاب من كتبه بدراسة ، أو أن أتوقف عند جانب من جوانب أدبه بالتحليل .. فلم يكن – عندي – المؤلفَ ولا الباحث ولا الناقـــد ، ولم يكن عندي الأديب الذي لايجارى ، وصاحب البيان الذي لايُضاهى ، وانما كان – قبل ذلك كله – الاستاذ ... ولا يحتمل وفائي لاساتذتي أن ألقاهم بغير النظرة الحية .. إني لأُغضي حياءً منهم وتوقيراً لهم .. وهل أحلى ، في مجالات التقدير ، من أن تقدم ذخرك النفسي كله عطراً بين يدي من تقدر وتوقر .

- ١ -

في حياته .. في البداية التي بدأت أعرفه بها ، قبل أن أغادر دمشق الى القاهرة، فتىً من فتيان العرب يطلب العلم في هذه العاصمة التي احتضنت العروبة والاسلام فكراً وثقافة ، ودفاعاً وحماية — في هذه البداية ، كان على لساني وفي قلبي — على لسان جيلنا كله وقلبه — كتاب « الأيام » .. وكان ملء جوانحي — هل ابالغ اذا قلت ملء جوانح هذا الجيل كله — كتاب « على هامش السيرة » .. وما أحسست طعم السيرة على نحو مغاير، كما أحسسته مرتين: مرة على قلم طه حسين الجنح في « على هامش السيرة » ومرة على قلم مؤلف انجليزي (ر.ف بودلي) كتب سيرة محمد — صلوات الله عليه — كتابه الذي ترجمه الى العربية المبكي، الطيب الذكر، المرحوم عبدالحميد جودة السحار وصديقه محمد محمد فرج .

من خلال هذين الكتابين ، ومقالات متفرقة في الرسالة — يرحم الله صاحبها الاستاذ الزيات للذي كان من فضله على ابناء العربية ، وللذي تركت مدرسته من أثر عميق في طبقات لا تكاد تحصى تنوعاً وفي اجيال لا تكاد تحد — من خلال الكتابين والمقالات كان يتخذ طه حسين في ذهني صوراً كثيرات .. يجمع بينها هذه الهالة من العبقرية الفذة التي لا اعرف كيف اصفها .. غمامات من السماء تظله .. ملائكة تحل عقداً من لسانه اذا تحدث ، ومن قلمه اذا أملى . روح أقرب ما تكون الى أن تجمع خصائص العربية كلها . هواتف من عبقر تتدفق بين يديه بروائع البيان فكأنما كان منها يتزود.. كانت عبقريته تتمثل لي بألوان وأشكال لا حصر لها ، أطوف بينها ، وأحار فيها .

فلما جئت القاهرة ودخلت كلية الآداب .. وأصخت بسمعي في هذه القاعة التي أصغيت فيها اليه ، ووقفت عند بابها اذ قيل لي من هنا يتقدم الى القاعة وهنا يلقي محاضرته . حينذاك كانت الصورة أبلغ مما قدرت ، وأعلى مما بلغت .. تجاوز الخُبْر الخَبَر .. ووجدتني منه في محيط من الاعجاب لا شواطىء له .. حينذاك أقلعت عن ان اتصور عبقريته على نحو من الأنحاء. وقنعت بأن أتذوقها، هذه العبقرية، تذوقاً، وأن أحاول وعيها محاولة .

- ٢ -

كانت كلية الآداب واحدةً في القاهرة وفي مصر العربية كلها .. واذا قلت إنها

كانت واحدة" في مصر كلها فكأني قلت انها واحدة في الاقطار العربية جميعها .. لم تكن كليات الآداب في الوطن العربي قد أخـذت طريقها الى ان تكون .. ولم تكن جامعة القاهرة « فؤاد الأول آنذاك » قد اخذت طريقها – وهي الجـامعة الام – الى أن تتوالد .. كانوا ما استنبتوا من أضلاعها جامعة الاسكندرية « فاروق آنذاك » بعد ، ولا الجامعات الكثر التي توالدت بعدها .. ولذلك كانت كلية الآداب في القاهرة تضم هذا الرعيل من العلماء الاعلام الذي لم يجتمع – او لم يكد يجتمع – مثله في كلية بعد ، طـه حسين ، واحمد امين ، وعبد الحميد العبادي ، وامين الخولي ، وعبد الوهاب عزام ، وابراهيم مصطفى ، وزكي حسن ، ومصطفى عامر ، اجزل الله لهم الرحمات ، وكثرة من زملائهم من مثل الدكتور ابراهيم مدكور والدكتور حزين ، وأضرابهما ، مـد الله في أعمارهم .

ولم يكن أمام هذا الجيل من ابناء الوطن العربي الذي أخـذ يتطلع الى القاهرة آنذاك ، مركز ثقافة ، ونقطة تجمع ، ومركز تفاعل.. لم يكن أمامه ، او أمام اكثره، إلا كلية الآداب.. فالتقى فيها في أواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات ، هذه الجماعات التي يخيل اليك ان لقاءهـا كان صدفة" .. ولكنك لا تكاد تفكر في ذلك وتتأمله حتى ترى انه كان بدايات الحركة نحو هذه الوحدة ، نحو هـذا الواقع الغائب الممزق ، من سنجار الى الاطلس ، ومن الخليج الى المحيط .. وبدايات هـذا التنبه من جاكارتا الى الرباط ، ومن شواطيء الأطلسي الى اعماق الصحراء في افريقيا والسهوب في آسيا .

- ٣ -

وكذلك التقى في القاهرة هذا الجيل الذي أشير اليه ولا أسمي هنا أحداً منه ، التقى شباب من المغرب ومن الجزائر وشباب من العراق ومن بلاد الشام ، وشباب من السودان ومن الجزيرة وأعداد شتى من الهند والدونيسيا واقطار افريقية كانت مغمورة.. التقوا ، كثرتهم ، في كلية الآداب .. ولكنهم التقوا جميعاً في رحاب الجامعة العظيمة .. لتنشأ أول جمعية للطلاب العرب ، في حركة الجيل العربي الجديد .

اولئك وهؤلاء كانوا اندمجوا في اتجاهين متوازيين ، حظها من الجد حظ متساو : اتجاه الدراسة الدائبة ، واتجاه العمل العربي الدائب ، في حدود ما كان

يمكن أن يكون العمل العربي آنذاك .. وهل من عجب أن يكون منهم ، بعد ذلك ، الصفوة المبكرة من الذين جاؤوا في مركز القيادة الفكرية او القيادة السياسية ، او الحركة الادبية ، في هذه الاقطار ؟! .

— ٤ —

اولئك وهؤلاء كانوا موزعي الهوى بين اساتذتهم .. كانوا ، اذا التقوا ، تحدث كل منهم عن استاذ يؤثره :

كان منا الذين عشقوا وضوح أحمد امين وعمقه .. وكان منا الذين أسرهم تفتح الأستاذ امين الخولي ، وقدرته التي لا تتناهى على الاثارة ، وآراؤه التي تستمر تتجدد مع كل ساعة نقاش .. وكان منا الذين استراحوا الى وداعة الدكتور عبد الرحمن عزام ورعايته للطلبة العرب ، والى نقاء عروبته ، والى هذا الافق الواسع الذي كان يجمع فيه بين الثقافة العربية في بلاد العرب والثقافة الاسلامية الاخرى في البلاد الاسلامية .

كان منا اولئك الذين اصاخوا يحنون رؤوسهم يلقون اسماعهم الى الاستاذ ابراهيم مصطفى وهو يعالج احياء النحو ويطرح الاتجاه والاتجاه النقيض عند النحاة وعنده .. وكان منا اولئك الذين اخذتهم نظرات الاستاذ عبد الحميد العبادي الى التاريخ الاسلامي واسلوبه الآسر في عرضه ، والجوانب الراكدة التي فجرها .. اخذهم ذلك منه واخذتهم هذه القامة المديدة السمراء التي لم يكن في مثل مكانتها من نفوسهم الا قامة الدكتور عزام العربية السمهرية .. وكان منا الذين استولى عليهم الدكتور ابراهيم مدكور في المدرج الكبير .. (اتراني انسيت رقمه ٧٨) .. في عمق احاطته بالفلسفة الاسلامية ، وفي اصالة بيانه ، وفي دقة منهجه ، وفي قدرته على أن يبسط المعقد ، وأن ييسر الصعب .

وما من شك في أننا ، جميعاً ، كنا في ذلك طرائق قدداً، نحب ونختص في توزيع هذا الحب هنا او هناك .. ونقدر ونتباين في هذا التقدير ابن تكون كثرته : هنا او هنالك ولكننا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاء العفوي في ظلال هذه الشخصية الآسرة الحبيبة : شخصية طه حسين .. لا يكاد يفلت احد من اسرها ، ولا تكاد ترتفع شخصية اخرى في مثل سمتها .. نحس ذلك ، ونجده في انفسنا .. ولكننا لا نعرف كيف انتهى ذلك البناء

ولا كيف استقر عندنا ، وليس لنا قِبَلٌ في اقامة البرهان اذ أردنا البرهان ، ولا في سوق الدليل ان طُلب الينا الدليل .. ذلك ان شخصية طه حسين كانت تمثل في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب ، والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر ، والعطاء الخصب الذي يوشك أن لا يدانيه عطاء .

- ٥ -

ماذا لو سئلنا يومئذٍ عن ذلك.. اترانا نملك أن نقول لماذا .. أ كان هذا الرجل الذي كنّا لا نقدر ان نتطلع اليه وانما كان يحتوينا صوته العذب ، وبيانه هذا الطلق ، وإثاراته هذه المثيرة — أ كان هذا الرجل ينظر الينا من خلال نظارتيه السوداوين بعين الصقر حتى لا ندري أهي هيبته ام هو حبه ؟! أهو اكباره ام هي رعايته ؟ أ كان المعلم الذي يعلمك أم كان الساحر الذي يستبيك ؟..

من يدري ما الذي كان يجمع اولئك وهؤلاء على هذا الاحساس بأنهم بين يدي هذا الصوت المبين .. الذي يأتي من بعيد بعيد ، من الجزيرة ، يتمثل في طريقه الهم صور البيان العربي كله .. فيثيرهم به اذا اراد اثارتهم ، ويدلهم اذا اراد دلالتهم .. يسمو بهم حين يكون السمو ، ويعبث بهم اذا اراد العبث .. ولكنه ، في كل ذلك ، كان يقف بهم على حافات المستقبل .. يفتح لهم ، بهذا الصوت ، آفاقه التي لا تتناهى ، ويلقي عليهم اعباءه الثقال .. وكأنه يقول لهم : هذا أدبكم : مادة النهضة التي اليها صبواتكم ، والوحدة التي اليها اشواقكم .

من يدري ما الذي كان يملؤنا ويملكنا آنذاك ؟.. أهي شخصية الثائر الى أبعد حدود الثورة أم شخصية المحافظ الى أدق معاني الحفاظ ؟.. أهي شخصية الذي كان يهدم أم شخصية الذي كان يبني ؟.. أهي الشكوك التي كان يثيرها أم اليقين الذي كان يزرعه ؟.. القديم الذي ما كان لأحد مثل مهارته في التعريف به والتقريب منه والتذوق له ، أم الجديد الذي ما كان لأحد مثل براعته في التوجيه اليه ؟..

عبث .. عبث أن أحاول معرفة ما الذي كان .

لقد كان هناك هذه الظاهرة الفريدة التي كنا نسميها في تلك الفترة: الأستاذ العميد.

- ٦ -

خلال أربع سنوات تخللتها الحرب العالمية الثانية وهجمات روميل ومعارك العلمين، كان الاستاذ العميد محوراً من محاور وجودنا الدرسي وتكويننا العلمي .. وكان المحور اليقظ المتحرك في الوجود الأدبي العربي ... وما أذكر أننا أغفلنا ساعة من ساعاته، أريد أن أقول ما تأخرنا ساعة من ساعاته ..

كانت الغرفة، في جوار قسم اللغة العربية – رعى الله الغرفة والقسم والاساتذة – لاتتسع إلا لنصف الذين يزدحمون فيها .. يتراصون على المقاعد، ويجتزئون بطرف منها، ويقفون من حواليها وبينها لايكاد يرتفع لهم صوت من قبل أن يكون «الاستاذ العميد» قد غادر غرفته الى الدرس .. ان وجوده المعنوي القوي يسبق حضوره العادي .. فاذا غادر غرفته الى القاعة كانوا أشد مايكون الانسان ترقباً .. حتى اذا وجدوا ريحه خيم هذا الصمت العجيب في ترقب صاحبه «فريد شحاته» يتأبط ذراعه برفق، ويجلسه مجلسه في حذر وتأن .. وينطلق «فريد» يفتش عن مكان، فلا يجد الا المكان الذي يخليه له بعض الطلبة ..

ثم تكون الايماءة الأولى : حركة من الرأس كأنما يستطيل برقبته النحيلة ليرى أو ليُرى .. ثم تكون الايماءة الثانية : ضربة باطن كف بظاهر كف أخرى .. ثم ينحدر السيل، لايحمل إلا كل مصطفى مختار .. ساعة كاملة أو نحو الساعة .. لايسمع فيها إلا هذا النغم العربي المبين، في طلاوة ليس مثلها طلاوة، وفي إيقاع ليس مثله في محاضرات المحاضرين، ايقاع .. وفي معرفة متدفقة.. قد تثيرك فوق ماتستودعك من علم..وتتوجه بك بأكثر مما تُوَجّه اليك، وتنفذ من قلبك الى عقلك حينا ومن عقلك الى قلبك حيناً، لتأسر منك القلبَ واللب، والعقل والمشاعر، في اقتران عجيب وتوازن رائع.

- ٧ -

لست أملك أن أقول إنه لم يكن هنالك خير من هذه الساعات .. ولكني أملك أن أقول انه لم يكن هنالك أحلى من هذه الساعات . كان لها مذاق خاص .. الساعات التي كان

يتحدث فيها الدكتور طه عن الأدب الحديث ، والساعات التي كان يتحدث فيها عن الادب الأموي وعن الادب العباسي ماتزال وكأنني أستمع اليها الآن .

في الصفوف الاولى كنا نحن طلاب هذه السنة أو تلك من سنوات الاجازة «الليسانس» نحرص على المقاعد الاولى .. كنا نحس أن المحاضرة لنا وحدنا ، ملكنا .. لذلك كنا لانخلي هذه المقاعد للآخرين من طلاب الدراسات العليا الذين كان لهم مثل حرصنا ، والذين كانوا يبكرون على نحو ما كنا نبكر .. لعلهم كانوا أقدر منا على أن يفيدوا من هذه المحاضرات وأن يستثمروها في رسائلهم الجامعية أو في كتبهم . ولكنا كنا أقدر على أن نستمتع .. ولهذا لم يكن لهم إلا هذه المقاعد الخلفية يجلسون فيها .. هل أحدثكم عن هؤلاء الذين ورثوا في الجامعة مكان القيادة .. هل أسوق لكم أسماءهم .. في هذه المقاعد كانت تجلس سهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن ، وشوقي ضيف .. وفيها كنا نلمح عبده عزام وعبد العزيز الاهواني وعبد القادر القط ومحمد خلف الله وآخرين كثيرين .. فاذا خرجنا جميعاً أقبل بعضنا على بعض يستدرك شيئاً مما قاله .. أما أولئك الكبار فكانوا يمضون وراء « الاستاذ العميد » يخلص لهم أو لموضوعهم بعضاً من وقته .

-٨-

كيف كانت لي هذه الجرأة حين اخترت موضوع « الصورة عند بشار وأثر العاهة فيها » لأكتب فيه الموضوع الاول الذي أقدمه إلى « الاستاذ العميد » .. على حين كنت ، وكان زملائي ، لانجترىء أن نتطلع اليه .. فكانت نظرتنا التي نملكها الى صاحبه تعويضاً عن النظرات التي لانملكها اليه ؟..

لا أعرف كيف اخترت هذا الموضوع الدقيق الحرج .. ما أصعب الطريق وما أحفله بالمزالق .. هل غفلت عن هذه العاهة المشتركة بين بشار وطه حسين .. أم كانت شخصية العميد الطاغية من القوة بحيث تصرف الذين يسمعونه أو يقرؤنه أن يذكروا عاهته ؟.. لاأدري .

ولكن الذي أذكره وأرويه أني أمضيت الليلة كاملة وأنا أبيض ما اكتب صبيحة قدمت اليه ، متعثراً ، هذه الحزمة من الورق .. فلما كان بعد أسبوعين كنت اسمع اسمي يجري على لسانه .. وما عدمت بعد ذلك نداءه المحبب حين كان يقدر لي أن ألقاه .. الى ان غيبه المرض ، ثم غاب في أنوار الآخرة .

- ٩ -

سنة بعد سنة كانت تعمق صلاتنا بأساتذتنا وتشتد .. كنا نكتشفهم .. والصلات بين الاستاذ والطالب سلسلة من الاكتشافات، أحدهما يكتشف ماعند صاحبه من قدرات ، والآخر يحاول أن يكتشف كل ماعند ،وجوه من مدخرات العلم وخلاصات الدراسة وذرى التجارب .. كان هؤلاء الاساتذة الذين ندين لهم ، كما يدين هذا الجبل ، كالغابة المترعة التي تجد فيها الظل حين تريد الظل، والماء حين تظمأ الى الماء ، والثمر حين تشتهي الثمر ، والأمن والسلام حين كان يعوزنا ، في مغتربنا ، الأمن والسلام .

ولكن اكتشافنا لهم كان يتخذ صفة التعرف الأدق لهم .. لقد اخذنا نعرفهم ..كان إحساسنا بهم ، في حياتنا وسلوكنا ، ينمو .. ولكن معرفتنا بهم كانت تنمو وتعمق ، وتمضي من هنا من يمين ومن هنا من يسار ، وتنفذ صعداً الى أعلى حيناً ، وعمقاً حيناً آخر . وكان اكتشافنا منهم يثري من طرق المعرفة عندنا..حتى ليستقر في نفوسنا ان معرفة الاستاذ وحدها هي الطريق الى معارفه ، أو هي أسلم الطرق الى معارفه وثقافته .

وعلى ذلك كانت معرفتنا بالاستاذ العميد .. ما كنا نجرأ على التفكير بزيارته .. ولكن كان هنالك الى مايشبه هذه الزيارة هذه المنافذ الثلاثة :

أولاها : كانت جلسة لجنة الترجمة والتأليف في مساء الخميس

والثانية : كانت جلسات مناقشة الرسائل ، رسائل الماجستير والدكتوراه

والثالثة : كانت هذه المحاضرات العامة التي كان يلقيها هنا أو هناك ، في هذه الجمعية (محاضراته في الجمعية الجغرافية الملكية مثلاً) أو في تلك .

ودع عنك مقالاته وكتبه .. فتلك سبيل مشتركة بين جمهرة الناس .

- ١٠ -

في جلسات لجنة التأليف والترجمة في مقر اللجنة « شارع الكرداسي » كان عسيراً في البداية ان يكون لمثلي مكان .. ولكنا كنا ننتحل للزيارة هذا السبب المشروع : شراء الكتب ..وكان المدير الاداري رجلاً حسن العشرة مهذب النفس.. فكان يتيح لنا ان نطيل الجلوس عنده ، ان نسترق السمع .. كنا نشهد مدخل الاستاذ العميد الى اللجنة

أو خروجه منها .. وكنا نجد الفرصة أحياناً لنسمع حديثه الى سائليه ، غاديا أو رائحاً .. وكنا ننظر اليه او نسمع منه بعيداً عن رهبة الاستاذ وجلال المحاضر .

وفي المحاضرات العامة كان اكثر ماتطمع اليه ان يكون مجلسنا قريباً منه .. يكفي لنا ان نرى وان نسمع في آن .. وان نخرج من ذلك ببعض مالم يكن يتاح لنا في قاعات الدرس .

- ١١ -

أما جلسات مناقشة الرسائل الجامعية فقد كانت تلك فرصتنا الكبرى ، وفرحتنا الكبرى كذلك .. كان فيها شيء من تحلل من قيود الدرس وسلطان المحاضرة .. كان هنالك اساتذة آخرون من الذين يشاركون في المناقشة ، وكان هنالك هذا الجمهور الغفير الذي لايلتقي مثله دائماً على أرض واحدة .. ثم كان هنالك قبل ذلك وبعد ذلك « طه حسين » الذي يحب الجمهور، والذي يحبه كثيراً هذا الجمهور .. يحب هو أن يتحدث اليه، وينسج في كل جملة خيطاً من هذه الخيوط التي تشده الى مستمعيه أو تشد مستمعيه اليه ، حتى يكون بينه وبينهم هذا الرباط الذي لا يُرى .. وكان هنالك هذه النزعة المزيج من تشجيع صاحب الرسالة والاشادة به مرة ، ومن العبث به والانكار عليه مرة اخرى.

وليس بيننا — تلامذته أو جمهوره — من ينسى كيف كان يهيل الشكر والتقدير على الممتحن إهالة .. كيف كان يشيد به ويرفع من قدره ، ويمثل عمله وكأنه هذا العمل الكامل أو القريب من الكمال .. وكيف كانت نظرات الرضى من الجمهور المحتشد تتوجه الى صاحب البحث عبر هذا التقديم الرائع الذي كان يقدم به « الاستاذ العميد » تلميذه.. وكيف كان يمضي في ذلك شوطاً هو هذا الشوط البعيد الذي يجعل وجه صاحبه يتهلل بالبشر ويطفح بالطمأنينة .. حتى اذا بلغ من ذلك مبلغاً أحس معه الاستاذ انه أدى لتلميذه خير ما يؤديه ، وأحس معه التلميذ أنه ارتفع على جناحي ملك في سماء العلم ، وأحس معهما هذا الجمع المستمع أنه أمام عالم يشق طريقه الى العلم .. حتى اذا كان ذلك كله بدأ « طه حسين » رحلته الاخرى في الطريق المعاكس بهذه اللفظة الذي لايكاد ينطق بها حتى ينطلق المدرج كله ضاحكاً .. لأنه يعرف أن الاستاذ العميد قد بدأ يتخلى — مع احرف هذه اللفظة الاستدراكية : ولكن — عن الاعجاب الى النقد ، وعن تقدير صاحبه الى شيء من العبث به ، وعن الحسنات التي جهد في ابرازها الى السيئات التي

يقع عليها .. وأنه أخذ من صاحبه وجهة اخرى هي الى اللذع حيناً والى اللسع حيناً أقرب منها الى شيء آخر .

وكثيراً ما كان يخالط ما بعد (ولكن : الاستدراكية) شيءٌ من قسوة وشيء من تندر .. والتهلل الذي كان يملأ وجه الطالب أخذ يفسح الطريق لهذا العرق المتصبب .. ونظرات الناس التي كانت رضاً تضحي آنذاك اشفاقاً .

ثم لايمحو ذلك كله بعد ، حين تختلي الاجنة ويتجيف القلب ، الا الكلمة الرصينة الحلوة التي يلقيها الدكتور طه حسين بعد ذلك .. يمنح فيها صاحبه هذا اللقب العلمي أو ذاك بهذه الدرجة المشرفة أو تلك .. ان كان هو المشرف . فان لم يكن المشرف كانت التحية التي يلقاه بها اذ يتقبل تهنئته هي الطريق الى الكلمة الحلوة ، تمحو ما كان من أثر النقد العنيف .

ما تمنيت ، وانا اكتب هذا المقال شيئاً ، كما تمنيت لو استعيد ، ويستعيد معي هذا الجيل ، مثل هذه المناقشات مسموعة على شريط .. ولكني أنسى أننا لانحيا حياة العصر ولا نسهم فيه ولا نعرف كيف نفيد من معطياته .. ولو كنا كذلك لكان يجب أن تكون كل هذه المجالس مسجلة .. ولكننا خسرنا تقاليدنا العلمية دون كانت المجالس أماليات وسماعات ورواية صدوقاً ، ولم نكتسب تقاليد العصر .. ألم أقل ذات مرة اننا مانزال نتعامل مع أزياء الحضارة وصدفها ، باكثر مما نتعامل مع الحضارة نفسها ؟

- ١٢ -

يبقى الاستاذ العميد ، في عقولنا ، وفي قلوبنا ، هو الاستاذ العميد .. على كثرة ما كان من تنقله بين هذه المناصب الكثيرة التي أوسدت اليه : منصب المستشار في وزارة التربية يبيح التعليم ويفرض مجانيته ويرى انه حق كالماء والهواء .. « الباشا » الذي يخالط أمور الدولة التعليمية والفكرية في كثير من مؤسساتها ودوائرها .. الوجه العربي الذي يشرف على الادارة الثقافية في الجامعة العربية .. استاذ الجيل الذي يرأس مجمع اللغة العربية ويفتتح دوراته السنوية ، يشهدها سدنة اللغة العربية من أقطارها كلها .. كل اولئك لايحجب النبعة الاصيلة الأولى ، ويبقى الاستاذ العميد من قبل ومن بعد هو الاستاذ العميد .. أحب الالقاب والصفات ومصدرها ..

ومهما تتعدد السمات والتسميات فان اصقاها واحلاها وآصلها هو الذي يبقى في المقدمة .. يبقى جوهره وتأثيره الذي امتد على طول البلاد العربية وعرضها ، والذي بدأ يتشكل ويتكون في كتاب القرية مع الشيخ ، وفي الأزهر مع العلماء ، وفي الجامعة المصرية القديمة مع الاساتيذ الأول .. ثم لما ينته بعد لانه يمتد في كل جامعة اخرى عربية انشئت أو ستنشأ في الوطن العربي .

* * *

وبعد ، فأياً كان الرأي في بعض اتجاهات الاستاذ العميد ، فان هـــذه الاتجاهات رهينة بفترات من العمر أو ظروف من الظروف .

وفي تقديري انها ثغرتان :

الثغرة التي خلفها حين كان تحدث عن الشعر الجاهلي .

والاخرى التي خلفها حين كان مخطط لمستقبل الثقافة في مصر .

ولعلّ الثغرة الثالثة كانت في هذه المخاوف التي أثارتها نشأة مؤسسة الكاتب المصري .

ولست أملك ان اتحدث في هذه .. ولكني أومن أن فقه موقفه من الشعر الجاهلي ومن مستقبل الثقافة في مصر جدير أن يقوّم على نحو آخر .. وان كان لا بد من كشف عواره .. فالانسان انما يؤخذ بجملة عمره وعمله لا بمواقف منه .. والانسان لا يؤخذ بكل ظنون الآخرين فيه .. ان الانسان جزء من اهوائه وظروفه وعمره بقدر ما تكون هذه جزءاً منه .

اننا حين نذكر ما كان في كتاب « الشعر الجاهلي » من طه حسين يجب ان نذكر مئات من المواقف الاخرى بعد ذلك .. كان «طه حسين» فيها يتحدث عن الشعر الجاهلي الذي نعرفه على نحو ما كان يتحدث ابن سلام حين انتهى الى هذه النهاية الرائعة من أيسر طريق اذ يقول عن الشعر الجاهلي انه هـذه الاقسام الثلاثة : القسم الذي لا شك في سلامته ، والقسم الذي لا شك في نحله ، ثم هذا القسم الذي حار فيه العلماء وترددوا .. ولم يكن طه حسين الا احد هؤلاء العلماء ، ولكنه اعتسف الطريق ، وكان منه ما كان في قـوة التعبير وزهو الشباب ، وكان منه ما كان في تحدي الانسان الطموح الذي تريد

العاهة أن تقصف جناحيه . . وكان منه ما كان من اخطاء وتحريفات لا سبيل الى انكارها . .

غير ان ذلك في تقديري كان مرهوناً بزمن . . وكان مابعده نسخاً له أورجوعاً عنه . . لم يكن رجوع اقرار ولكنه كان اقلاعاً عن الاستمرار ، ومضياً في الطريق الآخر المعاكس .

إن ذلك ، في تقديري ، أضحى ذكرى محاولة ، لايكاد يلتفت اليها ، أمام ماكان من عمل طه حسين في احياء الادب العربي القديم وفي اثارة الادب العربي الجديد .

ولكن ألم أقل في بداية المقال : انه في قلبي وعقلي ، أجلّ من أن أنهض بدراسة له أو بحث عنه .

اني رهين هذا الشعور ، رهين شعور التلميذ الذي يريد ان يكون وقاره وتقديره أظهر ماعنده في الذكرى الأولى لانتقال استاذه ، الذي انتهى استاذاً للجيل . .

ترى أكان ذلك وراء أني لم أستطع أن أكتب عنه شيئاً لدى وفاته . .

طه حسين

رائداً وظاهرة

سهيل عثمان

في كتاب (قادة الفكر) عرض طه حسين رأيه في طبيعة الانسان النابه فوافق على أنه ظاهرة من الظواهر التي تنتج عن اسباب معينة كالبيئة والعصر والتكوين الطبيعي بحيث يسوغ للباحثين أن يتقصوا هذه الاسباب فيعللوا بها على وجه العموم نبوغ هذا الانسان ومضمون هذا النبوغ، وفي الوقت نفسه وجد أن كل انسان له شخصيته الفردية المتميزة التي يصعب استنتاجها من المؤثرات الخارجية وتحييج الباحث الى تناولها مباشرة في حقيقتها الفردية الحية . فليس طه حسين من انصار المنهج الاجتماعي وحده وان دعا الى الاستفادة منه ، وليس من انصار الاقتصار على المنهج الفردي في تناول العظماء وان عده شرطاً ضرورياً لفهم خصائص الشخصيات المدروسة . ولن نخرج في

دراستنا له عن المنهج الجامع الذي ارتضاه فسوف نحاول أن نعرض ما قدمه للناس وما أراد أن يقنعهم به ككيان له اصالته الخاصة ، وسوف نحاول ان ننقب عن العوامل الاجتماعية والنفسية والجسمية التي تعلل في حدود معينة هذا الكيان .

وما دامت الثمرة وليدة الشجرة وقبينة نوعيتها فانالثمرة الرئيسية التيانتجها طه حسين هي الادب ، فالادب هو موضوع انتاجه الاساسي وهو غايته ووسيلته في الوقت نفسه ، هو غايته الواضحة لأنه صاحب جهد دائم فيتنشيط الحياة الادبيةالعربية ورفع مستواها بالتأليف والترجمة والتلخيص والنقد وتقديم النماذج للقراء من انتاجه وانتاج سواه ، هو غايته لأنه يريده أن يكون حراً تام الحرية اذ ينبغي في نظره عدم الزام الاديب باسم المصلحة الخاصة أو المصلحة العامة ، أو باسم العقائد والرأي العام أو التقاليد او التيارات السائدة او الصاعدة ، وانما الاديب كائن واسع الثقافة مرهف الحس معد اعداداً متقناً ، على الناس أن يتركوه يفيض عن طبيعته بملء حريته ، ولا يخافوا فانه سوف يعبر عن بيئته وعصره من تلقاء نفسه لأنه لايعيش في برج عاجي ولا يقطن جزيرة خالية من البشر بل يعيش بين الناس ويضطرب في مجتمعه فيستمد مادته مما يحيط به ويتسرب الى داخله ، فالاديب يعزي النفوس ويثقفها ويرتقي بها، ولكنهاما أن يتنفس الحرية واما أن يختنق وهو يذكر بالخير عبارة ساخرة للنابليون يعترف فيها بفقدان الادب الجيد في ايامه ويلقي بتبعة ذلك على وزير داخليته .

وقد خاض غمار مناقشات طويلة مع دعاة الادب الملتزم رفض فيها كل التزام او الزام لا ينبع من شخصية الاديب الحرة التي تفيض بما امتلأت بـه ، وكان يعلن أن الادب ليس مجرد أجير عند الخير والحق فالاخلاق تختص بالخير والعلم يختص بالحق واما الادب فهو كسائر الفنون مختص بخدمة الجمال وان الجمال قيمة منالقيم العليا يتربع على قمة المثل العليا كصنوية الخير والحق ولا يذوب فيهما والناس يبتغون تذوق الجمال والتمتع به كما يبتغون الطعام والعدالة والأمن وليس صحيحاً أن الجمال مشروع مؤجل لديهم حتى يحلوا مشكلاتهم العملية والنظرية فالفقراء انفسهم لا يصرفهم ما هم فيه عن طلب الجمال .

واذا كان الادب عند طه حسين غاية فهو ايضاً وسيلة اذ اختار لادبه مضموناً غنياً قيماً من الناحية الحضارية في نظره على الاقل فالثوب الادبي الذي كسا به انتاجه يشف عن دعوة حضارية وعن افكار كثيرة في مختلف شؤون الحياة وهمومها . أما

دعوته الحضارية فقوامها الحض على الرقي الذي يريد لقومه ان يحرجوه من تراثهم ومما يقتبسون من الحضارة الاوروبية ، وكأني به يعتقد انصنع التقدم الذي توصل اليه بنو الانسان كان شركة بينهم مع تباين في مرتبة ما اسهم به كل مجتمع ونوعيته تبعاً لتأثير الزمان والمكان وان الغرب قد انتهت اليه قيادة الحضارة في العصور الحديثة فكانت له في مختلف الميادين فتوحات لا يستغني المجتمع المتطالع الى النهضة عن تمثلها فبهذا التمثل يستطيع متابعة الشوط الحضاري من نقطة متقدمة ولكنه لا يحمله على الخروج من جلده بل على العكس يجب على المجتمع الناهض ان يتمسك بشخصيته الخاصة التي لا تتعارض مع التقدم فالتمسك بها يريحه داخلياً ويجعله اكثر انسجاماً مع ذاته ثم ان الحضارة الغربية ليست هي الكلمة النهائية في تاريخ الانسان ولم تعط كل ما يمكن للنوع الانساني أن يعطيه ولم تضع الحلول للمشكلات كافة فاحتفاظ المجتمع بمقومات شخصيته عند التفاعل معها يغذي الامل بتعدد الاضواء التي تنير درب الانسانية . ويتجلى ايمان طه حسين بالجمع بين الشخصية القومية وبين حضارة الغرب تجلياً عملياً في انتاجه ، فهو من ناحية قد اهتم بتراث قومه وسعى الى احياء اديم وفهمه فكتب في عصور الادب العربي وفي شخصياته البارزة مجموعة من الكتب والابحاث يخرج من يتتبعها بفكرة واضحة ومتكاملة عن طبيعة هذا الادب وسياق تطوره . ومن اهتمامه بالتراث كتبه التاريخية التي تتناول العرب والاسلام مثل مجموعة (الفتنة الكبرى) و (على هامش السيرة) و (الوعد الحق) ، ومن عنايته بالتراث أنه في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) يطالب بتأمين تعليم الدين لطلاب المدارس الاجنبية في مصر لأن الدين من مقومات الشخصية المصرية وان تعليم الدين لقسم من الناشئة دون القسم الآخر يخل بشخصية الجيل المصري. ومن الصعب تتبع انتاج طه حسين دون أن يلفت نظرنا تمسكه باللغة العربية واتقانه لها ومناشدته الكتاب الشباب احترامها وعدم رضاه باللهجات العامية بديلاً عنها ... واذا كانت الامثلة على ميله الى التراث لم تعوزنا فاننا نؤكد بأن الامثلة على ميله الى حضارة الغرب لا تعوزنا ايضاً فقد كتب الكثير حول الغرب وأسلافه الاغريق والرومان فهو مترجم عدد من المسرحيات الغربية قديمة وحديثة وملخص عدد آخر ومعلق على النتاج الغرب حاض على الاحتفاظ به والنسج على منواله حين يعجبه ، وهو يعرض بأسلوب ممتع نماذج للشاعر والفيلسوف والسياسي مستقاة من تاريخ الغرب القديم في كتابه (قادة الفكر) ويتبعها بنبذة عن الفكر الغربي الحديث ، وهو مدمن الرحلة الى اوربا وفرنسا بخاصة ويروي للناطقين بلغته بعد عودته من بعض رحلاته أنباء اوربا الادبية والاجتماعية

كشأنه في كتابيه عن رحلة الصيف ورحلة الربيع ، وصاحبنا قادر على فهم ما يقرأ له بعدد من اللغات الاوربية الحيةوالميتة فضلا عن اتقان الكلام والكتابة ببعضها ولا ينهض اهتمامه بالتراث من ناحية والالتاج الغربي من ناحية ثانية دليلا وحده على استغراقه في المزج الحضاري بل نستطيع ان نقيم الى جانبه دليلا آخر لعله اقوى منه وهو أن المزج يبدو جلياً في تناوله للموضوعات المختلفة التي عني بدراستها وان كانت تراثية ، صحيح أنه بحث في الأدب العربي وأرخ له ولكن من يقرأ ابحاثه تلك يدرك ان الموضوع عربي وأما المنهج فشركة بين تذوق الاسلاف العرب لشعر الشعراء وبلاغة البلغاء وبين اساليب النقاد الغربيين في فهم الآثار الادبية ومناهج الباحثين الغربيين في تعليلها وردهـا الى عواملها الاجتماعية والنفسية ولعل الجـانب المقتبس من الغرب هو الغالب على المنهج .

ولم يكتف بتعريض الادب والتاريخ العربي لمجهر المناهج الحديث بل هو في بعض كتبه على الاقل اجرى عليها مبضع الباحثين الغربيين حين أخذ بشيء من الشك الديكارتي جعله ينكر قيام دليل كاف على صحـة وجود بعض الحوادث والشخصيات وعلى صحة نسبة بعض الآثار الى العصر الذي تنسب اليه ، وكان يريد أن يدعم المزج الحديث بالمزج القديم فيشير الى استفادة العرب من آثار الاغريق والى تداخل العرب والموالي حتى لا تكاد تتأكد من هـذا الشاعر او ذاك أهو عربي أم مولى ويبحث عن التأثيرات الاجنبية هنا وهناك كأن يحلل فلسفة أبي العلاء فاذا بهـا صورة معدلة عن فلسفة أبيقور ، وهو لا يغفل الاشارة الى تأثير العرب والمسلمين في سواهم . وقد ذكرت أن صاحبنا يدعو الى احترام الدين والى تعليمه ولكن أفكاره حول الدين ليست مما اعتاد عليه الناس في مجتمعه حتى تاريخ ظهور أبحاثه على الاقل فالحياة الدينية عنده نشاط راق يثبت ان الانسان ليس مادة فقط والدين حام للقيم العليا والاخلاقية منها بشكل خاص فقد دعم في كتابه (جنة الشوك) كثيراً من الفضائل الاخلاقية بالآيات القرآنية وضرورة مراعاة الله في الوجدان ولكنه يريد من الحياة الدينية ان تملأ وجدان الانسان بالمشاعر النبيلة دون أن تعيق سعيه الحر لشؤون دنياه فهذه الشؤون تتبع الواقع وتغيراته وقد اراد أن يدعم فهمه هذا بالتراث ذاته فقد رأى في كتاب (الفتنة الكبرى) ان المسلمين في صدرالاسلام ذاته كانوا يتصرفون في شؤونهم الدنيوية حسب عقولهم واتفاقهم ولم يكن الدين محتويا ولا راغباً في ان يحتوي على أجوبة جاهزة للاسئلة التي تطرحهـا السياسة والاقتصاد وسواهما من شؤون الدنيا وكأن علمانيةأوربا فتحت أمام بصيرته آفاقاً في فهم التاريخ الاسلامي ، وقد تخطى عتبة الصدام حين ظهرت منه بوادر في (الشعر الجاهلي) تشير

الى انه قد مد مبدأ الشك حتى انتهى به الى بعض الاحداث والشخصيات الواردة في النصوص الدينية المقدسة فكان أن وقع الصدام بينه وبين الجهات الدينية وكان أن تعرض لهجوم شديد لم يعبثه خوف الناس على دينهم وحسب ولم تغذه الخلافات والمطامع السياسية وحسب بل عبأه ماضي طه حسين السابق على نشر كتاب الشعر الجاهلي منذ أن كان طالباً في الازهر يجادل شيوخه ويثيرهم ويجعل كثيرين منهم موضعاً لسخريته فيسقط في الامتحان سقوطاً ما يرتاب هو في حقيقة أسبابه ، وبعد حادثة الشعر الجاهلي ضبط طه حسين قلمه فلم يند عنه ما يثبت صراحة مخالفته للنصوص المقدسة عند قومه وان ظل على عادته في التحرر عند التفسير والفهم والبحث ، وعلى عادته في التحرر عند التفسير والفهم والبحث ، وعلى عادته في انتقاد جمود الحياة الدينية كما يمثلها رجالها وعلى دعوته الى تحرير التعليم من وصاية الدين مع المحافظة على الأخير ، وعلى كل حال فان الرجل قد اضيف الى قائمة ذوي الشبهات والمتاعب في الشؤون الدينية واصبح في مقدور الباحث عن قرين المعري وابن رشد في الايام العربية الحديثة أن يجده في شخص طه من هذه الناحية على الاقل ولسنا ندري اهو امتياز ناله الرجل ام شقاء ابتلي به ، ويظهر المزج في حديثه عن اللغة فقد ذكرنا أنه متمسك بالعربية الفصحى ولكن التطور ايضاً عزيز عليه ولذلك نجده يطالب به فهو في مستقبل الثقافة في مصر يتمنى اصلاح الكتابة العربية بحيث لا تزيد ولا تنقص عما يقرأه المرء في النص المكتوب وبحيث يقرأ قبل ان يفهم لأن القراءة هي التي يفترض فيها ان تساعد على الفهم وهي الخطوة الممهدة للفهم ومع ذلك فهو لا يوافق على العجلة في هذا الامر خوفاً من الضياع والتشتت ، وعندما ناقش جماعة العامية وانصار الخروج على الفصحى شرع للتطور طريقاً وسطاً فهو مقبول في مجال المفردات والموضوعات التي تتناولها اللغة ومن المناسب تبسيط قواعد اللغة لتقرب الى الأذهان ولكن القواعد ذاتها يجب أن تصان عن العبث، وان من يقرأ لطه حسين يلفت نظره استخدام بعض المفردات بنصها الأجنبي كالراديو والتلفزيون والسينما فهو لايشترط أن تترجم كل الكلمات الحديثة الى اللغة العربية ليكون الاسلوب عربياً ويشهد قارىء طه حسين عملية المزج في جانب آخر واضح اذ يجد الآية الكريمة أو شطراً منها مندمجاً في كلامه والبيت أو المثل العربيين الى جانب اشعار الغرب وأمثلته وحكمه ويحضرني في هذا المقام مثل (جنة الشوك) حيث تقرأ ما قال الله وما قال المتنبي وما قال جوفينال وحيث تروى القصة العربية محملة بأفكار جديدة وفقاً لفن من فنون الادب الانتقادي قال عنه المؤلف في المقدمة انه قديم عند أسلاف الغربيين . وصاحبنا مازج في تصوراته الوطنية فالعصر في نظره

عصر الأوطان والقوميات الأوطان المحددة بحدود جغرافية والقوميات المحددة بخصائص الجماعات ، ومصر هي أمته والعمل القومي هو العمل على نيلها الاستقلال والعزة والتقدم ولمصر في العالم العربي أو بين الامم العربية حسب تعبيراته مقام ممتاز فهي قائدته وهي مكلفة برعايته والاسهام في تثقيفه وتطويره فبينها وبينه صلات قوية من لغة ودين ومصالح اقتصادية ومثل أعلى وكثير من التاريخ وهذه الصلات لاتجعل من مصر وسائر العرب امة واحدة ولكنها تكفي لقيام رابطة الجوار والقرابة ولعل تلكؤه في الصعود من الوطنية المصرية الى القومية العربية ناتج عن تأثره بالرأي الغالب على الباحثين الغربيين في فترتي تكوينه وحيويته القصوى فقد كانوا يلحون على مصرية مصر واكتفائها بذاتها تاريخياً وبشرياً ومادياً فهي ام الحضارة قديماً وتتميز بطابعها الخاص الذي تقوم فيه الحياة على النيل وهي وحدة اجتماعية منسجمة ودولة ذات حدود واضحة .. ويمعنون في الالحاح حتى كأنهم يريدون تثبيت أفكار معينة في الأذهان ، ولست أنكر احتمال وجود عوامل اخرى لموقف طه حسين هذا وان كنت أرى فيه السبب الجوهري، ولكن صاحبنا لايتصور مصر معزولة عن العالم العربي كما أسلفت وكيف يستطيع تصورها منعزلة وأدبه بالذات أدب عربي له جمهوره وأنصاره ومعارضوه العرب وقد اهتزت الأقطار العربية المختلفة لأدب طه حسين اهتزاز مصر له فكان من الموضوعات الرئيسية في النوادي والمجلات والكتب العربية ولم يعامله العرب على أنه اديب اقليمي بل على أنه أديبهم الكبير فرحبت منابر المؤتمرات والهيئات الثقافية به وفتحت له دور النشر ووسائله صدرها ونصب رئيساً للجنة الثقافية في الجامعة العربية وهكذا يفرض الواقع نفسه بخيره وشره على المتهربين منه . ولو أردنا أن نستقصي جميع الأمثلة عن مزج طه حسين بين الأصالة والاقتباس من الغرب لضاقت بنا الصفحات وحسبنا أن نختمها بمثل طريف فبيت طه حسين كان الرجل فيه مصرياً عربياً والمرأة فرنسية غربية وكل ولد له اسمان اسم عربي مثل مؤنس واسم افرنجي مثل كلود فسبحان الذي أحسن صنع كل شيء .

ان شروط البحث الموضوعي تحملنا على ألا نتجاهل السؤال الذي يحوم حول الحاح طه حسين على المزج الحضاري مع اعطاء قيمة كبيرة للجانب الغربي من المزيج ، والسؤال هو هل كان الرجل يصدر عن قناعة داخلية بأن خير قومه يكمن في هذا الاتجاه أم كان مدفوعاً عن بعض الجهات التي لايهمها أصلاً خير مصر والعرب ولا العالم

الاسلامي بل تهمها مصلحتها وان تكون الامور لدى هذه المجتمعات ضامنة لتلك المصلحة؟ وفي مطلع الجواب نبادر الى أثبات حقيقة مؤكدة وهي أن الغربيين يسرون مبدئياً بأمثال طه حسين لأن أبناء كل حضارة يشون ويبشون لمن يذكر حضارتهم بالخير فنحن مثلا نسر بغوستاف لوبون الذي ذكر حضارتنا السابقة بخير فكيف لايفرح الغربيون بمن يشيد بحضارتهم السابقة واللاحقة وينشرها ويدعو اليها ، ان أبناء الحضارة الغربية يجدون صورتهم في دعاة حضارتهم والنفس مفطورة على الأنس بشبيهها ، هذا عن الغربيين عموماً وأما العتاة المكلفون برعاية مصالح الغرب بغض النظر عن القيم الحضارية في ذاتها فهم يفرحون ايضاً بأمثال طه حسين اذا اضعفت دعوته قومه امام الاستعمار الغربي أو اذا شتت نضاله أو شغلته عنه أو بهرته بالغرب حتى يبدو كأنه قضاء الله الذي لا يرد ، وهؤلاء المصلحيون يجدون في بعض آراء طه حسين ما يريحهم فهو في (جنة الشوك) سخر من مصر التي تتوسط لجلاء الفرنسيين عن سورية ولبنان قبل أن يجلو البريطانيون عن أرضها كما يسخر من مصر — والمقصود قادتها طبعاً — التي تعمل على توحيد العرب قبل أن توحد ابناءها ، ولا شك أن المصلحيين الغربيين وبخاصة اذا كانوا من فرنسا يرتاحون الى شخصية عربية تعقد الصداقات مع الشخصيات الفرنسية وتنقل الى أبناء لغتها صورة جذابة عن فرنسا أي في الجملة تعامل فرنسا معاملة ودية على رؤوس الاشهاد في الوقت الذي كانت فرنسا تستعمر ستة من أعضاء الجامعة العربية اليوم . هذا بعض ما يريح الغرب في طه حسين فهل شجعه عليه وهل كان الرجل على علم بما يراد منه ؟ ولنبادر الى القول بأن الغرب قد اكرم طه حسين فترجمت بعض كتبه الى لغاته ومنح الاوسمة ودعي الى المؤتمرات وغدا مسموع الكلمة عند العديد من الهيئات فهل كان هذا الاكرام نزيهاً خالصاً لوجه الفكر ؟ لو أننا أمام جماعة اخرى غير الغربيين ابان نشاطهم الاستعماري المحموم لقلنا ان الرجل قد أكرم لانه يستحق الاكرام وكفى ، فهو اديب باحث قريب من النفس وهو بطل قارع العاهة وانتصر عليها .. ولكننا أمام مستعمرين لا يرعون لشيء قيمة ولذلك نظل على شكنا بنوايا الغرب يومها تلك النوايا التي لا نستبعد أن تتسرب بشكل أو بآخر الى المحافل الثقافية الغربية ذاتها . وقد بقي في ذمتنا الشطر الاخير من السؤال وهو مدى علم طه حسين بما يريده الغرب منه وبالمصلحة التي يحاول استدراجه لخدمتها ونجيب بأن ما نعرفه عن طبع الرجل وأخلاقه يأبى علينا ان نصدق بأنه كان يرضى لنفسه ان يكون عميلا او أداة في يد سياسة أجنبية فهو معروف بالعمل وفقاً لقناعته

وحدها وهو عنيد في ذلك بالكرامة الشخصية إيما تمسك وليس هو من ذوي الجشع ولا من المستخفين بالقيم في سبيل العرض الزائل من مال وجاه وهو يأنف من التجاوب مع ما ألمح اليه سلطان بلاده فؤاد من استعداده لتلبية حاجاته في مقابل خدمات لم يذكرها ولكنها كانت مفهومة من السياق . وقد كان يكثر من ترديد البيت القائل :

فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان عليّ امير

وهو يكثر من الحديث عن الأخلاق وبخاصة في الحقل العام كالنزاهة والشجاعة الأدبية ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب وايثار المصلحة العامة وضبط النفس عن الشهوات التي ترخصها وتشغلها . . ولا يكفي حديث الانسان عن الأخلاق ليكون أخلاقياً ولا يكفي امتداحه الفضيلة ليكون فاضلاً أو ذمه الرذيلة ليكون نظيفاً منها بالفعل والأمر يختلف من حالة الى أخرى ، ونحن هنا أمام حالة معينة هي حالة طه حسين الذي لم يؤثر عنه فرق ذو أهمية بين ما يرغب أن يكون الانسان عليه وبين سيرته الفعليـة فصاحبنا يحض على المزج عن قناعة بأن الخير في هذا المزج الذي يقوم على اقتباس الانجازات التي حققتها الحضارة الغربية في مجال التفكير والعمل، وهو لا يعجب اذ يعجب بما في الحضارة الغربية من قشور ومن صخب وعبث وعنف بل يعجب بالجوانب المتصفة بالمثل العليا ، انه معجب بأوربا الجامعات ومؤسسات البحث والمعارض والمتاحف والمسارح والمطابع ويسمح لنفسه بانتقاد الاتجاهات المتحللة من القيم في أوربا فهو يحزن لأن المسرح الهزلي في باريس لم يكد يترك قيمة لشيء بسبب سخريته من كل ما يحترم الناس وهو يقر بأن الغرب بحاجة الى حل مشكلة العدالة الاجتماعية فيزدهر مجتمعه بالحرية والعدل والا فان المتاعب لن تعفيه وان يفلت من يد الفوضى أو الاستبداد وهو مع تفضيله الديموقراطية نظاماً يعرف المنزلق التي قد تنحدر اليه الديموقراطية حين يصبح زمامها في يد الأغنياء الذين لايبالون إلا بمصالحهم فيكرهها الناس ويثورون بها أو يتقبلون الحاكم المطلق المنقذ كما جرى للجمهورية الرومانية التي قبل الناس بعدها وبسببها الحكم الامبراطوري . وان العمل على المزج الحضاري مألوف في تاريخنا الفكري فليس طه حسين ظاهرة شاذة اذا ماتذكرنا الفارابي وابن سينا وابن رشد واخوان الصفاء ولا يشذ الغزالي نفسه عن هـذا التيار فهو قد حاول تقليص التأثير اليوناني ولكنه لم يحاول الغاءه تماماً واذا كان قد قلص التأثير اليوناني فقد فتح المجال لتأثيرات أخرى وردت الى الفكر العربي الاسـلامي من مصادر تسربت باسم التصوف فالتيار التوفيقي واضح في تاريخنا الفكري مع غلبة العنصر

الذاتي أو العنصر الخارجي بحسب الظروف والشخصيات ولعله واضح في تاريخ سواها ولعله من طبيعة الأشياء . هذا هو محور الجهد الرئيسي الذي يتجلى به أدب طه بل وسيرته بعد اتمامه تحصيله في أوربا بشكل خاص وقبل اتمام التحصيل كان تأثير لطفي السيد غير بعيد عن هذا الاتجاه ويتراوحهذا الاتجاه طابعهعلى أكثر مادعا اليهطه حسينمن ديموقراطية وعدالة اجتماعية ونشر للتعليم وتهذيب للنفوس والأذواق وقد عمل الرجل في السياسة وانتسب الى الأحزاب وآذته السياسة كما أوصلته الى الوزارة ولكنه كان في حقيقة أمره حضارياً أكثر منه سياسياً فهو قبل كل شيء أديب يخدم بأدبه قيما حضارية معينة ولعل تأثر سياسته بحضاريته المازجة هو الذي سمح لبعض تأكيدات الغرب أن تستقر في نفسه ولعله هو السبب في بعض الخروج في السياسة عن المنطق المألوف منه فهو عندما عاد من فرنسا انضم الى حزبالاحرار الدستوريينالذي كان أقرب من سواه الى الانكليزوالقصر والذي كان يمثل الارستوقراطية المصرية مع أن طه ينفر من الثلاثة معاً وقد علل هو ذلك الانضمام بأن حزب الاحرار الدستوريين كان في الوقت نفسه حزب المثقفين لان أبناء العائلات الثرية التي تدعمه قد مكنتهم ظروفهم من اتمام تعليمهم ومن السفر الى الخارج في سبيل ذلك فوجد جوه الثقافي الحضاري في هذا الحزب وليس هذا التعليل بعيداً عن الواقع ، وبغلبة الجانب الحضاري على السياسي عنده تعلل ما كان يبدو عليه من سذاجة في التفكير السياسي أحياناً فهو بعد أن وقعت وزارةحزب الوفد –وكان قد انضم اليه– معاهدة الاستقلال المنقوص عام ١٩٣٦ كتب يصف هذه المعاهدة بأنها اتفاق موثر جديد عقد بين مصر واوربا وما على الغرب بعدها إلا أن يدع مهمة تثقيف العرب وتحضيرهم لمصر القادرة على فهمهم وأن يلتحي جانباً وينتظر ثمرات جهود مصر ، مع أن الغرب كان ينظر الى مصر ذاتها على أنها جزء من منطقة نفوذه بل على أنها بلد مستعمر علياً ومع أن قصة الغرب مع المنطقة العربية ليست قصة تحضير وتثقيف بل هي قصة استعمار واستغلال في جوهرها والمستعمر المستغل يواجه بالكفاح وليس باقناعه بتوفر من يقوم عنه بالمهمة الانسانية التي ندب لها نفسه ، ولو أن رأي طه حسين الذي نناقشه صدر عن سياسي انتهازي او عن انسان عرف بغفلته لما اتعبنا انفسنا بتعليله ولكنه صدر عن طه حسين المشهود له بأنه لاينطق الا بما يقتنع به حقاً والمشهود له بالفطنة الحادة ايضاً ولذلك فنحن مطالبون بتعليل صدور هذا الرأي وامثاله من الآراء الملطفة لصورة السياسة الغربية يومئذ وما التعليل عندنا إلا بأن الرجل اديب حضاري له نشاط سياسي وليس سياسياً له نشاط ادبي حضاري . ومن الوقائع الجديرة بعناية الدارسين ان الشباب المصري

بشكل عام اتجه نحو النشاط الحضاري أكثر من النشاط السياسي فتجده يتتبع آخر انباء الفن والرياضة والادب والمسرح ويبذل الجهد في تحليل هذه الظواهر اكثر من الجهد الذي يبذله لتحليل السياسة والانغماس فيها على عكس الغالب على الشباب السوري الذي يهتم بالسياسة اهتماماً يصرفه عن كثير من وجوه النشاط الحضاري فأنت تجد بين الشباب السوري نسبة عالية من الملقنين السياسيين ومن المتتبعين لسير السياسيين وكيفية صنع الاحداث السياسية بينما تقل نسبة الملقنين الفنيين والرياضيين والمتتبعين لسير الفنانين وحتى سير المفكرين الذين ليست لهم علاقة بالسياسة وانت تجد بين الشباب السوري انصاراً للعقائد السياسية متحمسين أكثر مما تجد من انصار للنوادي الرياضية والتيارات الفنية وعلى كل حال فان جمهور العلم في القطرين مازال ناشئاً . ولسنا هنا في مجال تفسير هذه الظواهر وتباينها واتفاقها في اقطار الامة الواحدة وما نريد اثباته الآن هو وجود هذه الظواهر ولو في فترة زمنية معينة ثم كون طه حسين ليس غريباً باتجاهه الادبي الحضاري على الشباب المصري يومئذ .

هذا هو بشكل اجمالي مضمون الدعوة التي دعا اليها طه حسين بأدبه وبسيرته فما هي المنزلة التاريخية لهذه الدعوة واين نضع صاحبها من الرواد ؟ وهنا لابد لنا من تذكر اوضاع مصر والبلاد العربية بعامة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن حين زالت غشاوة التخدير والانعزال عن بصائر العرب فألفوا انفسهم وهم أصحاب الحضارة والمجد التليدين ضعفاء أمام الغرب عاجزين عن صنع كثير مما يصنع وفعل كثير مما يفعل وعلم كثير مما يعلم ونظروا الى الاتراك العثمانيين قادة المنطقة آنئذ فالفوهم لايقلون عنهم عجزاً وجهلاً فاخذوا يحسون الحاجة الى تطوير الأسس التي تقوم عليها حياتهم كلياً أو جزئياً ، ومع أن الساحة لم تخل يوماً من دعاة التمسك بالمأثور عن الأجداد وحده ولم تخل من دعاة نبذ كل التراث واقتباس كل مقومات الحياة الجديدة من الغرب فان المجرى الأساسي أخذ يمتلىء بانصار الجمع بين الجانبين . وتحرك الركب ببطء وحذر بحيث كان بحاجة الى رواد يكشفون له الطريق ويشجعونه وتوالى ظهور هؤلاء الرواد فأحمد عرابي ومصطفى كامل وقادة الجمعيات السرية كانوا رواد الميدان السياسي وجمال الدين الأفغاني — وان جاء من الشرق البعيد — وتلميذه محمد عبده كانا من رواد الفهم المتطور للحياة الدينية ، ونهض هنا وهناك رواد كبار وصغار في مختلف جوانب الحياة فسيد درويش من رواد التطور في الموسيقى وطلعت حرب من رواد التطور في الحياة

الاقتصادية ولتحرير المرأة رواده وكذلك لانشاء الجامعات . وردت الروح الى الحياة الأدبية فنشط نظم القريض وجدت المطابع في اظهار الكتب القديمة والجديدة مؤلفة ومترجمة الا أن النشاط الأدبي ظل حتى أوائل القرن العشرين حائراً لايدري مايريد او ضيق المدى حد نفسه بتقليد القدماء أو النقل الفج عن الغربيين . لقد كان ينقصه دليل العمل الذي يساعده على وعي ذاته ودوره ومستواه ، انه بحاجة الى صيغة نظرية مدعومة بالعمل ينتظم وفقاً لها وقام بهذه المهمة رواد من أمثال العقاد والمازني وطه حسين وأعتقد ان طه حسين كان أبعدهم أثراً على جمهور المتأدبين والقراء لأسباب منهـا أنه متمركز في الجامعة بحيث يستطيع ان ينشىء اجيالاً من الادباء ومنها اسلوبه الذي يجمع بين الوضوح التعليمي والرشاقة الفنية والمرح الهادىء او الساخر ومنها اهتمام النـاس باثارة نتيجة لاهتمامهم بحياته التي لم تخل من عنصر درامي مثير ابتداء بكفاحه ضد عاهته الى قصة الشعر الجاهلي الى قصته مع اسماعيل صدقي الى وزارته .. وقد اقبل طه حسين على الادب بحرارة ممتلئاً بما يشعر به أصحاب الرسالات فجعل من الادب رسول الثقافة الى الناس وانتقلت حرارته الى الناس فشغفوا بالادب وخاضوا في مناقشات الادباء وانتظروا عند باعة الصحف ليتلقفوا آخر مقال كتب في هذا الموضوع الادبي أو ذاك وبلغ من اهتمامهم بالادب انهم احرقوا كتبه متجاوزين بذلك على الامتياز الذي اختصت به كتب الفلسفة ، واذا بالاديب صاحب قوة في الهيئة الاجتماعية والسياسية يشتد بها أزر الحليف ويتثلم سلاح العدو . وقد ذكر طه حسين عند حديثه عن هوميروس في كتاب قادة الفكر ان الشعوب في مراحلها الأولى تستجيب للشاعر فيغدو معلمها الكبير يحدثها عن الدين وعن الاخلاق وعن الطبيعة والسياسة ، ولنا ان نعمم هـذه القاعدة لتشمل الشعوب المتحضرة أصلاً والمتطلعة الى نهضة حضارية فهي تنفر من جفاف الفلسفة والعلم الخالصين ولا تتجاوب بسهولة مع عالم الاقتصاد والاجتماع والتاريـخ وسواهم من المعنيين في التدقيق وانما يسحرها الادب شعراً كان أو نثراً فاذا اتيـح لها أديب يعرف كيف يملأ أدبه بمضمون حضاري مناسب أصبح معلمها الذي تخطو على يده خطواتها الجديدة الاول اذ يقدم لها بأسلوبه المعسول أهم المعلومات التاريخية والاجتماعية والفلسفية ويحدثها عن الأسلاف وعن المعاصرين المتقدمين ومناهج أبحاثهم واساليب حياتهم وأهم منجزاتهم ويثير في وعيهـا المشكلات فتكون جملة عمله ايقاظاً للعقل واحياء للشعور وحفزاً للارادة نحو التحرك المتطور ان الاديب في هذه المرحلة يسقي قومه رشفات من الرحيق الحضاري ليدفعهـا الى ارتياد الينابيـع والاغتراف منها أنه الربيـع المهيء للصيف . وقد قام طه حسين

بهذا الدور وكأني به قد قام به عن وعي له فهو ينوع موضوعاته وهو يعرضها بشكل جذاب ممزوج بنداء صريح أو خفي لحسن التفكير والعمل وقد نجده في المقالة الواحدة يستطرد وينتقل بحسب التداعي من موضوع الى آخر حتى يكاد القارىء الممعن في المنطقية ان يتهمه بتشتت الفكر والحق خلاف ذلك فصاحبنا ذو قدرة على تركيز فكره عجيبة ولكنه يميل أحياناً الى ان يكون كالمصور المترحل يلتقط صورة وصورة وثالثة ويبسطها أمام انظار قومه ليروا ويعتبروا . وبعد ان تستكمل الأمم أسباب نهضتها ينشأ بين ظهرانيها المختصون المتعمقون في شتى المجالات ويقوى صبرها على احتمال الجهد العلمي والفلسفي بل تفضل هذا الجهد على اليسر السابق تلتفت الى آثار الاديب فلا تجد فيها ماتجده في المؤلفات الاختصاصية من دسم وقد تحس بأن تآليفا الرفيق يؤدي بها الى اطالة لاتحتاج اليها طبيعة الموضوع ولا تتلاءم مع ضيق وقت الانسان الحديث والارتفاع العالمي لأسعار الورق ، ومع ذلك فانها تذكرها بالخير كما يذكر المرء مراتع صباه ويظل فيها مرعى خصب للناشئة ومنهل عذب للجمهور غير المختص .

هذا هو طه حسين الرائد وما صنع ، فما الذي صنعه على هذا النحو وصاغه وما هي العوامل التي أسهمت في تكوينه هذا التكوين المبين ؟ هنا نجد أنفسنا أمام مجموعتين من العوامل أولاها العوامل الاجتماعية والاخرى هي العوامل الذاتية الفيزيو نفسية ، فاذا ما بدأنا بالعوامل الاجتماعية الخارجية لانها اكثر وضوحاً لاحظنا ان البيئات الاجتماعية التي تنقل بينها طه ترتبط فيما بينها برباط ديناميكي يجعل كلا منهما تفضي الى الاخرى فأسرته المتدينة تحمله الى الازهر في القاهرة حيث يلتقي بالجامعة المحدثة التي توصله الى فرنسا . اما اسرته الصعيدية ففيها ما يجعلها نسخة من الاسرة العربية الريفية التقليدية وفيها ما يجعلها متطورة بعض التطور بالقياس الى نظائرها وبخاصة اذا ما تذكرنا اننا نتتبع فترة اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي انها من ناحية اسرة كثيرة الاولاد يسعى الرجل فيها على الرزق وتفرغ المرأة لشؤون المنزل ، والشعور بالرابطة العائلية لديها قوى ، تأخذ فيما تأخذ فيه سائر الاسر في قريتها من نشاط ديني واجتماعي وبخاصة في المواسم والاعياد وتستقبل الفرق الصوفية وتتأثر بالاساطير المستوطنة والطارئة ، وهي من ناحية اخرى تتميز عن الاكثرية الساحقة فهي أسرة لا تكسب رزقها من الارض مباشرة بل من وظيفة في معمل السكر وأنها بذلك اشد التصاقاً بالانتاج المتطور من الاسر الزراعية البحتة ، وتتنقل مع انتقال عملها من قرية الى اخرى ولعل كل هذه الامور قد اسهمت في استنارتها ، ولم تكن ذات ثراء ولكنها لم تكن معدمة فهي تستطيع ان ترسل

أولادها الى كتاب القرية وأن ترضي شيخه (سيدنا) بالجبة والقفطان عند اللزوم ثم توسليم لاكمال التحصيل في الأزهر والمدارس الثانوية خارج القرية مع التقشف الشديد طبعاً وهي ذات خدم ، وقد قدر طه حسين عرضاً دخل أسرته في مطلع القرن العشرين فكان عشرين جنيهاً في الشهر وهو دخل لابأس به نسبياً يجعل الاسرة فوق عتبة البؤس وتزداد قيمة هذا الدخل اذا لم ننس الفترة التي نتحدث عنها والقوة الشرائية العالية للجنيـــه المصري يومئذ ، وأما الأم فهي أم مألوفة في ريفنا كزوجة مخلصة تحترم زوجها ووالدة تحنو على أولادها بل تشمل بعنايتها أولاد زوجها الذين يعيشون في بيتها وكانت تعطف على طه المصاب وتشعر بضعفه وتواسيه وتجلب الى مريضه الأطعمة السائلة التي كان يخجل من تناولها أمام اخوته وهي أول من ذكره من أهله عندما نسوه في القطار وتلك أمور طبيعية بالنسبة الى الأمهات العاديات ، وأما العضو العادي وغير العادي اذا قيس الى نظرائـه فهو أبوه الذي يبدو لنا لأول وهلة شيخاً وقف عند حدود أولية من الثقافة لم يتجاوزها ويتبرك بالأولياء ويرجو ابنه الضرير أن يقرأ في خلوته من الآيات مقابل دريهات مايحل المشكلات ويذلل الصعاب ، ولكننا اذا تفحصناه بعناية نجده مستنيراً محبـــاً للاستنارة ظامئاً الى المعرفة قد انتقى لمنظرته جلساء على شاكلته يهتمون بآخر الأخبار ويتداولون في شؤون البلاد والتقدم الذي حصله الأجانب مع كره الاحتلال ، وهو طموح يحقق طموحه في أبنائه فيعلمهم ليعدهم للمعالي حتى أنه لم يعدم لابنه الضرير طه عملاً عالياً يعده له وهو أن يكون شيخاً نابهاً من شيوخ الأزهر يتحلق الطلاب حوله مشوقين الى علمه ، ومع ثقل حمله فقد كان شديد العناية بطه يتابع حفظه القرآن ويسناه حين ينساه دون أن يقسو عليه ويفرح بتوفر من يعلمه التجويد وألفيـــة ابن مالك ولولا أن أخاه الأزهري كان يؤجل أخذه معه الى الأزهر لأرسله أبوه اليه قبل أن يبدل أسنانه فهذا الاب هو العامل الايجابي الحاسم الذي سمح لطه حسين منذ نعومة أظفاره أن يطمح في كسر دائرة العجز والعيش المحدود وما حيلته لو أن أباه كان أقل تفتحاً فنظر اليـه بعين المستيئس وتركه يعيش عالة على أهله والناس أو هيأه ليكون مجرد قارىء في المياتم والأعياد وقـــد هدده والده نفسه بهذا المصير حين سخط عليه لمخالفته العقائد الشائعة ولكنه لم يكن جاداً في تهديده كما كشفت الايام ، وليس من الموضوعية ان نظلم الآخرين لنثبت عبقرية طه حسين واننا لنظلم أباه اذا تجاهلنا دوره الحاسم . وهذه الآسرة التي نشأ فيها طه حسين أتاحت فرصاً عديدة لنمو مواهبه ففيها الكبار الذين يتعلم من احاديثهم وفيها الصغار الذين يقص عليهم القصص ويحدثهم بما يعلم فتدرب ملكاته الكلامية وقـــد

شحدت هـــذه الأسرة قدراته النقدية والساخرة بمساسها عن جماعة الطريقة الصوفية وشيخهم وأقواله الجوفاء وطمعه وشرهه هو وجماعته وبانتقادها لسيدنا وأمثاله . ولكن هذه الاسرة لاتخلو من احوال تسبب انشقاق النفس الحساسة عنها فهي اذ تنتقد وتسخر تعود الى مجاملة من انتقدتهم وسخرت منهم وكأنها لاتخلو من شيء من الرياء تجده في أغلب المجتمعات ، وأعضاؤها ليسوا على درجة واحدة من رعاية طه والحدب عليه بل ان اخوته كثيراً مايتضاحكون منه وان في عناية ابيه به شيئاً من التعجل يرهق الطبيعة الطفولية التي كانت تنتقم لنفسها بالانشغال عن التحصيل والحفظ مما يوقع الاب المفخور في الحرج أمام ضيوفه وتبدو الاسرة في كثير من احيانها سائرة في طريقها دون ان تحفل بهذه النفس المرهفة التي تتمخض في ركن من اركانها المنزوية . وكان الكتاب الذي حمل اليه طه صغيراً مليئاً بما يثير الخيال والسخرية والنقد ونشدان الاصلاح في آن واحد كجلسة سيدنا وهيئته وصوته وسيره مغنياً بين ولدين من أولاد الكتاب وتنافسه في الطمع والكذب والنفاق مع العريف والرشا التي كانت تدور في الكتاب وفيه مايغذي الذوق كأغاني نفيسة العمياء ولا تخلو حياة القرية من مرح أصيل في شعب مصر ومن طيبة وبساطة تصل الى حد الخرافة وقد تأثر الطفل بتصديق الناس لاكذوبة المذنب الذي يوشك ان يأخذ الارض ومن عليها وجزعهم والمعالجات الجاهلة والخرافية والمبتزة التي قدمها المهيمنون على فكر القرية ولا شك ان الخزي الذي أصاب الناس بعد انكشاف الحقيقة ترك في نفس الصبي أثراً انتقادياً بالغاً ، وفي القرية شعر شعبي وحكايات شعبية فالعوامل في البيئة الاجتماعية الأولى متضافرة على اذكاء الخيال والذوق والنقد وطلب الافضل . ولا شك ان صاحبنا بدأ يشعر بفراغ يجب ان يملأ في مجتمعه منذ سنواته الاولى في القرية أو كأنه كان يحس بأن شيئاً يجب ان يتمم وبأن خطوة يجب ان تخطى مايكاد الآخرون يمون بها حتى يتراجعون .

ثم انتقل الى القاهرة ليكون عضواً هامشياً في جماعة أخيه الاكبر التي كانت تقيم في حوش وتتألف من طلاب أزهريين بخاصة ومن آخرين وليلتحق بالأزهر . وقد افتقد كثيراً من الحنان الذي كان يلقاه من أبويه في القرية ولكن جماعة أخيه التي وقف منها موقف المتفرج الحذر أتاحت له هي وجيرانها نماذج بشرية جديدة للتأمل بعد أن مل من تأمل سيدنا وأمثاله كما أنها كانت جماعة جادة يمكن للصبي ان يستفيد من علمها ويقتدي بجدها ، وأما الازهر فله دور خطير في تكوينه فقد كان يمثل الأمل الوحيد للارتقاء

فمن عادة البلدان المتخلفة ان لتردد قوانينها المدنية في توظيف المكفوفين وسوام من ذوي العاهات أو تأبى ذلك وأما أنظمة الازهر والمدارس الدينية فكانت لاتمنع المكفوف ان يصبح شيخاً ذا حلقة ويبدو أنه درس كثيراً اثناء حياته الازهرية فاكتسب متانة في اللغة واطلاعاً على التراث وأصبح من مناقشي الشيوخ المزعجين لضيقي الصدر منهم وما اكثرهم .

وقد اطلع عن طريق جماعة أخيه ثم عن طريقه جماعاته الخاصة على مطامع وشهوات وشياطين تركب اكبر الرؤوس وتلحق بأشهر الاسماء فمهد ذلك الى جانب ماحمله من قريته على نمو الاستعداد في نفسه للانخلاع عن الحالة التقليدية لمجتمعه وكان فضلاً عن ذلك يلقى جموداً وحرفية بل وجهلاً مغلقاً بمظهر علم زائف واتاح له الازهر التعرف الى الشيخ سيد المرصفي فاكتسب منه أدباً وتغذت نفسه الساخرة بانتقاداته وعندما اهتزت شخصية المرصفي بسبب بادرة الجبن التي اظهرها قوى شعور الفتى بأن في المجتمع نقصاً يجب ان يتمم وفراغاً يجب ان يملأ . وقد اتاحت له الحياة الازهرية ان يكون على مقربة من الحركة العقلية التي بثها الشيخ محمد عبده فيه وان يكون من الموالين لها ثم اتاحت له القاهرة ومشكلات الازهر ان يتصل بالصحافة ويتعرف على لطفي السيد وعبد العزيز جاويش ويقترب من السياسة وكان يزداد ميلاً الى السخرية بتقدم عمره الازهري ويبدو أنه كان سيصبح من الساخرين الذين لايحملون مضموناً ايجابياً هاماًوراء سخريتهم لولا أنه حدث حدث اجتماعي لم يكن في الحسبان وهو انشاء الجامعة المصرية الاهلية يومئذ واعجابه بمناهجها الجديدة وانتسابه اليها . واسقط في امتحان العالمية بالازهر ولكن هذا لم يكن حادثاً عرضياً بل دل على نهاية مرحلة وبداية أخرى دل على نهاية مرحلة وبداية أخرى دل على ان الشاب قد وجد نوعاً ما البيئة التي يبحث عنها ممثلة في الجامعة ومن الارجح أنه لونجح في الامتحان الازهري لما غير نجاحه من الأمر كثيراً لأنه كان قد ترك طريقاً واتبع طريقاً آخر . وفي الجامعة بدأ تفاعله مع الحضارة الغربية والاعجاب بها إذ شاهد فرقاً بين الاساتذة الاجانب وأغلبية الاساتذة المنتمين الى قومه وأما الفرق بينهم وبين شيوخ الازهر فاكبر من ان يقدر . وقد اتاحت له الجامعة معايشة المناهج العلمية الحديثة وممارستها كما وفرت له مناخاً حراً لم يألفه في الازهر ، ويظهر ان قلة عدد الطلاب أسهمت في راحة طه حسين فهنا يقدر للفوق طه حسين ويبرز بدلاً من الضياع في الزحام الازهري وهنا ينتبه اليه بعض

المسؤولين الجامعيين والذين لاتنقصهم الوجاهـة في المجتمع مثل علوي باشا فيرعونه بقدر ما تسمح به طبائعهم فتساعد عودة العنصر الأبوي على تقوية الطمأنينـة والثقة بالنفس . وقد أتاحت له الجـامعة فرصة نادرة لم يتردد في ابتدارها وهي فرصة الحصول على أول شهادة دكتوراه منها فأصبح يشار اليه بالبنان على أنه من مثقفي مصر الكبار واستقبله امير البلاد مهنئاً ومشجعاً وموجهاً مع انه بعد ان كثرت الشهادات لم يعد مدير المنطقة يرى من واجبه أن يستقبل حامل الدكتوراه . وقد حمل هذا النجاح الجامعة بعد لأي على أن تتيح له فرصة العمر وهي طلب العلم في فرنسا . وقد وصلها مقتنعاً أنه سيجد فيها كثيراً مما يبتغي علماً وأدباً وفناً ومنهجاً ولم تخيب رجاءه فقد لقي فيها ما كان يفتقده في الأزهر افتقاداً شبه تام وما كان يفتقده في الجامعة المصرية الى حد كبير وجد فيها الباحثين المستغرقين في البحث سالكين فيه مسالك منظمة مستوعبة تتيح لهم أن ينتجوا انتاجاً معللاً وتتيح لسواهم أن يناقش انتاجهم فيوافقهم أو يخالفهم ووجد علماء السحر وحالات التابو (اللامساس) مكشوفة عن كثير ممـا يعتبر في تراثهم وفي تراث المجتمعات الأخرى مقدساً ، وقد لاقت كل هذه الامور قبولاً في نفسه فقد مل من أدعياء العلم المضيعين كرامته لطمع في نفوسهم أو لضغط ظروفهم كما مل من كثرة الشؤون التي توصف بالتقديس ويمنع البحث الحر فيها وقد كان صاحبنا على استعداد لاحـترام المقدسات الجوهرية كحقيقة العقائد الدينية ولكنه ليس على استعداد لأن يعتبر أكثر جوانب الماضي والحاضر مقدسة لايجوز الخوض فيها أو يقتصر فيها على الرأي السائد ، فالمبالغة في التقديس مطية الجمود والفقر الفكري وقد كانت له تجربة قاسية في الأزهـر أثناء دراسة كتاب الكامل للمبرد عندما وافق على قول القائل بأن الحجاج رجـل عصى وأساء الادب بحق البيت الحرام ولم يكفر على خلاف مذهب الفقهاء الذين كفروه فكانت له محاكمة تأديبية كاد أن يطرد من الازهر على أثرها . وقد لقي في فرنسا الحرية السياسية والشخصية ورأى أنها تنتجان مجتمعاً موفقاً ناجحاً مريحاً للانسان فرسخت في نفسـه عقيدة الحرية التي كانت قد نشأت فيها من قبل . ولكن فرنسا لم تعنه على حل أزمتـه الفكرية بل أعانته على حل أزمته الشخصية بتقديمها الزوجة رفيقة العمر تفهمه وتقدر مواهبه ولا تستهين به نتيجة عاهته بل تشجعه وتحمل قسماً كبيراً من عبء القراءة والكتابة له وبخاصة في أيام صعوده الاولى حيث لم يكن دخله ولا مقامه كافيين لاتخـاذ المساعدين القادرين على تلبية كل حاجة هذا الباحث الطلعة ولم تكن في تلك الايام عبئاً مرهقاً تكدر طموح رفيقها بطلباتها وبسخطها على قلة ذات اليد وقلة مايفرغ زوجها لها وللحياة العائلية

بل كانت طائراً خفيف الظل يخفف خفق جناحيه ثقل المسير ويهدي الى الطريق الصاعد، وقد كان زواجه حدثاً ناجحاً من الناحية العملية يدل على ماعرفناه عند صاحبنا من حس عملي يجعله يعرف أين الخير ويقدم على التقاط الفرصة وهي طائرة على ألا نفهم بالنجاح العملي هنا أنه عثر على سكرتيرة دائمة بل يجب أن نفهمه بأوسع جوانبه بحيث يشمل الحياة العائلية المطمئنة القائمة على التمازج الذي يجمع بين الوعي والعاطفة فلم يكن زواجه صفقة وانما جاء نتيجة حب وقبول نفسي. ان زواجه الناجح يؤكد قدرته على تحقيق الانسجام بين عقله وعاطفته ويؤكد جرأته على نفسه وعلى الآخرين فهو مع عاهته طلب يد هذه الفتاة الخالية من كل ماينقص أهليتها للزواج بالاصحاء وهو أيضاً يصبر حتى تستشير في أمره وتدرس أهليته . ومها يكن حب طه حسين لوطنه نامياً فان من الصعب علينا أن نصدق أن مجتمعه كان قادراً – في الخمس الأول من القرن العشرين على الاقل ان يتيح له زواجاً من هذا النوع . ويبدو ان الرجل كان براً بزوجته يراعيها في معتقدها وفي نظام حياتها وفي تسمية أبنائها ، وظل وفياً لها بعدما التمت اليه الحياة بكثير من مفاتيحها ولعلها زادته ميلاً الى فرنسا والحياة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، وكانت سفيرة لفرنسا فعالة لدى العرب عن طريق مرافقتها لعميد أدبهم .

وإذا كانت بيئاته قد أوصلته الى بعضها بعضاً مرتقية به دائماً ومتيحة له فرصاً مناسبة التكامل فهي لم تفعل ذلك بشكل آلي كان هو فيه منفعلا متلقياً وحسب فطبيعته النفسية قد قامت بدور ايجابي خطير . ان الحاح والده على تعليمه المبكر لم يكن ليثمر لو لم يكن ولده ذكياً قادراً على بذل الجهد ، وذكياً أكثر من المعتاد ليثبت رغم عاهته جدارته بالتعلم والصعود ، واقد برهن طول حياته على تمتعه بذاكرة قوية وقدرة على الفهم عالية وكان ذكاؤه نظرياً يحسن تناول الامور الفكرية وعملياً يحسن تناول أمور الحياة الخاصة والعامة الى حد كبير ، وكان ذكاؤه يسطع كلما امسك بزمام شؤونه وقل تدخل الاخرين بها ورفعت القيود عن حركته وان سبقه لاترابه من حفظ القرآن حتى نيله اعلى الشهادات يدل على أن ذكاءه لم يكن عادياً وان حسن استفادته من الفرص المتاحة يدل على ذلك ايضاً . وهو الحزم ذو عزم لا يكل وقدرة على بذل الجهد عجيبة لا يكتفي بذكائه بل يمتطي المثابرة والدأب كما فعل حين حصل على شهاداته الفرنسية اذ كان يدرس على عدة موجات ومع عدة اشخاص ، وهو صبور لا صبر قنوع بل صبر طموح يعينه على أن يحتمل المشقة والضنك على طريق الهدف الذي يسعى اليه فقد شق

الهيئة وأن يكون مرائياً أو تابعاً رخيصاً وقد ضحى في سبيل ذلك وهو حساس بكرامته منذ سنوات عمره الاولى حين كان يرفض تناول بعض الاطعمة والاشربة أمام افراد أسرته وهم اقرب الناس اليه، ويتجلى اهتمامه بشخصه من كتاباته التي يتكرر فيها ضمير المتكلم كثيراً فكثير من كتبه ومقالاته نستطيع أن نضع في عنوانها كلمة (أنا) فتصبح أنا والمتنبي انا وابو العلاء ، انا في فرنسا، انا والشعراء ، انا والثقافة.. ولسنا نستنتج من هذه الأنا أنانية ولكننا نستنتج احتفاله بشخصيته ولا ننسى أنه صاحب كتاب الأيام ، وان من يهتم بشخصيته اهتمامه بها لا يرضى لها أن تكون شيئاً ضئيلا في الميدان الذي اختاره لنشاطها وقد اختار هو ميدان الادب والفكر فكان ما كان .

وفي صاحبنا ما يدل على الانبساط وفيه ما يدل على الانطواء فمن انبساطه جمعه لأخواته وقصه القصص عليهن صغيراً وميله الى الاجتماع مع زملاء الكتاب السابقين لتناول سيدنا والعريف بحديث السوء ، ومنها حزنه الممتزج بالخوف حين كان يترك وحيداً في غرفة حوش عطا وشعوره في تلك المرحلة المبكرة من حياته الأزهرية أنه بدون صديق وتألمه لذلك مع أن ضروريات حياته كانت مقضية واقباله على الرحلات وانه ليس من ذوي الاوهام المرضية عن جسمه ونلاحظ انه حين يقف موقف المتفرج من الجماعات التي عايشها أو عاش على هامشها كان مهتماً بها مصغياً الى حديثها وهو مهتم بالناس وبشؤونهم عموماً ومن دلائل انطوائيته تهيب المجالس الغريبة وامتناعه عن تناول الطعام أمامها ثم حياته المنظمة بعد سطوع نجمه بشكل يجعل علاقاتها الاجتماعية تمارس بمقدار يتناسب مع وقت الفراغ وما أقله وحاجات العمل وما أكثرها وكان له في كل مرحلة من مراحل عمره عدد محدود من الاصدقاء المألوفين ، فعلام تدل هذه الظواهر المتعارضة ؟ انها تدل على انه كان معتدل الموقف من المجتمع وسطاً بين الانطوائية والانبساطية مما ساعده على النجاح في ما ندب نفسه له من الادب والتوجيه فقد كانت بينه وبين الناس مسافة تحفظ استقلاله وحبه للانتاج الفكري والتأمل وفي الوقت نفسه تسمح له بالاطلاع على ما يجري والانفعال معه، ولعله في الاصل اكثر انبساطية مما استقر عليه أمره ولكن عاهته ادخلت الى نفسه شيئاً من الحذر في مواجهة المجتمعات فغدت انبساطيته ملقحة بالانطوائية .

ونمضي في تفسيرنا لهذه الشخصية الهامة فنبحث عن الطبع الذي تتصف به والذي يمكن ان يثمر هذه الخصائص اثناء التفاعل مع البيئة وبقية المؤثرات ، ونختار لدراستنا

هذه أن نطبق تصنيف مدرسة علم الطباع الفرنسية على طه حسين ونبحث له عن طبع من الطباع الرئيسية الثمانية التي استخلصتها هذه المدرسة ومن مهدوا لها وسعت الى توزيع طباع البشر عليها، ومن المعروف انها اقامت النماذج الثمانية للطباع على اساس الخصائص التكوينية الثلاث للطبع وهي الانفعال والفاعلية والترجيع النفسي وهل هو قريب أو بعيد فقسمت الطباع بحسب حظها من هذه الخصائص الى عصبي انفعالي غير فعال ترجيعه قريب وعاطفي انفعالي غير فعال ترجيعه بعيد وغضبي انفعالي ترجيعه قريب وجموح انفعالي فعال ترجيعه بعيد ودموي غير انفعالي وفعال وترجيعه قريب ، ولمفاوي غير انفعالي وترجيعه بعيد، ثم هلامي غير انفعالي وغير فعال وترجيعه قريب ، وأخيراً الطبع الخامل غير الانفعالي وغير الفعال مع الترجيع البعيد . وقد آثرنا هذا التصنيف على سواه من التصنيفات القديمة والحديثة لأنه أقرب الى الواقع المتنوع ولاستفادته من علم النفس الحديث استفادة واسعة ولشموله بحيث يمكن اعتبار بعض التصنيفات الأخرى – كتصنيف يونغ الناس الى انبساطي وانطوائي – فروعاً له ، وفي التصنيف المختار مجال للدراسات المختصرة بالاقتصار على النماذج الرئيسية وفيه مجال للدراسات المتوسعة التي تحسب حساب الخصائص التكميلية لا التكوينية وحدها وتحسب حساب عوامل اخرى فيزيد البحث دقة ووضوحاً، ومن عيوب التصنيف الذي اخترناه تسمياته لنماذجه فهي لا تدل دائماً دلالة دقيقة على المسميات وليس العيب ناتجاً عن الترجمة العربية لها بل هو موجود في التسميات الفرنسية ذاتها ويبدو أن هذه التسميات قد انتقدت في فرنسا ذاتها كما يظهر من كتاب الدكتور سامي الدروبي عن مدرسة علم الطباع الفرنسية ولكن هذا العيب ليس جوهرياً اذ يقوم تصور الطبع على خصائص صاحبه اكثر مما يقوم على تسميته. ولنعد الى موضوعنا طه حسين ولنبحث عن طبعه متتبعين الخصائص التكوينية الثلاث لديه وهي الفاعلية والانفعال والترجيع ، فأما الفاعلية فهي بارزة تكاد تشغل الباحث عن بقية الخصائص لأن صاحبنا – كما رأينا – فعال مجتهد مثابر صاحب عزم وهمة واجتهاد ، وأما ترجيعه او نمط تأثره فيبدو أنه ترجيع بعيد فهو لا يعيش في حاضره وحده بل يعيش في الماضي ويعيش الماضي فيه وفي كتاباته وتحفر الحوادث في نفسه أثراً لا يكاد يمحي على الأيام كموت أخيه المنتسب الى مدرسة الطب واهتمامه بذكريات الطفولة وان الثبات على الرأي والوفاء للاصدقاء والانشغال بأمر فات أوانه في نظر الآخرين صفات يكثر وجودها عند ذوي الترجيع البعيد ومنهم طه حسين ومما يروى في هذا الصدد أن نقاشاً جرى بينه وبين أستاذه المهدي أثناء دراسته في

الجامعة المصرية حول رأي لأبي العلاء وطلب الأستاذ من الطالب شاهداً يدعم ما ذهب اليه فلم تسعفه الذاكرة فاخجله الاستاذ وظلت الحادثة تعمل عملها في نفس طه حتى اذا ألف رسالته للدكتوراه عن تجديد ذكرى أبي العلاء وامتلأت يده بالشواهد أثبت الحادثة في صلب الكتاب وجاء بالشاهد المطلوب . وأما من حيث الانفعالية فهو انفعالي أصلاً كما تدل الصفات التي أوردناها عند وصف شخصيته ومع ذلك فانه قلما يترك لانفعاليته أن تجرفه معها في انفعالية مكظومة واعتادت على الضبط تساعده على ضبطها فاعليته القوية التي لاتكل . وعلى هذا فقد أصبح في مقدورنا أن نتصور طبع طه حسين الاصلي انه من النموذج الانفعالي الفعال ذو الترجيع البعيد وهو مايسميه لوسين باسم الجموح واذا كانت التسمية مضللة فاننا نقدر أن نستعيض عنها بمضمون ذلك الطبع القوي المقترن بالاشتداد حتى كأن تسميته بالطبع المشتد أو العزوم أو الحازم أو الهام تسميات مناسبة اذا جردناها مما قد يكون علق بها من صدى أخلاقي ، وهذا النموذج يكثر بين صفوف القياديين الذين يخدمون طول حياتهم خطاً واحداً دون أن تثنيهم الاحداث أو آراء الناس فيهم ومن أفراد هذا النموذج عمر بن الخطاب وديكارت ونابليون الاول وأوغست كونت فهم جميعاً يعملون على قيادة المجتمعات الى مستوى يقتنعون به ، وهم جميعاً اصحاب اهتمام بحياة الناس وتسيير شؤونهم وان كان بعضهم من رجال الفكر ،وان طه حسين أقرب اليهم من قربه لأي مجموعة طبيعية اخرى فهو ليس عصبياً أو عاطفياً لأن فعاليته واضحة وكذلك ليس من النموذج الهلامي أو الخامل نظراً لفعاليته أيضاً وهذه الفعالية كافية لقطع صلته بهذين النموذجين وان لم تظهر انفعاليته ظهوراً جلياً ، وهو ليس بالغضبي لأنه يخالفه في الترجيع فترجيع الغضبي قريب ولذلك يتعجل ويتخبط وأما طه حسين فترجيعه بعيد ولذلك يتابع خطه باصرار ، وهو ليس بالدموي الذي تصرفه الطبيعة العملية عن كثير من القيم ، وقد كان فولتير دموياً وشبه طه حسين في بداية تألقه بفولتير ولكن التسمية تنطبق على اسلوبه الساخر آنذاك اكثر من انطباقها على طبعه، وليس طه حسين لمفاويا بارداً يتأمل الاحداث عن بعد ويعكف على المجردات مثل (كانت) فشتان بين برود كانت وعزلته وبين حرارة طه حسين وخوضه غمار المعارك الاصلاحية الى درجة الاشتراك في المظاهرات بعد حصوله على أعلى الشهادات من مصر وفرنسا .

هذا عن الطبع الأصلي والطبع في أساسه فطري كما تعتقد مدرسة علم الطباع

الفرنسية مع قدرة الانسان على تعديله أو ضبطه خلال حوار ذاته مع الظروف والحوادث والتجارب ويظهر أن أول تعديل طرأ على طبع طه حسين هو السيطرة على الانفعالات القوية التي تضيع الرشد وتخفي معالم الطريق وبخاصة بالنسبة الى مثل وضع طه حسين، ويظهر ان الانفعالية المقهورة قد انضوت تحت لواء الفعالية التي قهرتها فغدت مدداً لها فتضاعفت فعالية شخصية هذا المهام . وقد كان هذا الطبع عاملاً أساسياً في تقدم طه حسين ومتابعته الطريق الصاعد ، وهذا الطبع مرهق ولكنه منتج ومن الصعب أن يصل ضرير أنجبته اسرة عادية في مصر الطبقات الى ماوصل اليه من مقام اجتماعي وسياسي لا فكري وحسب لو لم يكن من هذا الطبع الباسل . لقد حمته فاعليته من اليأس لان شعوره بالقدرة الدائمة على العمل تقاص الشعور بالعجز ، وساعده ترجيعه البعيد على الاستفادة من التجارب وفرز عوامل النجاح عن عوامل الفشل ووصل آخر امره باوله، وكانت الانفعالية تغذيه بالاهتمام بما يجري حوله وبمحبة ما يعمل له وما يفكر فيه .

واذا كنا قد كشفنا عن طبع طه حسين كما نزعم فاننا نملك وسيلة نفسية اخرى تزيد من فهمنا لشخصيته وتكونها وهي البحث في البنية الداخلية لنفسه على طريقة فرويد والمتأثرين به ، وقد رأينا أن تطبيق التحليل النفسي الفرويدي على طه حسين صعب وقليل الجدوى ، انه صعب لحاجته الى معرفة خصوصيات الحياة والاحلام وزلات اللسان والذكريات الجنسية التي يضن بها أمثال عميد الأدب العربي ، وهي قليلة الجدوى لأن الجنس ليس بالعامل الوحيد أو الجوهري دائماً في تكوين الأنفس وليست جميع الشخصيات ثمرة تشكلات عقدة اوديب ، وقد كان صاحبنا نفسه لايميل الى التحليل النفسي الفرويدي ولا يعده علما . ونظراً لكل هذه الاسباب فاننا نفضل التفسير الأدلري القائم على جهود الانسان من أجل اثبات شخصيته وتفوق ذاته في معترك الحياة بين الآخرين ، ويهتم هذا التفسير بجانبين وثيقي الاتصال وهما الوضع في العائلة ونقاط الضعف . وطه حسين من الاخوة المتوسطين فليس هو من بين الابناء الاوائل لوالديه ولا الأواخر ومن عادة الابن المتوسط أن يكون دؤوباً وأن يعمل على تحقيق أهدافه بكل دقة ومثابرة لأنه لم يخسر كالابن البكر سلطاناً متفرداً كان يتمتع به من قبل ولم ير نفسه ضعيفاً كل الضعف بين اخوة كلهم اكبر منه كالأخ الأصغر تماماً ، ان وضعه من حيث المعاملة والدلال والاعتماد على الآخرين يكون وسطاً ولذلك يعد أقرب من باقي اخوته الى التوازن اذا لم تتدخل عوامل جديدة ويعد كف بصر طه حسين هذا العامل

الجديد الذي أخل بتوازن علاقاته العائلية طفلاً ، وكان في هذا الاخلال شيء من الايلام له وشيء من حفز همته وشيء من قابلية الثورة على المجتمع . أما من حيث الألم فقد كان يشعر بأن الآخرين ومنهم اخوته يعرفون مالا يعرف ويستطيعون ما لا يستطيع ولذلك يكلفون بأعمال لايطيقها ويتمتعون بمزايا لاينالها وهم قادرون على العبث به والسخرية من ضعفه واذا كان الأبوان رفيقين عادة فان الاخوة هؤلاء الأطفال الخبثاء لايرحمون ، ولذلك ينشأ الضرير خائفاً من أن يصبح موضعاً للتندر والسخرية وتجربة طه مع موظف المحطة التي وصل اليها وحيداً حين نسيه أهله تذكي هذا الخوف هي وأمثالها وتذكي الشعور بالضعف ، وينشأ الضرير حذراً شكاكا يخاف أن يغشه الناس في البضاعة والنقود وان يضلوه في اسماء الطرقات والاشخاص وان يخدوا عليه مما يعمه ويعميم أشياء قد تخل بكرامته أو تنتقص حقوقه ، واذا خلي بينه وبين طبيعته قليل الثقة بالمستقبل يخشى ان يستغل الآخرون ضعفه فيفقدوه حمله أو يحطوا من قدره وتزداد آلام الضرير في البلدان المتخلفة التي يكثر فيها عبث الناس بضعف الانسان ويقل الاهتمام بتأمين السبل التي يتاح فيها لذي العاهة أن يعيش حياة كريمة ، ولهذا فقد يغدو الضرير طماعاً وقد يقع بين براثن المذلة وقد يصبح متشائماً أو ماكرا أو متشفياً بايذاء الآخرين او سماع انباء مصائبهم وقد ينطوي على نفسه أو يغدو اقرب الى الصفاقة والطفيلية فيستاء منه المجتمع وقد يرثي لحاله وهو يجهل أو يتجاهل أنه هو الذي صنعه على هذا الشكل الى حد كبير ومما يزيد في عذاب الضرير شعوره بأن الجنس الآخر لن يعجب به وهو على هذا الحال من النقص مما قد يحمله على الشذوذ أو الشره الى الملذات او حرمان النفس منها بالجملة ، وقد يغدو الضرير خليطاً من هذه الصفات كلها تقتسم نفسه في نوبات أو تتداخل في الموقف الواحد . ولكن العمى من ناحية ثانية يحفز على بذل الجهدوضبط النفس وحب الاستطلاع وعدم اضاعة الفرص والبحث عن ابواب الامل وقد تنمو هذه الصفات حتى تجعل صاحبها يبحث عن التعويض في المجالات المرموقة الكريمة ، وقد نمت عند طه حسين بسبب جو عائلته الطبيعي الذي لم يكن يوغل في ايلامه ولا في تدليله كما أنه لم يكن يغلق أبواب الامل في وجهه بل اتاح له ان يطمح وان يتفوق عندما حفظ القرآن مبكراً وشرع يدرس الكتب العالية كالالفية ووراء هذا الجو يربض الاب

المستقبل الناهض الذي كان يفرح له ابواب التقدم ، وبتأثير هذا الوالد لم يمن الاخوة والآخرون في ايلام الصبي لم يبق من الايلام الا مايصلح ليكون لقاحاً يشحذ العزيمة ويقي من الانهيار أمام الصدمات المقبلة في المستقبل ولن نمل التأكيد على دور والده لاننا لم نجد في أمه مايميزها من نداتها ولان اخوته لو خلى الاب بينه وبينهم لاهملوه اذا لم يبيتوه ويعذبوه بضعفه فهذا أخ يحتمله في سنواته الازهرية الاولى على مضض فيا يبدو وتنفيذاً لرغبة الوالد يدل على ذلك أنه لم يكن شديد الرفق به ، وهذا أخ يأخذه معه الى فرنسا ويتحمل مع ضيق ذات اليد قسماً كبيراً من أعباء سفره ومعاشه ليكون عوناً له واذا به يختلف معه ويفترقان ، وهذا أخ يهديه نظارة فاخرة يستر بها عينيه المطفأتين ثم يستردها منه وتصل اعانات الأب الى القاهرة فلا يرسل بعضها الى فرنسا بل تنفقها الميدان الأخويتان ، وهكذا أسهم دور الوالد في جعل تفاعل الولد مع عاهته تفاعلاً ايجابياً مثمراً . وقد كان لاصابة صاحبنا بعاهته أثر آخر على شخصيته امكنه أن يستثمره بشكل منتج وهو الميل الى نقد المجتمع الذي قد يكون مبتدأه الشعور بتجاهل الناس لوجوده وقلة فهمهم لآماله وآلامه فلم يعد مجتمعه في نظره ذلك المجتمع المثالي الذي يوثق به وأدى عدد من ردود الفعل الى أن ينقب عن ثغرات الصيغة التي يحيا أهله في اطارها وما من أحد كالمستضعف يكشف عن مساوىء البيئات والأنظمة لأنه يحس فيها ظلماً فيبحث عن اسباب ظلمه في اوضاعها ، وقد دعته عاهته الى ان يقف موقف المتفرج من كثير من الجماعات التي عايشها كما بينا سابقاً مما ساعد على تأمل تلك الجماعات وانتقادها ... وهكذا تكون طه حسين تكوناً يساعده على ألا يكون تابعاً لمجتمعه في كل امر وألا يكون انساناً تقليدياً نسخة طبق الأصل عن النموذج الانساني في بلاده بل هو يمتلك استقلاله ونظرته الانتقادية وامكانية التحرر من كثير من الطرز الجاهزة .

وقد يخيل لبعض الناس ان طه حسين معقد او صاحب عقدة نقص لمجرد وجود نقطة ضعفه المعروفة ، والحق ان الواقع والتراث الأدلري لا يربطان ربطاً دائماً بين وجود النقص او الشعور به وبين وجود عقدة النقص . فعقدة النقص تتكون لدى قسم من اصحاب نقاط النقص وليس لديهم جميعا ، وعلامتها سيطرة الشعور بالنقص على

الانسان والصدور في اهم تصرفاته وآرائه عن هذا الشعور وامتداداته اللاشعورية بشكل لا يعود معه انسانا سويا في علاقاته الاجتماعية وفي عمله وفي شؤون الجنس والزواج كجزء من الشخصية ، وقد يحاول ان يثبت تفوقه في مناسبة وغير مناسبة وبشكل معقول وغير معقول حتى يغدو متعبا لنفسه وللآخرين في جميع علاقاته مما يدل على انحراف محاولة التعويض لديه نتيجة لانحراف موقفه من ضعفه . وامامن يقدر على الاحتفاظ بشخصيته سوية في اكثر علاقاتها ويرضي كبرياءها عن طريق التفوق في المجالات المعقولة اجتماعيا فانه لا يوصف بالتعقيد وان كان ذا نقطة ضعف ، ويذكرنا ادلر بأن النوع الانساني كله عنده الشعور بالنقص امام قوى الطبيعة والامراض والعقبات ويظل مع ذلك نوعا سليما لأنه يحاول التغلب على ضعفه بأسلوب واقعي ولا يشذ طه حسين عن هذه القاعدة فهو اذا تأملناه سليم النفسية ضمن حدود امكانياته بل لعل نفسيته اكثر سلامة من كثير من عاهته لانه من ناحية العلاقات الاجتماعية العامة ذو معارف واصدقاء وآراء اصلاحية لم يأخذه الانطواء أو السوداوية أو كره الناس ولم يمل الى الحكم عليهم أحكاماً مبرمة حاقدة أو يائسة ولم يرض ميله الى التفوق بالتوافه كالمظهر والزخرف ، وهو من ناحية العمل قد وجد عملا يتلاءم مع امكانياته المجتهدة فكان أديباً واستاذاً جامعيا وسياسياً مفكراً وهو في كل ذلك يستغني بقوة العقل والذاكرة والمساعدين عن عينيه المغمضتين ويبلغ من النجاح مالا يبلغه الا المتزن المثابر الذي لاتحل العقد النفسية بتقدمه وهو من الناحية الجنسية قد تربص بنفسه حتى وجد زواجاً ملائماً قائماً على الحب والتعاون والوضوح فكان زوجاً موفقا وأبا حسن التعهد للابناء ، وشتان بينه وبين الضريرين النابغين الآخرين بشار وأبي العلاء من حيث اتزان الشخصية ، ويعد طه حسين نموذجا لما يستطيع ذو العاهة أن ينجزه اذا ساعد نفسه واذا ساعده الآخرون نسبياً ودعوه للمجتمعات أن تعتني بذوي العاهات فيها وتتيح لهم سبل استخدام طاقاتهم فقد يكونون مؤهلين للنبوغ أو للحياة السليمة المثمرة على الأقل .

والآن ماذا بقي من طه حسين ؟ وقد يبدو سؤالنا هذا عجيباً ولما تمض سنة على وفاته ، ولكن انتاج الرجل الجديد الهام كان في فترة الحربين العالميتين وما بينهما بل ان

اتجاهه الفكري قد اتضح منذ العشرينات واكتمل وضوحه في الثلاثينات . ونجيب على سؤالنا بأن كثيراً من القيم التي حملها قد ترسخ كالعدالة الاجتماعية ونشر التعليم والأخذ بالمناهج العلمية والتوسع في اقتباس الفنون الادبية المتنوعة وانتاجها مثل التمثيل والقصة والرواية وتطوير الشعر واعتماد الفصاحة على التعبير الناجح عن المضمون لا على الزخارف اللفظية ، وتحرك مصر ضمن المجموعة العربية والاسلامية والشرقية عموماً ولعل ايجابيته تجاه ثورة عام ١٩٥٢ كان مردها أنه وجدها منفذة لكثير مما كان يدعو اليه من عدالة وتقدم ووجد في نظرية الدوائر التي ذكرها كتاب (فلسفة الثورة) من تحرك مصر ضمن الدائرة العربية والدائرة الافريقية الآسيوية ما يذكره بآرائه في هذا التطور مايخرج بها عن الخط الذي يدعو اليه جوهرياً لشعوره بدور مصر القيادي في قافلة القومية العربية ، ولم يتحرج من حاجة الثورة — ولكن لامد محدود — الى الحدمن حرية الانتاج الفكري والادبي مضحية بالجودة في سبيل تحقيق أهدافها الضرورية ، وأما اعتقاده بالمزج الحضاري فقد رسخ وانتشر وهو حين يلاقي الصعوبات النظرية يحافظ على انتشاره العملي السريع حتى تقاربت صورة الحضارة في اكثر بقاع العالم لابين المنطقة العربية وأوربا وحدهما وحتى أصبح في مقدورنا القول مع شيء قليل من المغامرة ان العالم الآن يشهد ميلاد حضارة عالمية مشتركة ذات أصول متباينة عملت فيها يد التفاعل والاصطفاء حتى جعلتها تقبل أن تصب في مجرى واحد لاسلوب الحياة وقد تكون ذات مذاهب متباينة في تناول بعض الامور دون أن يخل ذلك بأساسها المشترك ولا يتنافى مع هذه الحضارة الواحدة أن تتعدد فيها القوميات والدول . وقد انتشر التعليم مثلما كان يرجو وفي مختلف المراحل الا ان العميد يشعر بوجود خطأ ما فان الجيل المحب للثقافة العالية لم يغط العصر في بلادنا وأصبح المنتسب الى الجامعة كالمنتسب الى المدرسة الحرفية لايتطلع من ورائها الا الى الوظيفة والكسب. ويتضاعف انتاج المطبعة إلى الصحافة والادب وغيرهما من وجوه الثقافة والتثقيف ولكن النوعية تغدو محل نظر — في نظر — فالصحافة تتساق مع الغرائز والصغائر وتخلو من البحث الجدي وفرسانه، والادب تنتشر فيه ريح سامة تعادي السلامة اللغوية وتستخف بالفصحى وبناتها ويتلفت حوله فيجد زعيم التقدمية الادبية واللغوية نفسه رجعياً في نظر رضائه ويجدم عاقين

فلسان حالهم يقول له لقد تجاوزناك ولسان حاله يقول لهم ليس التقدم في هدم كل القواعد وافساد كل ماصنعه السلف ، ثم يتلفت حوله وهو داعية الجمع بين الجمال وبين المضمون الحر المغذي فيجد قوماً قد اضاعوا الجمال باسم المضمون او لم يحفلوا بالاقتران الابدي بين الابداع وبين الانطلاق الحر وكأنه يقول لهم قد غفلتم عن حقيقة الادب والفن وكأنهم يقولون له قد غفلت عن الفرق بين المراحل التمهيدية الحاملة بالنهضة وبين النضال من أجل النهضة والعيا . فان كان الحق الى جانبه فليس هذا بعجيب على بصيرته النافذة وان كان الحق مع مجادليه فليس هذا بغريب على منطق التاريخ الذي يتجاوز كبار العباقرة وصغارهم . ويبقى الرجل معلماً من معلمي أمته البارزين في مرحلة تنويرها ولئن كان لم يبدع نظرية بالمقاييس العالمية المطلقة فهو مبدع نسبياً بما أظهره من قدرة على الانتقاء والمزج والنفوذ الى القلوب والعقول شحذت طموح الامة الى استعادة مكانتها الحضارية وشجعتها على خوض تيار الحياة الحديثة والاغتراف منه وامداده .

«أيام» طه حسين
وفن السيرة الذاتية

الدكتور حسام الخطيب

١ — جوهر تجربة «الأيام»

يمثل كتاب «الأيام» بجزأيه الأولين وجزئه الثالث الذي ظهر بعدهما بزمن غير قصير ظاهرة ذات شأن غير عادي في الادب العربي الحديث. ويعتبر هذه الظاهرة — شأنها شأن كثير مما أبدعته قريحة طه حسين — تجاوزاً للواقع الادبي في عصر الكاتب وثمرة مبكرة نضجت قبل موسمها المتوقع. ومما يزيد في أهمية هذه الظاهرة أن «الأيام» كتاب في (السيرة الذاتية autobiography)، وحين أصدر طه حسين الجزء الأول منه (سنة ١٩٢٩) كان تقريباً الطارق الاول لهذا الفن في المشرق العربي. بل إن هذا

الفن – حتى يومنا هذا – مازال بكراً في أدبنا العربي ، وان الكتب الناجحة فيه لاتكاد تتجاوز أصابع اليد عداً . يضاف الى ذلك ان السيرة الذاتية فن خاص جداً ودقيق وحساس ، يقوم على الكشف الداخلي والاعتراف ولباقة العرض ولطف الاشارة . ومن هنا كان يحتاج لشروط اجتماعية مواتية ، من أهمها ان يكون المجتمع قد بلغ درجة كافية من التطور والانفتاح تتيح له ان يتقبل اعترافات الكاتب وآراءه وصراحته وتجربته الخاصة بروح من التسامح والتعاطف ، وتقدير لهامش الضعف الانساني الذي لابد ان تكشف عنه أية سيرة ذاتية ناجحة ، وان كتابة سيرة ذاتية صريحة في مجتمع متزمت مثلاً يمكن ان تتضمن انتحاراً على المستويين الشخصي والفني بما قد تجره من نقمة على الكاتب لا تتوقف عند إدانته كانسان – ولو من خلال اعترافات طوعية – بل قد تنسحب على انتاجه الفني وتدمغه وتعزله اجتماعياً .

ومن هنا يظل كتاب « الايام » ظاهرة ذات شأن غير عادي في الأدب العربي الحديث . وأول ما يلفت النظر بشأن هذه الظاهرة أنه على الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن افتقار فن السيرة الذاتية الى جذور عميقة في الأدب العربي ، وعلى الرغم مما يمكن ان يقال عن انغلاق المجتمع العربي في النصف الاول من هذا القرن ، وعن انعدام الحرية الاجتماعية والسياسية فيه ، وعن وجود عوامل ثقافية غير مواتية لسيرة الذاتية ، فقد قوبل الجزء الاول من الايام بتهليل عظيم ابان صدوره وحظي برواج واسع ، ونال الاهتمام الذي يستحقه سواء في أوساط المثقفين والنقاد أو في اوساط القراء العاديين من هواة المطالعة .

وبالطبع تشير هذه الحقيقة بوضوح الى ما نعرفه عن وجود استعداد قوي لدى القارىء العربي لتقبل هذا الفن ، مع غيره من الفنون الادبية الحديثة ، ومنحه التقدير اللازم ، لكنه من الظلم لطه حسين أن نكتفي بهذه الدلالة ونقف عندها . ذلك أن نجاح « الايام » ، الذي أتى تجاوزاً لأدب عصره ، لا يرجع فقط الى تطلع القارىء الى كتابة في فن أدبي جديد كالسيرة الذاتية . كما انه لا يفسر تماماً بما اتصف به هذا الكتاب من صراحة نسبية في العرض ووضوح في القصد وطلاوة في الحديث وبراعة في السرد ، وانها لمزايا كفيلة بأن تنجح اي كتاب . نعم . لقد كان « الايام » بدعاً جديداً في بابه ، وحمل نفساً غير مألوف في الادب العربي ، وقدم نفسه للناس بحلة ادبية جذابة ، ولكن هذه الامور وحدها لا تكفي لتفسير سرّه . واذا قبلنا الاجماع العام بوضعه في مصاف

الروائع الأدبية فعلينا أن نبحث عن سره الخاص مادام لكل رائعة أدبيـة سرها .

وفي هذا المجال يخطر للانسان أن هناك وجهين لسر « الأيام »: وجهاً عاماً يتعلق بتجربة الانسان الوجودية المطلقة، ووجهاً خاصاً يتعلق بتجربة طه حسين الضرير الموهوب من خلال الظروف المعطاة .

١ — ان تجربة طه حسين في « الأيام » تقـدم لنا ذوب التجربة الانسانيـة في مواجهة الشرط الانساني ومحاولة تغييره لصالحها . وعلى الرغم من أنه في الاصل حديث انسان معين عن تجربته المرة في متاهات غابة الحيـاة الوعرة فقد تضمن نفساً انسانياً جوهرياً أبلغ من أي نفس شخصي ، وكانت فيه أنة من عذاب أوديب ، ونفحـة من مغامرة يوليسيز ، ونفحـة من تصميم بروميثيوس . وشحنة من سوداوية المعري ، ومسحة من سخرية الجاحظ . ان كتاب « الأيام » ينتسب الى كل اولئـك الذين خاضوا الملحمة الانسانية وقدموها لنا كلاماً مستـاغاً، ان طه حسين المستسلم في قطار لايعرف الى أين سيفضي به المسير يمكن أن يكون (اوديب) الذي يسلم نفسه لتعرجات الطرق .

وان طه حسين راكب الباخرة المغامر في سبيل المجهول والمعرض للتهلكة يمكن أن يكون يوليسيز الذي اختار الطريق الصعب ليعرف أكثر ويجرب أكثر ، وان طه حسين الذي صدته الحياة وصده المجتمع وصدته الجامعة فما زاده ذلك الا تصميماً على الصمود وتقبلاً للعذاب ليس إلا بروميثيوس المعذب الصامد في وجه زيوس . وان طه حسين لشديد الشبه بالمعري حين يتوقع الأسوأ في أحيان كثيرة ويخلو الى نفسه ليبكي ويتألم لانه يعرف طبيعة تلك الازدواجية القيقة بين الطاقة التي تمور في داخله والعجز الذي كان يضرب طوقه عليه من خلال فقدان البصر وان طه حسين لشديد الشبه بالجاحظ إذ يعرف نقاط الضعف في الشخصية الانسانية ويحسن تضخيمها ليولد الضحك والسخرية .

وإن حصيلة هذه التجربة ذات الجوهر الانساني لها أيضاً مغزى انساني مشترك فهي تلخص خط سير الانسانية في تغلبها على مافي ذاتها وما حولها من شروط ، وان تجربة طه حسين لتعلمنا ان الظروف قابلة لان تتبدل لصالح الانسان بالجهد والدأب والصدق مع الذات .

٢ — واذا كان النفس الانساني في « الأيام » يشكل السر العام لنجاح هذه الملحمة الصغيرة ، فان سرها الخاص إنما يكمن في طبيعة الموقف الاحتجاجي للمؤلف إزاء تجربته الصعبة . في كل سطر هناك احتجاج صميمي ضد العاهة الكبرى ، وهل أكبر من

تلك العاهة التي تحرم الإنسان من أن يرى ما يراه الناس وأن يتحرك كما يتحركون وأن يعتمد على نفسه كما يفعل كل إنسان ، بدلاً من أن يظل في حاجة إلى الآخرين .

إن الحرمان من البصر ليس تحدياً بسيطاً ، وكل نضال من أجل الحياة يقوم به المكفوفون إنما هو تجربة غنية لأنهم — على الأقل — يواجهون صعوبات فوق عادية ويدفعون ثمن الحياة أضعافاً مضاعفة ، ولذلك يكون احتجاجهم مقبولاً ومسوّغاً مهما بلغ من الحدة . لكن طه حسين يفاجئنا بتنوّع فريد من الاحتجاج . إنه احتجاج معافى وغير مباشر وغير حاد وغير يائس ، ولكنه أيضاً احتجاج واضح ومقصود ومتألم وداع ، وأخيراً مفعم بالرفض والكبرياء . هل أقول إنه يختلف عن أنواع الاحتجاج التي شهدناها عند عباقرة المكفوفين . إنها لدعوى عريضة وتحتاج من البحث والتقصي ما لا تقدر عليه هذه اللمحة العجلى . ومع ذلك لنتذكر احتجاج بشار بن برد المتمثل في العدوانية والإقذاع والبذاءة من جهة والمشبع بنوع من التعالي التعويضي الرافض لأي نوع من الاشفاق أو التعاطف .

عميت جنينـاً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافداً بقلب إذا ما ضيّـع الناس حصّلا

ولنتذكر أيضاً احتجاج أبي العلاء المعري المباشر الشاكي المفعم بروح المأساة .

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

ومن الغرب لنتذكر مثلاً احتجاج الشاعر الانكليزي ملتون صاحب الفردوسين المفقود منها والمستعاد: Pavadise و Pavadis Regained إنه احتجاج المؤمن الراضي بما قسم له ، المعاتب ، وربما الناصح ، وكأنه يقول لربه : أنا راض أن أحرم من هذه النعمة التي لا يحرمها الناس إلا حين يموتون ، وقد كنت خليقاً ، لو لم يكن بصري معطلاً ، أن أحسن بهذه النعمة خدمة ربي وأن أزداد اليه قربى .

« When I consider how light is spent
Ere half my days in this dark world and wide ,
And that one talent which is death to hide
Lodged with me useless , though my soul more bent
To serve therewith my maker, and present

My true acount, les He, returning chide,
« Doth God exact day - labour, light denied ? »
I fondly ask . . . . . . » .

وبالضبط :

« حين أفكر كيف فقدت بصري
قبل انقضاء نصف أيامي في هذا العالم المظلم الفسيح
وكيف أن موهبة من شأن الموت وحده أن يقضي عليها
أضحت معطلة عندي ، مع أن روحي شديدة التوق
الى خدمة خالقي بها ، وتقديم
حساب صحيح له لئلا يؤاخذني ...
أجدني اتساءل بشغف :
« هل يكلفنا الله بسعي نهارنا وقد حرمنا نعمة النور ؟ »

وإن المرء ليحاول أن يستذكر ألواناً أخرى من احتجاج عباقرة المكفوفين وما أكثرهم ، فلا يجد فيهم مثل احتجاج طه حسين الصامت الناطق الذي مَرّ بالناس أو مروا به هادئاً بليغاً ولكن في استحياء حتى إنه لم يكد يسترعي منهم انتباهاً . هاهو « الفتى » يصف في آخر الجزء الثاني من الأيام كيف نسيه أهله وذووه في القطار ولم يفطنوا إليه إلا بعد أن استقروا في منزلهم الجديد في المدينة الجديدة التي انتقل إليها والده الشيخ الموظف :

« فانتقلت الأسرة ومعها الفتى . ركبت القطار منتصف الليل وبلغت تلك المدينة الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة ، وكان القطار لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها أكبر أبنائها ، وفيها النساء والأطفال ، ومعها متاع ضخم عظيم . فلما دنا القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كله من باب العربة ، حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كله دفعاً إلى الأرض ، ثم تواثبوا من ورائه ، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضرير ، وقد ذعر الفتى حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضي في أمره بشيء . ولكن جماعة من السَّفْر رأوا عجزه وحيرته فرفقوا به وجعلوا يدؤونه . حتى إذا وقف القطار في أول محطة أنزلوه . وأسلموه الى صاحب التلغراف وعادوا إلى

قطارهم . وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الاسرة بلغت دارها في مدينتها الجديدة فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها ، وتقر كل شيء في مكانه . ثم أقبل الشيـخ عليها فجلس يتحدث الى هذا وذاك من أبنائه والى هذه وتلك من بناته .

ثم جرى عرضاً ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير . فلما سمع الشيـخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه وارتاع إخوته ، وهرول الشباب منهم الى مكتب التلغراف ، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم في المحطة المجاورة ينتظر من يأتي ليرده إليهم . فأرسلوا إليه من جاءبه ردفاً على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملجةبه مرة أخرى ، فتضيف في قلبه فرقاً الى فرق وذعراً الى ذعر .

ولم ينس الفتى قط مجلسه عند صاحب التلغراف ، وكان شاباً نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح . وقد اجتمع إليه جماعة من موظفي المحطة ، فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا أمره ، فأظهروا العطف عليه والرقة له ، وقد رأوا شيخاً ضريراً فما شكوا في انه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليه ان يغني لهم شيئاً . فاذا أقسم لهم انه لا يحسن الغناء طلبوا إليه ان يقرأ لهم شيئاً من القرآن ، فاذا أقسم لهم انه لا يحسن التصويت بالقرآن الحوا عليه وابوا الا ان يسمعوه . واضطر الفتى إلى ان يقرأ القرآن خجلا وجلا مستحيياً ضيقاً بالحياة لاعناً للايام ، واذا صوته يحتبس في حلقه ، واذا الدموع تنهمر على خديه ، واذا القوم يرفقون به وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيداً او كالوحيد حتى يأتي من يرده إلى اسرته . » (١)

نعم . لقد بكى طه حسين حين أحرجه الغرباء، كما بكى في مناسبات كثيرة من أيام شبابه حين كانت تشتد عليه الامور وتنبو به الظروف،ولكن بكاءه كان ينتهي دائماً بجفاف دمعته ، لم يخلف فيه عقداً ولا تخاذلا ولا يأساً ولا نقمة على الحياة ، بل كان يستحيل عنده الى عزم وبأس وصبر . اسمعه يعلق على الحادثة المؤلمة التي كانت كفيلة أن تدعو أديباً غيره لأن يؤلف فيها قصيدة دامية أو مأساة نادبة :

« آذت هذه القصة الفتى في نفسه ، ولكنها على ذلك لم تبغض اليه المدينة الجديدة ولم تزهده في زيارتها ، وانما احبها وجعلت نفسه تشتاق اليها اشد الشوق كلما دنا الصيف، وان كان الحر فيها شديداً لا يطاق . » (٢) .

(١) الايام — ج ٢ ، ص ١٧٧ — ١٧٩ .
(٢) الايام — ج ٢ ، ص ١٧٩ .

اقد آذته القصة في نفسه، ولكنه لم يسمح لهذا الاذى أن يسقط نفسه على المدينة وأهلها ويتحول الى عقدة ينطوي عليها الفتى ، فالعاهة لها شأن والحكم على الأشياء شأن آخر ، والاحتجاج على العاهة لا يعني الاحتجاج على الاشياء . وانه لموقف معافى أتاح لطه حسين ان يظل أبداً مبدعاً متهيئاً للعطاء .

ولعل أعظم ما في هذا الموقف الاحتجاجي المعافى أنه كان يصدر عن وعي واضح. فقد كان طه حسين يشعر بالظلم شعوراً حاداً ولكنه في الوقت نفسه كان يعرف أن قدرته على العطاء مرهونة بسلامة ادراكه ، ولذلك مارس على نفسه ضبطاً عظيماً وروّضها وانتصر عليها . وكان اقرب المكفوفين العباقرة الى نفسه أعمى المعرة ، رهين المحابس الثلاثة ؛ وقد اكتشف « صاحبنا » أن أبا العلاء يمارس عليه تأثيراً تشاؤمياً مفرطاً قد يكون معيقاً له في تجربة الحياة التي يخوضها بعزم ، فحاول بالتدريج أن يبقي هذا التأثير في حجمه الطبيعي وان لا يسمح له بعرقلة سعيه المعافى (١) . وفي أكثر من مناسبة كان « صاحبنا » يعرف ان الانتصار في الحياة لا يتم الا عن طريق الانتصار على النفس ؛ وقد اظهر في الجزء الثالث من الأيام ندمه على كل ما كتبه في ايام شبابه من نقد لاذع للآخرين بسبب ما في هذا النقد من تهجم واسراف . وسجل بذلك صفحة جديدة في سجل الانتصار على النفس ؛ وانه لعمل غير سهل في حالة انسان موهوب حساس يشعر بأنه ضحية العاهة وضحية الاضطهاد وضحية الفقر .

وهكذا يكون سحر «الأيام» مديناً بشكل رئيسي لجوهره الانساني العام والخاص، للتجربة الانسانية العامة ملونة ومعروضة من خلال تجربة فرد مبتلى وموهوب في آن واحد ، وهذا هو شأن الكتب العظيمة في كل زمان وعند كل شعب ، إن هذه الروائع لا تبلى مهما تغيرت الاذواق والأزياء . وفي الخمسينات سألت مجلة (الآداب)(٢) إبان صدورها نخبة من ادبائنا العرب عن أحسن خمسة كتب إبداعية قرؤوها في الأدب العربي الحديث فكان أن ذكر كتاب (الأيام) في خمس اجابات من مجموع ست إجابات ، ولم يتوافر أي تواتر لكتاب آخر غيره .

ولو سئل أحدنا اليوم السؤال نفسه وبعد مضي حوالي ثلث قرن على انتهاء طه حسين من كتابة الجزء الثاني من الايام (فرغ منه في أب ١٩٣٩) لكان كتاب (الايام)

(١) الايام — ج ٣ ، ص ٧٩ .

(٢) الآداب ، الاستفتاء — ع ٣ س ١ ، آذار ١٩٥٣ .

من ضمن أية قائمة يقترحها المرء ، صغرت أم كبرت. وأحسب أن (الأيام) سيظل كتاباً مؤثراً إلى مدى غير قصير. وإنه يمثل طه حسين الانسان أكثر مما يمثل طه حسين الأديب. (١) وما من شك أن جمال العرض وحسن التأني للموضوع وبراعة السبك من العوامل التي اسهمت في نجاح (الايام) ، وما من شك في أن تعلق القراء بعميد الادب العربي كان أيضاً عاملاً مهماً في هذا المجال ، ولكن يظل العامل الاساسي في روعة « الايام » هو جوهر طه حسين الإنسان . وإن (الايام) لو لم تكن سيرة ذاتية لكان في مضمون التجربة التي تحكيها مايؤهلها لان تكون رواية رائعة أو مسرحية مؤثرة ؛ سواء أعرف الناس من هو بطلها الواقعي أم لم يعرفوا .

٢ — « الأيام » في الجزء الثالث :

أ — في نهاية الجزء الثاني من الايام أشار طه حسين إلى احتمال استئنافه الكلام على سيرته ، ذلك أن الجزء الثاني يقف به عند نقطة اتصاله بالجامعة المصرية ومحاولته في الوقت نفسه أن لايقطع صلته بالازهر ، ولم تكن تلك النقطة إلا إشارة البدء لمرحلة من الصراع الحاد جديرة بأن تسجل فيما بعد . « فليصل إذاً من حبل الازهر ماانقطع أو ماهم أن ينقطع ، وليظل إذاً طالباً بالجامعتين ، بالجامعـــة الازهرية كما كان الازهر يسمى في ذلك الوقت وبالجامعة المصرية ، وليحي إذا هذه الحياة المشتركة التي يتجاذبه فيها قديم الازهر في ذلك الحي العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين ، وجديد الجامعة في ذلك الحي الانيق من شارع قصر العيني . فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد . ومن يدري لعلنا نعود اليه مرة اخرى . »

ولقد صمت طه حسين طويلاً قبل أن يستأنف الحديث عن ذلك الصراع الحاد بين القديم والجديد ، وعلى الرغم من أنه تحدث عن تجربة حياته في مناسبات كثيرة ، فإن الجزء الثالث من الايام تأخر في الصدور ، وظهر بغير مقدمة تشير الى زمان كتابته ، بل

(١) «إنه الاديب الوحيد في مصر الذي أشعر كما لقيته أنني أتحدث إلى رجلين: أحدهما إنسان والاخر أديب . » هكذا قال أنور المعداوي على أثر لقاء له مع طه حسين «زوايا ولقطات» الاداب . ع١٢ ، س٢ ، كانون الاول ١٩٥٤ .

(٢) الايام — ج ٢ ، ص ١٨٣ .

إن دار المعارف التي نشرته سنة ١٩٧٢ لاتشير إلى أية طبعة سابقة لهذا التاريخ .(١)

وحين قدر « للفتى » الذي صـار « صاحبنا » في الجزء الثالث ، أن يستأنف حديثه ابتدأ تماماً من النقطة التي خلفناه عندها أو خلفنا عندها في آخر الجزء الثاني ؛ وأخذ يفصل في ذكر معاناته بالأزهر وفي تخوفه من السنوات الطوال القادمة عليه ، وإنه لكذلك وإذا بباب الأمل ينفتح أمامه متمثلاً بافتتاح الجامعة المصرية .

« وكان نبأ الجامعة هذا ايذاناً للفتى بأن تمته تلك توشك أن تكشف ، وبأن غمرته تلك توشك أن تنجلي . فقد يتاح له ان يسمع غير ما تعود أن يبدىء فيه ويعيد من علم ذلك الحمل ... » . (٢)

وتقبله الجامعة طالباً منتسباً :

« ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيراً فجائياً كاملاً » . (٣)

وفي البدء حاول أن يقيم نوعاً من الازدواجية بين الأزهر (القديم) والجامعة (الجديدة) ، فكان صباحه للأزهر ومساؤه للجامعة ، ولكن التوازن كان مفقوداً بين القطبين المتناقضين ولذلك :

« لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثت الأسباب بينه وبين الازهر ، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ، ولايعطيه من الجهد إلا أيسره .

ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر . وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه وضيقه به ، وملله من أحاديثه المعادة . » (ص ١٠)

وبالتدريج تحرر (الفتى) من إسار القديم وشيوخه وأخذ يتصل بالحركة الثقافية الجديدة في مصر ؛ وأتيحت له فرصة التعرف بالاستاذ لطفي السيد وأخذ يلقاه في الجريدة كل مساء تقريباً ، كما اتصل بالشيخ عبد العزيز جاويش « فأكثر الاختلاف اليه

---

(١) ظهرت مادة (الايام — ٣) في مجلة نشرته دار الاداب تحت عنوان « مذكرات طه حسين » ، في شهر شباط عام ١٩٦٧ .

(٢) الأيام — ٣ ، ص ٦

(٣) الأيام — ٣ ، ص ٩

والاستماع له » ، وكان الأول يزيد له الاعتدال والقصد وكان الثاني يحرضه على الغلو والاسراف في النقد « وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً » فاذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني » . (ص ١١) وأخيراً ساءت الحال بينه وبين الأزهر ووجد نفسه يتقدم الى امتحان العالمية وقد ناصبه شيوخه العداء . وقست عليه اللجنة الفاحصة وأرسلت إليه اثناء الامتحان من يبلغه بأنه « قد سقط ، وبأن اللجنة لا تريد أن يتم ما بقي له من الدروس » ص ١٦ وبذلك انتهى ما بينه وبين الأزهر تماماً .

وتستمر حياته بعد ذلك بين الجامعة والصحف والأوساط الثقافية ويخفق قلبه للمرأة أول خفقة إذا يسمع صوت الانسة مي في حفل لتكريم خليل مطران .

وفي هذا الوسط الجديد يجد الفتى نفسه فينشط لاستقاء المعرفة كما ينشط للكتابة ، لولا أن تكدره امور بعضها هيّن كمسألة دخول المحاضرات برفقة دليله الصغير ، وبعضها يحتاج الى عناء شديد كتعلم اللغة الفرنسية التي كانت شرطاً لا بد منه لمتابعة الدراسة في الجامعة . ولكن الامتحان الأكبر الذي خاضه .

كان تأمين البعثة الى فرنسا عن طريق الجامعة ، وما أكثر ما وضعت الجامعة في وجهه من عقبات ، ولكنه صمد لكل التحديات ، واستطاع أن يكون اول طالب يتخرج من الجامعة المصرية !

وهيء له على أثر فوزه « المثول بين يدي الحضرة العلية الخديوية » ، وأصبحت البعثة حقاً مؤكداً له . ولكن إعلان الحرب العالمية الاولى يفاجيء احلامه ويغتالها ويحول بينه وبين السفر إلى أوربا ، فيضطر للانتظار الممض ، وفي هذه الأثناء تعرض عليه الجامعة العمل فيما مقابل خمسة جنيهات في الشهر ، ولكن الامر لا يطول به ، إذ تنجلي الغمرة ويؤذن له بالسفر ، ويغادر الاسكندرية ومعه اخوه وطالبان من طلاب البعثة الجامعية على متن باخرة قديمة بطيئة تصل بهم الى مارسيليا بعد ثمانية أيام من السفر المجهد . ومن ثم ينتقل الفتى الى مونبلييه حيث يقيم وصحبه في فندق حقير ويبتدئون طرازاً جديداً من العيش . وتشتد عليه الصعوبات ويختلف مع أخيه ويفترقان ، ولكنه مع ذلك راض مسرور . يحس أنه حقق شيئاً عظيماً بوصوله الى فرنسا .

وفي ذلك الحين تصل اسباب المودة بينه وبين فرنسية ذات صوت حنون تشنف

أذنه بأشعار الفرنسيين وتضيء قلبه بنور الامل. ولكن الفرحة لا تتم إذ تقرر الجامعة استدعاء البعثات بسبب ظروفها القاسية ويجد الفتى نفسه ثانيـة على ظهر سفينة تقله الى الاسكندرية وفي نفسه من الحزن والضيق ما لا يوصف . ومن الاسكندرية ينتقل الى القاهرة ليقضي فيها بضعة شهور بين التبطل والفراغ والسوداوية ، وفي هـذه الفترة ينشر كتابه الاول عن ابي العلاء فلا يستفيد منه دائقاً على الرغم من حاجته . وتنجلي الغمة ثانية ويؤذن له ولأقرانه بالسـفر ويركب البحر الى نابولي ثم القطار الى باريس ، وفي الحي اللاتيني يستأنف ما انقطع « ويسمع من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الادب الفرنسي واوليات التاريخ اليوناني الروماني ويعينه على درس اللاتينية».

ويقضي الفتى ايامه بين المنزل والسوربون، وتستقيم له دروسه ، وترعاه صاحبة الصوت العذب ، ويجد نفسه فجأة وقد افضى اليها بحبه وأراح نفسه ولو انه تلقى منها جواباً سلبياً وتتغير الامور بعد ذلك وترتبط حيـاة الفتى والفتاة بالرباط المقدس ، ويكون ذلك بدء تعرف الفتى الى معنى السـعادة ، وبدء عهد جديـد مشرق في حياته يعمره الحب المتبادل والسعي المشترك للمعرفة والصبر للشدائد .

ويمضي صاحبنا في دراسته فينال شهادة الليسـانس ثم دبلوم الدراسات العليا ثم الدكتوراه ويضطر من أجل ذلك لتعلم اللاتينية واليونانية ويلقى عنتاً كبيراً من جراء ذلك . وأخيراً يعود الى مصر مع اهله وبعـد صعوبات مالية مرهقة يتسلم منصبه في الجامعة ويبدأ عهداً جديداً من نضاله في سـبيل معتقده ، ويدخـل في خصومات وصداقات ، ولا يندم على ما يصيبه في سبيل الحق ، وانه لفخور بمجرى حياته وبكل ما حقق .

واذا كان الجـزء الثالث من الأيام يبدأ بظروف انتساب « الفتى الى الجامعـة المصرية طـالباً » وينتهي بظروف عودته الى الجامعـة المصرية استاذاً بعد سلـة من التجارب المضنية التي كانت تمضه وتعذبه ولكنها في جميع الحالات الاحالة واحـدة (سقوطه في امتحانات العالمية) انتهت نهايات سعيـدة ، وكانت كل تجربة تزيده ثقة بالنفس وايماناً بالقضايا التي يكافح من أجلها شخصية كانت أم عامة. وهكذا يكون ملخص حياة « صاحبنا » سلسلة من التجارب المؤلمة والصعوبات العنيدة والملابسات المزعجة يخرج بعد كل حلقة من حلقاتها وقد تعذب كثيراً واستفاد كثيراً فازداد بذلك عزمـاً وتصميماً وتشبثاً بحقه في الحياة كانسان وواجبه تجاه مجتمعه كمثقف مسؤول . ولو أن

طه حسين آثر السلامة والمصلحة الفردية ـ وان ظروفه الشخصية والاجتماعية لتشده شداً الى ذلك ـ لاستطاع ، بشيء من الرياء السياسي والاجتماعي الذي لا يترفع عنه كثير من المثقفين ، أن يجنب نفسه وأهله المشقات وشظف العيش وأن ينعم وأهله بحياة طيبة لينة ، ويبدو أن طه حسين أراد لهذه الحقيقة أن تكون عصارة تجربته وزبدتها ولذلك جعلها خاتمة لملحمته الصغيرة .

« لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها ، فلم يغير منها شيئاً ولم ينكر قليلاً او كثيراً » .

ب ـ إن الانسان ليبحث في ثنايا الجزء الثالث من الأيام من معان فكرية جديدة تغني الجزأين الأولين وتتجاوزهما فلا يكاد يجد الا زاداً ضئيلاً . وكما في الجزأين الأولين تقدم لنا التجربة من خلال منظورين اثنين :

اولها : النضال العام للانسان من اجل البقاء والاستمرار .

ثانيهما : النضال الخاص لإنسان مبتلى بعاهة اساسية (فقدان البصر في حالة طه حسين) .

إن طه حسين لا يكاد يزيد في الجزء الثالث شيئاً على هذين المنظورين ولايعمقهما ولا يغنيهما بأفكار نوعية جديدة ، ولا يقفز منهما الى معانيهما بل لا يهيء القارىء تهيئة كافية الى تجاوزهما الى ما وراءهما . ويشعر المرء ان هذين العنصرين استوفيا بمعناهما العام من خلال الجزأين الأولين ، وكانت نضارة التجربة ومارافقها من حرارة وما واكبها من عرض طازج كافية لأن تجعل من (الايام) بجزأيه الأولين كتاباً عظيماً يشعر الانسان بالاكتفاء ويرضي حاسته الاستكشاف كما يرضي الذوق الفني .

ولكن الانسان يتوقع من الرحلة الثالثة للأيام أن تكون شيئاً آخر . ان التفاصيل اليومية التي تضمنتها هذه الرحلة معروف معظمها ان لم يكن كلها ، وقد تحدث عنها طه حسين نفسه أو تحدث عنها مريدوه واصحابه في مناسبات كثيرة ، وبقي ان يعرف الانسان المعنى الخاص الذي استخلصه الكاتب من تجربته ، بعد ان تطورت على أثر ذهابه الى اوربا ، والا فما معنى السيرة الذاتية في هذا العصر المفتوح الذي يعرف فيه القارىء دقائق حياة المشاهير من زعماء سياسيين وكتاب كبار وشعراء وممثلين وفنانين؟ ويبدو أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعوض عن المعنى الخاص للتجربة هو

الاعترافات ، وكثيرا ما تكون هذه الاعترافات في عنفوان الشباب ومن قبل أناس خاضوا تجارب عاطفية عميقة أو تجارب من نوع غير مألوف كما فعلت مثلاً الكاتبة الايرلندية اثيل مانين في عشرينات هذا القرن اذ أثار كتابها (اعترافات) ConFessions ضجة كبيرة لأنها كشفت بصراحة متناهية عن تجربة فتاة في مطلع عشريناتها . (١)

ان السيرة الذاتية الناضجة تطرح عادة مسائل فكرية او فنية او اجتماعية دقيقة من خلال التجربة الشخصية للكاتب ، ويكون معناها أحياناً أبلغ من أي كتاب فلسفي لأنها تقدم القناعات الفكرية مع إطارها الحي . كما انها تتضمن اعترافات تتعلق باعمال فكرية للمؤلف نفسه وتفحصاً لمواقف فكرية وفنية سابقة . لنأخذ مثلاً سيرة جان بول سارتر « الكلمات Les Mos » ولنقف عندها قليلاً لنرى ما الذي تقدمه السيرة الذاتية الناجحة ، ان المجلد الاول من « الكلمات » يروي قصة طفولة متوحدة تماماً ومحمية حماية مفرطة ، ويحكي في الوقت نفسه كيف دفعت هذه الوحدة جان بول سارتر الى البدء بالكتابة وتطوير مفهوم خاص للادب استغرق — كما يقول سارتر — ثلاثين عاماً حتى شفي منه صاحبه . و « الكلمات » ، شأنها شأن كل النتاج سارتر ، عمل تعليمي يهدف الى نقد الافكار الاجتماعية والفلسفية والادبية البرجوازية التي نشأ فيها الفتى سارتر . وهي تتضمن كذلك اعترافات مقدمة بروح الخصومة . وكشفاً صريحاً عن أعماق نفسية الطفل سارتر، وامتحاناً للمسلمات الفلسفية والادبية لانتاجه في المرحلة الاولى من حياته ، ومن تعليقاته مثلاً على (الغثيان) و (الوجود والعدم) نجده يعتبر الموقف الذي املى كتابتها غير وارد تماماً . ويظهر لنا سارتر كيف كان هذا الموقف نوعاً من المثالية السكونية أدى الى ان يضع الكاتب نفسه فوق الشرط الانساني وأبعد منه ، وان يلح على لا معنى حيوات الآخرين ولا معقوليتها حتى يتساح له ان يبرز أهمية حياته الخاصة وضرورتها . وهو يعتبر هذا المفهوم للادب أسوأ جزء من تراثه العقلي وذلك بما ينطوي عليه من سخافة رومانتية تتخذ من الادب وسيلة للخلاص الغيبي (الميتافيزي) لفرد موهوب منعزل مثل (روكانتان) بطل الغثيان أو (سارتر) بطل الكلمات .

(١) اثيل مانين Ethel mannin ، هي مؤلفة رواية (الطريق الى بئر السبع) وروايات اخرى كثيرة تتحدث عن المعاناة الفلسطينية وعن الحياة المعاصرة في الاقطار العربية .

ان سارتر يهجو أفكاره الاولى ، بسهام نافذة ومضيئة ، كما يهجو الطفل الأول الذي كانه ، وهو يتخلى عن العاطفة لينفذ الى أغوار شخصية هذا الطفل ويستنشق خلايا نفسيته كأنما لا علاقة له بها ، ويتوخى الصدق والاخلاص الى حد الجفاف ، ولكنه جفاف في العاطفة لا في نضارة الفكرة ولا في نفاذ الاسلوب. وينتهي كل هذا الهجاء باعتراف مخلص وصادق بالعجز وذلك بدلا من المضي في صنع هيكل جديد من الزيف :

« أما الآن فأنا أعرف عجزنا . لا فرق . وأنا اصنع كتباً وسأستمر على ذلك . لا بد من الكتب ، فهي على أي حال نافعة . ليس للثقافة ان تخلص شيئاً او انساناً او ان تسوّغ . بل انها نتاج الانسان ، فهو ينعكس عليها ويتعرف نفسه فيها . انها وحدها المرآة النافذة التي تعكس له صورته » .

ولقد اعطانا سارتر صورة مخيبة . نعم . ولكنه طلب الينا الاستمرار كذلك .

وإذا كانت مقارنة « الايام — ٣ » مع الكلمات يمكن أن تنطوي على شيء من عدم الانصاف لان سارتر فيلسوف وتعليمي وطه حسين أديب ليبرالي ، فلنتذكر سيرة ذاتية غربية اخرى معاصرة لطه حسين مثل « عصارة الايام The Summing up » للكاتب الانكليزي سومست موم Somerset maugham (١) إن هذه السيرة الذاتية تحاول أن تكون متواضعة إلى أقصى الحدود ، وتحاول أن تتجرد عن التبشير والتعليم كذلك ، وفي الفصول الاولى منها عرض لطفولة الكاتب وطبيعة الحياة من حوله ، ثم وصف لدراسته الاولى ثم عرض لرحلاته المختلفة في أوربا . ويخلص الكاتب من هذه الفصول إلى الحديث عن مطالعاته ولاسيما في ميدان الفلسفة ؛ ثم يشرح آراءه في كثير من القضايا التي تؤرق النفس الانسانية كالحق والخير والجمال والدين ، متابعاً خلال ذلك سرد أحداث حياته الحافلة بالمفاجآت والتجديد . ثم إنه يقف عند الاحداث الرئيسية في حياته ويفصل الكلام على أهميتها ومغزاها بالنسبة لفهم الحياة . كما أنه يتوقف عند تجاربه الرئيسية مع فنون القول المختلفة ويذكر ما انتهى إليه من فهم لطبيعة هذه الفنون كالقصة والمسرحية ، وما استفاده من علاقاته مع الجمهور ومع الممثلين ومع الناشرين الخ . . وإنه يعترف ليؤكد أكثر من مرة أن الاراء التي توصل إليها لا تعد فتحاً جديداً في عالم الفكر أو الفن كما يعترف أنه

(١) صدر هذا الكتاب في بريطانيا سنة ١٩٣٨ ، وقد ترجمه كاتب هذه السطور تحت عنوان « عصارة الايام » وصدرت طبعته الثانية عن دار الفكر سنة ١٩٧٣ .

منذ مطلع حياته ظمىء إلى العثور على كتاب فصل يحسم الرأي في جميع القيم التي ما زال المفكرون يناقشونها ويختصمون بشأنها منذ عهد أرسطو وقبل ذلك ، ولما اخفق في العثور على هذا الكتاب المنشود عقد العزم على تأليفه وخاض غمار الفلسفة وطفق يجمع مواد الكتاب فإذا بها تتعقد وتتشعب وتطغى حتى تضطره الى أن يرفع يديه مستسلما .وهكذا تأتي (عصارة الايام) خلاصة بسيطة وصادقة وغير مواربة لكل ما مر بـه الكاتب من تجارب في المجالين المعيشي والادبي .

وإن المرء يتفقد في (الايام) هذه الجرأة في الخوض في صميم التجربة الفكرية او الحياتية كما يفتقد التحليل . ثم ان المرء لايجد تعويضاً عن ذلك في التجربة الذاتية الخاصة للضرير الموهوب لان طه حسين يضن علينا بالكثير ، ولا يمنحنا سوى نفحات طيبة واصيلة تثير فينا الظمأ بدلا من ان تروي الغليل .

جـ - ان هذه المقارنات - على أي حال - لا تستهدف أبداً النيل من القمة الادبية للايام ولاسيما على مستوى الادب العربي . فالسيرة الذاتية مازالت حتى الآن نوعاً أدبياً ناشئاً عندنا وإسهام طه حسين فيها إسهام اساسي وجوهري .

وكما سبق أن ذكرت يظل للجزأين الاولين قيمتها الفردية الخاصة . اما الجزء الثالث فمشكلته انه لا يرتفع الى مستوى السير الادبية الناضجة في عصرنا

وكذلك لا يحتفظ بنضارة الجزأين الاولين وتألقها . ولا ادري لماذا يكتفي طه حسين هنا بأن يمس الامور مساً عابراً ورقيقاً ، وإنه ليعلم حق العلم ان القارىء متشوق لمعرفة خفاياها وتفاصيلها ، وإنه ليدرك - وهو الاديب المرهف - ان كثيراً من المواقف التي مر بها مسرور الكرام هي مواقف إنسانية غنية من شـأنها ان تمنح الاديب فرصة الكشف والتغلل في الأعماق ؛ ومن عجب ان طه حسين يفوت على نفسه مثل هذه الفرصة .

هل اعطي امثلة ؟ ان كل فصل من فصول الايام جـ - ٣ القصيرة المتلاحقة يحمل وحده مثالاً أو مثالين : كيف تمر مسألة حبه هذا دون معنى وكأنها ابسط شـيء في الوجود ؟ وهل من السهل على فتى ضرير فقير غريب ان يحظى بحب فتاة اوربية معافاة لا ترى في مستقبله القريب بوارق امل ؟ كيف حدث هذا ، وكيف سارت العلاقة بينهما فيما بعد ؟ ان طه حسين يصمت عن ذلك ويكتفي باشارة اللمح ولا يعبأ بتساؤلات قارئه بل بتساؤلات الموقف نفسه ؟ ايريدنا طه حسين ان نصدق ان الجانب الوحيد من هـذه

العلاقات النبيلة إنما كان هو الجانب الظاهر الذي أرمأ إليه إيماء ولم يستقصه ؟ وماذا تكون السيرة الذاتية في هذا المجال إن لم تكن كشفاً وتعرية ؟

وفي مجال آخر يذكر لنا طه حسين على صفحات (الأيام - ٣) ماذا قرأ من الكتب وماذا تعلم من اللغات ، ولكنه لا يقول لنا ابداً كيف فكر وكيف فهم الامور ؟ وكيف نظر الى الكون والى الحياة . نعم . انه يشير الى محاولته التخلص من التشاؤم الذي فرضته عليه قراءاته المبكرة لأبي العلاء المعري ، ولكنه لا يقول لنا مارأيه في فكر ابي العلاء ، ولا يقول لنا ما رأيه في معتقدات « الفتى » أولاً و « صاحبنا » ثانيا وكأنما كانت كل تلك العلوم والفلسفات التي قرأها في الغرب زاداً من المعرفة خارجياً لا شأن له كبيراً في الموقف من الحياة والكون .

وليس المطلوب هنا التفلسف . فربما فعل طه حسين ذلك في مجالات اخرى من كتبه ولكن المطلوب — على الأقل — الكشف عن الحركة النفسية والفكرية من الداخل ، والا أصبحت السيرة الذاتية سيرة خارجية فحسب .

أتراني اظلم طه حسين . من السهل ان اجد له المسوّغات والتعلاّت اعلى الاخص في طبيعة المجتمع من حوله . فلقد أذت صراحة « الفتى » « صاحبنا » منذ ان بدأ يعارك الحياة بوظات صراحته الخارجية تثير عليه ضروب الخصام والعداوة وأخرجته من الجامعة وعرضته للاضطهاد والعوز مرة بعد اخرى . أفليس من حقه ان يحسب حسابا للصراحة الداخلية وما قد تجره عليه من ألوان النقمة التي ربما كان لا يخشاها ولكنه لا يرى لزوما لها .

ولست اتهم طه حسين هنا بالمواربة بل اسجل عليه تمسكه بالصراحة الحكيمة اوبالحكمة في الصراحة . وان المتتبع لظاهرة طه حسين في المجتمع العربي يعرف تماما انه لولا هذه الحكمة في طرح الامور لما اتيح لصوت طه حسين في الاغلب ان يصل الى آذان القراء العرب شرقا وغربا ، ولكن هذه الحقيقة ينبغي لها ان لا تمنعنا من افتقاد عنصر الكشف الذي نعلم انه المسوغ الطبيعي في فن السيرة الذاتية .

وحق في مجال الحديث عن الثورة والنضال كان طه حسين حكيما وان كان مصمما ايضا . تقرأ الفصل الأخير من (الأيام — ٣) فتجده يتحدث عن صموده السياسي ويشير اشارات غامضة الى ثورات عصره واشارات واضحة الى بعض الخصومات

السياسية التي اضطر لأن يخوض غمارها بعد عودته مباشرة من فرنسا ، وانه ليعرف تماما لماذا خاض هذه الغمار ولا يندم على خوضها .

« لو استؤنف الامر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها ، لم يغير منها شيئا ولم ينكر منها قليلا او كثيراً » .

كما يعرف أن الضرورات الوطنية هي التي أملت عليه خوض المعركة وانه لولا ذلك لكان يؤثر الانصراف الى علمه وادبه وهذا هو واجب المثقف في الاحوال العادية :

« وكذلك غرق صاحبنا في السياسة الى اذنيه وكان جديراً ان يفرغ للعلم والتعليم، والا يفكر إلا في طلابه وكتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الخيرة بالقياس الى بعض ابنائها إثما لا يغتفر ، ولا تمحى آثاره . » ص ١٧٢ .

أما سوى ذلك فلا نعرف المبدأ الذي يصدر عنه طه حسين ولا العقيدة السياسية التي يقبلها ولا الهدف الوطني الذي يرمي اليه . كان يكره الجبن والنفاق وكان الحق رائده دائما ، وقد خاصم احياناً بعض الزعماء السياسيين وهادن بعضهم و « غرق في السياسة او احترق بنارها ، ولم يكن له بد من ان يحتمل تبعات هذا الغرق او هذا الحريق » ..

د — ولكن ، على الرغم من كل هذه الملاحظات ، يظل الجزء الثالث من «الايام» كتاباً جميلاً ومؤثراً . وربما تكن قيمته الاساسية في تلك المواقف النوعية الخاصة التي سجلت اضطرار الفتى الموهوب إلى ان يشعر بعاهته شعوراً حاداً وبالتالي ابرزت عنده، ولو نسبياً ، تجربة ذلك النوع من الاحاسيس الداخلية التي لا يعرفها إلا المكفوفون ؛ والتي كان الفتى يحاول جاهداً ان يتجنبها او على الاقل ان يتجنب تضخيمها وذلك رغبة في ان تظل - ردود فعله طبيعية ومعافاة ، على نحو ما رأينا في مطلع حياته الذي يصوره الجزءان الاولان من الايام على ان هذه الناحية بالذات تنضج هنا نضجاً واضحاً وتأخذ بعداً عملياً او نفعياً يتضمن التجاوز عن الاحساس لصالح التصرف العملي .

وكأنما يقول لنا « الفتى » : على الكفيف الا يكون مفرط الحساسية إذا اراد ان يعيش . وفي الفصل الذي وصف به الفتى حادثة منعه من اصطحاب مرافقه الى قاعة التدريس بالجامعة والفظاظة التي رافقت هذه الحادثة نجد انه يكاد يقول في نهاية الفصل (ص ٣١ — ٢٤) انه لو افسح المجال لفرط الحساسية لفقد دراسته الجامعية ولتغير بالتالي مجرى حياته .

وفي مجال آخر يتعرض لهذه الناحية بشيء من الوضوح والتقرير ، فيذكر ماجرى

عليه شقاء العامة ويذكر ما أثاره في حياته من المشكلات ثم يذكر تجاوزه من هذه النواحي في حياته العملية ، وربما كان هذا هو الدرس الاساسي في (الايام) :

« .. ولكنه كان يحمل في نفسه ينبوعاً من ينابيع الشقاء لاسبيل لأن يغيض أو ينضب الا يوم يغيض ينبوع حياته نفسها ، وهو هذه الآفة التي امتحن بها في أول الصبا ، شقي بها صبياً ، وشقي بها في أول الشباب ، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها ، بل أتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارت أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات، ولكنها كانت تأبى الا أن تظهر له بين حين وحين انها أقوى منه وأمضى من عزمه وأصعب مراساً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة .

والغريب من أمره وأمرها انها كانت تؤذيه في دخيلة نفسه وأعماق ضميره . كانت تؤذيه سراً ولا تجاهره بالخصومة والكيد . لم تكن تمنعه من المضي في الدرس ولا من التقدم في التحصيل ، ولا من النجح في الامتحان حين يعرض له الامتحان .. » ص ١٠١ - ١٠٢ .

ان هذه المواقف لها ذاتها مواقف انسانية دقيقة وبالغة التأثير . ويزيد من تأثيرها هنا تلك البساطة المتناهية التي ترافق عرضها والتي تشير الى عمق صداها في نفس «صاحبنا» وبالتالي الى سلامة فهمه لها وصدقه البالغ في عرضها وتقديمها .

وتتنوع هذه المواقف الى حد ما ، كما وتختلف معانيها ودلالاتها بالطبع ، ومن خلال هذا التنوع ترفد التجربة النوعية بتلك الخصوبة التي تعطي كتاب الأيام لونه الخاص بل أكاد أقول سره الخاص . ان « الفتى » الضرير المعوز الفريب يدرك أن تجربة الحياة مفروضة عليه كما هي مفروضة على الأعداد التي لا تحصى من ناس هذا العالم السابقين منهم واللاحقين ، وهو يدرك أيضا أن وجوده — كوجودهم — عرضي ومؤقت وربما غير مفهوم (ولذلك لم يتعرض له صاحبنا تعرضاً مباشراً) ، ولكنه يدرك كذلك أنه معاناة تنتظره من خلال كل منعطف من منعطفات التجربة الحياتية التي لم يكن له بد من خوضها ، وما ذاك فقط لأنه كالآخرين محكوم أن يوجد وأن يخوض التجربة بل لأن الأسلحة التي وجدها بحوزته تعاني من نقص خطير واساسي . واذا كان البصر سلاحاً استراتيجياً اساسياً في معركة الحياة فانه ، بالنسبة لمن يعد نفسه للعمل في ميادين العلم والثقافة ، السلاح الاستراتيجي النوعي الذي يأتي مباشرة في سلم الاولويات بعد العقل .

وان طه حسين ليدرك ذلك كل الادراك ، وهو لا يسيء تقدير الصعوبات التي تتربص به بل كثيراً ما يقضي لياليه مسهداً أرقاً يناضل هواجسه ويتحسب للواجهات المتوقعة، ولكنه في الوقت نفسه لا يسمح لمخاوفه أن تتادى الى أبعد من حجمها الطبيعي ، وهو يعرف متى يوقفها عند حدها وكيف . وانه ليصف لنا تجربته في الدخول الى الجامعة وفي مشكلة الايفاد ومشكلة السفر البحري والبري وتعلم طريقة (برايل) ومسألة الطعام ومشكلة امتحان الجغرافية وغيرها من المسائل النوعية التي تعرض للضرير ، ويحسن الوصف والتصوير ، ولكنه لا يعلق على التجارب ولا يستنبط معناها ولا يربط بينها الا فيما ندر ، بل يبقيها هكذا سلسلة من اللوحات الانسانية الغنية معروضة من خلال اللون البسيط الهادىء وغير المركب وضمن اطار رقيق خفي لا يكاد يظهر . وانها مشاهد مؤثرة أحياناً حتى انها لتكاد تستدعي الدمعة من العين لأنها تمس ناحية حساسة صميمية من نفسية الفتى الذي يشعر بالعجز شعوراً مستمراً ويؤدي به العجز الى أن يتسامح حتى في تلك الحقوق التي تبدو للآخرين طبيعية جداً الى درجة انهم لا يحسون بها .

(على أن عجز الفتى لم يكن مقصوراً على ذهابه الى الجامعة وعودته منها ، وانما كان عاماً شاملا يمس الفتى في اشد الاشياء لزوماً له ، فهو كان يستحيي من كل شيء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والاشفاق عليه . وكان شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم ، وانما يخلو الى طعامه الذي يجب أن يحمل اليه في غرفته حين يأتي وقته . فكان الطعام يحمل اليه ويوضع بين يديه ثم يخلي بينه وبينه فيصيب مايستطيع لا ما يريد، يحسن ذلك احياناً ويخطئه احياناً اخرى ، وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية ، محتملا في سبيلها ماقد يتعرض له احياناً من ألم الجوع)(١) .

ونحن هنا طبعاً إزاء مشهد غني بالأحاسيس الخاصة بالعاهة ، فهناك الشعور الدائم بالعجز من الدخل ، وهناك شعور الخجل من العجز أمام الآخرين ، وهناك الحرمان الذي يسببه هذا الشعور بالعجز ويفرضه فرضاً على صاحبه ، وهناك أخيراً الاستسلام لشعور الحرمان والتكيف معه باعتباره جزءاً لايتجزأ من الحياة اليومية . وإن تأثير مثل هذه اللوحة في نفوسنا لعظيم ، وإنه ليذكرنا بأبسط النعم اليومية التي لانراها ولا نفطن اليها ، الطعام موجود ولكن الفتى لايستطيع ان يصيب خصاصته ، ولو كانت

(١) الأيام ج ٢٣ ص ١١١ ، والتشديد مني .

المسألة مرهونة بمناسبة معينة أو بأمد محدود لهانت ، ولكنها ضريبة يومية لازبة على الفتى ان يدفعها صاغراً وان يحتسيها جزءاً لايتجزأ من حياته دون ان يخامره أي أمل بالخلاص منها . ولقد كان طه حسين خليقاً ان يتوقف عند هذه الناحية الحساسة من نواحي العاهة ويقلبها على وجوهها حتى يستدر من الدمع مدراراً ، ولكنه أثر كما في الكتاب كله ان يكون المشهد عابراً سريعاً لايكاد يسمح للدمعة ان تتجمع على حدقة العين ، وبالتالي – وهو الأهم – لايكاد يسمح للموقف ان يحفر معناه في الذهن .

والغريب أن هذه الطريقة في الكتابة لا تتفق مع ما عرف عن طه حسين من أناة في القول ورغبة في بسط الفكرة وسماحة في التعامل مع اللفظ إنها هنا لمح تكفي إشارته ولغة بسيطة خالية من الزينة وأحياناً من التألق، مع بعد عن التكرار وخلو من التناغم الموسيقي المعروف في أسلوب طه حسين . فهل هي يد أخرى تلك اليد التي صاغت هذا الكتاب ؟ أم روح أخرى ؟ أم لعلها النفس في حالة النجوى الصافية والتوهج من الداخل ؟

طه حسين

والتيارات الفلسفية في فرنسا

وليد فستق

١ – الجذور الثقافية الفرنسية

ليس الحديث عن الأرضية الثقافية التي منها نشأ وعليها شب طه حسين(١) بالحديث

(١) . ولد طه حسين في قرية « عزبة الكيلو » بصعيد مصر في ١٤/١١/١٨٨٩
. . كف بصره بعدما تجاوز السن الرابعة من عمره .
. حفظ القرآن (١٨٩٨) وانتسب الى الأزهر (١٩٠٢) فالى الجامعة المصرية عام انشائها (١٩٠٨) .
=

السهل ، وليس البحث عنها أو فهمها بالبحث الهين ، ذلك أن لها جذوراً تمتد الى اعماق غائرة في التربة ، تنتمي الى ثقافات وقيم حضارية ذات جنسيات مختلفة كونت لدى الاديب منطلقاته الأساسية من فكرية وأدبية ووجدانية ومزاجية .

وكان من نتائج هذه الثقافة المتنوعة المتلونة — فيما كان — لوحة غنية من الانتاج الأدبي ذات خطوط متعددة الاشكال والالوان ، تنبسط في ناحية ، وتتعقد في ناحية أخرى ، تبدو مستقيمة وقصيرة وواضحة في جانب ، ملتوية وطويلة وغامضة في جانب آخر ... يلمح الباحث في بعض منها اصالة وابداعاً ، وفي البعض الآخر تقليداً ومحاكاة .

- .. نال درجة العالمية (الدكتوراة) من هذه الجامعة على أطروحة عن أبي العلاء المعري (١٩١٤) .
- . أوفد الى فرنسا في نفس العام.. ونال درجة الليسانس في الآداب من السوربون عام (١٩١٧) .
- . اقترن بزميلته ومدرسته الافرنسية سوزان (١٩١٧) .
- .. حصل على درجة الدكتوراة من جامعة السوربون عن أطروحة عن ابن خلدون (١٩١٧–١٩١٨) .
- . عين أستاذاً للتاريخين القديمين اليوناني والروماني في الجامعة المصرية (١٩١٩) فأستاذ لتاريخ الأدب العربي .
- .. عين عميداً لكلية الآداب (١٩٢٨) ليوم واحد !
- . عين عميداً لكلية الآداب (١٩٣٠) ليومين اثنين !
- .. عين رئيساً لتحرير جريدة الشعب (١٩٣٠)
- . أحيل الى التقاعد في (١٩٣٢/٣/٢٩) .
- .. أعيد الى الجامعة أستاذاً للأدب العربي (١٩٣٤)
- . عين عميداً لكلية الآداب للمرة الثالثة (١٩٣٦) حيث بقي هذه المرة ثلاث سنوات .
- .. عين مراقباً للثقافة في وزارة المعارف ومدرساً في الجامعة (١٩٣٩) .
- . عين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ومديراً لجامعة الاسكندرية (١٩٤٢) لعامين .
- .. منح وسام الارز الوطني (اللبناني) في ايلول (١٩٤٤) .

وقبل أن نختار واحداً من تلك الجذور التي يتطلب كل منها ، بل كل زاوية من زواياها بحثاً منفرداً — ذلك أن هـذه الجذور في من الغنى والتنوع والعمق بحيث تتطلب دراسات وافية — نود أن نلقي نظرة على هذه الأرضية الفسيفسائية من الثقافة المتنوعة كي نتبين موقع بحثنا هذا فيها .

تعدد هذه الجذور الى جوانب ثلاثة: جانب اسلامي ، وآخر عربي ، وثالث أجنبي.

فأما الجانب الاول فمؤلف من « طبقة » من بعض ترسبات الثقـافة الاسلامية القديمة المتمثلة بالقصص البطولية التاريخية(١) التي خضعت في كثير أو قليل لا لخيال الرواة والنقلة فحسب . بل للطابع المحلي الاجتماعي الذي تلقى فيه .. وقد قوت هـذه الطبقة ونمت لدى الطفل ملكة « القص » والتنميق والتزويق .. ولعـل ملكة التكرار أيضاً(٢) .. مما نلمس آثاره في أسلوبه الأدبي .

= • أحيل الى التقاعد حتى ١٩٥٠/١/١٢ .
•• عين وزيراً المعارف في (١٩٥٠/١/١٣) لعامين وثلاثة عشر يوماً .
• حصل على لقب (الباشوية) عام (١٩٥١) .
•• أدى فريضة الحج عام ١٩٥٥ .
• طه حسين — عضواً فرئيساً لمجمع اللغة العربية في القاهرة حتى وفاته .
— عضواً للمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر
— عضواً للمجمع المصري .
— وهو كذلك عضو في الاكاديمية الأيطاليـة بروما .. وعضـو مراسل لاكاديمية الآداب في باريس .
•• منح درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة مدريد — باسبانيا .
• منح درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة كمبردج — بانكلترا .
•• منح وسام قلادة النيل وهو أرفع أوسمة مصر في ١٩٦٥/١٢/٢٠ .
• منح جائزة الامم المتحدة لحقوق الانسان قبل وفاته بيومين ١٩٧٣/١٠/٢٦
•• ألف مايقرب من سبعين كتاباً .
• توفي في القاهرة في ١٩٧٣/١٠/٢٨ .

(١) انظر : طه حسين — الأيام ج ١ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص (٥٦)

(٢) انظر : طه حسين — التكرار عند طه حسين — مجلة الهلال عدد خاص باسم أصحاب الأساليب الحديثة ص ٩١ — ٩٣ .

وبعد هذه « الطبقة » تأتي طبقة ثالية تتمثل بالثقافة الاسلامية التقليدية بدءا بالقرآن ، وتثنية بالحديث النبوي ، وانتهاء بالكتب الدينية المتنوعة . وقد ألقت هذه الطبقة بظلها على فكر طه حسين فترة طويلة من الزمن كانت خلالهـا صريعة ضغط وانجذاب خارجي عقلي ما كان الكاتب الناشىء في جو محافظ من اسرة من أواسط الشعب أن يرضخ لها ويعبر عنها الا من خلال حجب لم يكن من اليسير كشفها وتعريتها . ويبدو أن معلمه هو الاول : أبا العلاء المعري قد علمه عن هذه « التقية » الشيء الكثير !

ولعل من المناسب الاشارة الخاطفة الى نقطتين تتعلقان بهذه المرحلة من مراحل التكون الثقافي عند الكاتب . الاولى : افتتانه بالاتجـاه العقلي لدى بعض فرق المسلمين وبخاصة لدى علماء الكلام(١) . والثانية شغفه بحب التمرد على الآخرين حيث يرى هؤلاء خاضعين مستسلمين غير مناقشين آراء الغير ، لا مدافعين عن آرائهم ولا منافحين عنها . وسوف يرى الباحث في ادب طه حسين وفكره الفلسفي ونظراته الاجتماعية مدى تأثير هاتين النقطتين على هذا الفكر وتلك النظرات .

وأما الجانب الثاني من جذور ثقافته فهو هذه الثقافة العربية التي اطلع عليهـا الكاتب شعراً كانت أم نثراً ، الى أي من العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة امتدت؟ هو تاريخ الأدب العربي منبسط بين يديه ، يقلبه ويتمعن فيه ، يدرسه ويتفحص فيه . وان كان الزاد قد بدأ إبان دراسته في « الأزهر » (عام ١٩٠٢) فقد كان للجامعـة المصرية « القديمة » التي انشئت عام ١٩٠٨ ، والتي كان طه حسين من أوائل المنتسبين اليها دوراً لاغبار عليه في تعميق هذا الجانب من ثقافة الكاتب .

وأما الجانب الرئيسي الثالث والاخير ، فثقافته الاجنبية . والباحث في هـذا الجانب يراه ممتداً على ارضية افقية وعلى اخرى شاقولية في آن واحد . انه جانب غني يتمثل بنهل طه حسين من الثقافات اليونانية ، والرومانية ، واللاتينية ، الفرنسيـة وايطالية ، وكذا من الثقافتين الانكليزية والالمانية .

(١) علماء الكلام هم علماء مسلمون نهضوا للرد على كل من حاول الاعتراض على العقيدة الاسلامية بالمنطق أو بالفلسفة . فكان ردهم بنفس سلاح هؤلاء . وقد برزوا في تاريخ حركة الفكر الديني بدءاً من منتصف القرن الثاني للهجرة .

وليس من نافلة القول الادعاء بأن هذه الثقافات(١) بتأثيرها الواحدة تلو الاخرى ، فرادى أو مجتمعات ، في فكر ووجدان وأسلوب الكاتب ، لتستحق أن تنفرد لها مجموعة ابحاث تتناولها الواحدة تلو الاخرى .. اذ أن أي ضم لها في بحث واحد سوف يجحف حقها وان يعطي – في خاتمة المطاف – غير عنــاوين كبيرة لاتخدم قط اصول البحث وأهدافه .

واذ نختار اليوم الجانب الفرنسي من هذه الثقافات الاجنبية ، فلاقتناعنا بعمق أثره لدى الكاتب(٢) .. دون أن نتناول هذا الأثر على اسلوبه لما يتطلبه ذلك هو الآخر من بحث ودراسة مستقلين . نقول هذا رغم أن الأولوية الزمنية تعود الى الجانب اليوناني الذي ملك على كثير من مناحي الفكر والوجدان لديه(٣) .

أولاً – احتكاك طه حسين بالثقافة الفرنسية

ذلك أن أول احتكاك لطه حسين مع الثقافة الفرنسية – وهو فاقد البصر(٤) –

(١) يعيد طه حسين أسباب تفتحه على الثقافة الفرنسية الى فتحي زغلول ، وعلى الثقافة الانكليزية الى محمد السباعي (انظر : الفيلسوف – محمد السباعي – يوسف السباعي القاهرة ١٩٥٧ مقدمة طاها (هكذا بالألف الممدودة) حسين ص ٢) .

(٢) انظر : طه حسين – جنة الشوك ص ٢٥ .

(٣) انظر : طه حسين – قادة الفكر القاهرة مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٥ أودار المعارف بمصر ١٩٢٩ و ١٩٥٩ .

(٤) يختلف مؤرخو سيرة طه حسين في العام الذي فقد فيه بصره :

فالطفل طه فقد بصره في الثالثة من عمره (شوقي ضيف – الادب العربي المعاصر في مصر – القاهرة ؟ ص ٢٧٧) (جريدة النهار « نبذة عن حياته » بيروت – ٧٣/١٠/٢٩) .

والطفل طه فقد بصره في الرابعة من عمره (سامي الكيالي – مع طه حسين – سلسلة اقرأ رقم ٣٧٥ . دار المعارف بمصر ١٧٧٣ . ص ٧) .

والطفل طه فقد بصره في الخامسة من عمره (لويس عوض – الايام – جريدة الاهرام – القاهرة – ٧٣/١١/٢٣ . =

جاء عبر حروفها الناعمة وألفاظهـا المنمقة المنغمة في عام ١٩٠٨ . وقد قادته هذه المعرفة البسيطة التي تكونت لديه الى حضور دروس الأدب الفرنسي على يد الاستاذ لوي كليمان L. Clemen – المنتدب من جـامعة ليل Lille للتدريس في الجـامعة المصرية – في العام نفسه .. ومن ثم الى حضور محاضرات الاصطلاحات الفلسفية بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ والتي كان يلقيها لوي ماسينيون L. Massignon(١) .

ولم تقم بين الاستاذ وتلميذه يوما علاقة يمكن أن توصف بالوثيقة .. كتلك التي كانت قائمة بين هذا التلميذ وبين بعض المستشرقين الايطاليين(٢) أو قل كلهم . ومع ذلك فان احتراماً قد ولد بين هذين الرجلين يوم أخذا يتحاوران ويتناقشان في مسائل لها اتصال بالتراث العربي والاسلامي . ولنضرب مثلاً على ذلك خـلاف الرجلين فيما اذا

= والطفل طه فقد بصره عام ١٨٨٥ أي في السادسة من عمره (مقدمة : الى طـه حسين في عيد ميلاده السبعين – باشراف عبد الرحمن بدوي – دار المعارف بمصر / ١٩٦٢ . ص ٩) .

والطفل طه فقد بصره في طفولته الاولى ؟ (فاروق عبد القادر – طه حسين : السيرة الذاتية والرواية – مجلة الطليعة – القاهرة – ديسمبر ١٩٧٣ . ص ١٧٠)

ونحن نميل الى الاعتقاد بأن هذا الطفل لم يفقد بصره قبل الرابعة .. وان كان طه حسين لايوضح ذلك في تاريخ محدد في « أيامه » .. انظر : الجزء الاولى من « الايام » ص ١٢٠ .

(١) ماسينيون : باحث لغوي ومؤرخ ومفكر افرنسي (١٨٨٣ – ١٩٦٢) . صرف كثيراً من أبحاثه في ابراز الاصول الثقافية الاسلامية ، وكذا في دراسة الوجـوه الاسلامية ذات الطابع الصوفي . ألف فيما ألف « عشق الحلاج : شهيد الصوفية في الاسلام» ١٩٢٢ ، « فرق المغـاربة » ١٩٢٥ ، « صلاة ابراهيم حول سدوم » ١٩٢٩ . كان ماسينيون يعتبر في حياته من أبرز المستشرقين الفرنسيين وأبعدهم غوراً في فهم الاسلام وثقافته . وهو من دعاة الاتصال الفكري ليس بين أوروبا والبلاد الاسلامية فحسب بل بين فرنسا – بشكل خاص – وهذه البلدان .

(٢) انظر : Instituto universitario orientale taha huzein (Napoli 1964)

كانت لدى أبي العلاء المعري ميول دينية – اسماعيلية . ففي الوقت الذي يجزم بوجودها المفكر الفرنسي ، ينفي هذا الوجود زميله العربي(١) نفياً قاطعاً .

ولا نستطيع أن ندعي – أنه من خلال هذين الاتصالين – ثمة مؤشر نحو الاهتمام بالثقافة الفرنسية ، او بشكل اكثر دقة ، نحو المنظار الذي ينظر من خلاله المفكرون الفرنسيون الى ثقافتنا .. لولا ذلك الايفاد الذي تمتع به الكاتب الى موطن هؤلاء .

كان ذلك يوم قررت الجامعة المصرية ايفاده الى باريس في اليوم الثاني من شهر آب – اغسطس – ١٩١٤ ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الاولى قد حال دون سفره في الموعد المقرر .. فتأجل هذا السفر ثلاثة اشهر ولكن الى مدينة مونبلييه(٢) . وهي المدينة التي سوف تلعب في حياته دوراً كبيراً لم يقتصر على مناحي دراسته العالية .. بل حياته الخاصة(٣) ايضاً .

---

(١) انظر : طه حسين – مع أبي العلاء في سجنه دار المعارف بمصر – ١٩٦٣ ص ١٢ – ١٣ و ص ١٨٧ .

(٢) مدينة مونبلييه Montpellier : تقع على بعد ٧٤٦ كم عن العاصمة باريس . (٩٧٥٠٠ نسمة) أشهر ما فيها أكاديمية ، جامعة ، مدارس وطنية للزراعة والكيمياء ، كاتدرائية سان بيير ، فنادق قديمة ، « حدائق علمية » تستخدم لتعليم علم النبات .

(٣) نقصد حياته الزوجية . ذلك أنه تعرف على زوجته السيدة سوزان في مونبلييه وليس في باريس كما ذكر « سامي الكيالي » في كتابه « مع طه حسين » سلسلة اقرأ رقم ٣٧٥ / دار المعارف بمصر ١٩٧٣ ص ٣١ – ٣٢ .. ولمن دواعي الاستغراب أن يورد الكاتب نفسه نصاً لطه حسين وهو يسرد قصة حبه وزواجه وفي هذه القصة يذكر طه ان سوزان من مدينة مونبلييه (ص ٣٤ من نفس الكتاب !) . راجع ايضاً كتاب د . جمال الدين الرمادي – من أعلام الادب العربي المعاصر – القاهرة / دار الفكر العربي / ؟ ص ٨ – ٩ . مما يذكر ان طه حسين تعلم على سوزان الفرنسية واللاتينية ، ومعها درس اليونانية .

ونختم هذه الاشارة بمدى الحب والسعادة اللذين نعم بهما الكاتب في حياته الخاصة وقد سمى زوجته بـ « الملك » الذي « بدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً » . انظر (الايام ج ١ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص ١٥٢) وانظر كذلك (طه حسين – مع المتنبي – ص ٥) .

دامت اقامة الكاتب في مونبلييه عشرة أشهر اختلف خلالها الى دروس اللغة الفرنسية ، وعلم النفس — على يد الاستاذ فوكو — والأدب الفرنسي .. وكذا على دروس التاريخ الحديث ..

واذا تابعنا اطراد سيرة طه حسين من خلال علاقته بهذه الثقافة — وهو اطراد نريد أن نمر به مسرعين لا مهملين ولا متوقفين — نجد أنه قد عاد الى القاهرة في ايلول — سبتمبر — ١٩١٥ بعدما دعي تحت ضغط ماسمي بافلاس الجامعة المصرية ، ليمكث فيها اربعة اشهر .. ثم ليعود ثانية الى فرنسا .. الى باريس هذه المرة .

والمرة الثالثة يتابع دروس اللغة الفرنسية فضلا عن اللغتين اليونانية واللاتينية ، كما يحضر دروس التاريخ اليوناني على يد جلوتز Glotz ، والتاريخ الروماني على يد بلوك Block والتاريخ الحديث على يد سينيوبو Seignobos ، والعصور الوسطى على شارل ديل Diehl ، والادب الفرنسي على جوستاف لانسون Lanson (١) ، ومحاضرات عن فلسفة ديكارت على يد ليفي برول Levy - Brühl (٢) ، فضلا عن دروس علم الاجتماع على يد إميل دركهايم . Durkeim ومن ثم على يد سيلستان بوجليه Bouglé ، واخيرا تفسير القرآن على يد كازانوفا Casanova .

أنجز طه حسين في باريس درجة الليسانس في الآداب من السوربون ، ودرجة الدكتوراه في الآداب عن أطروحة (٣) حول الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون ، فدبلوم في الدراسات العليا في التاريخ القديم (١٩١٧ — ١٩١٩) .

---

(١) لانسون : أستاذ في الادب الفرنسي (١٨٥٧ — ١٩٣٤) عرف بميوله نحو تطبيق المناهج العلمية في الدراسات الادبية . له من المؤلفات : تاريخ الادب الفرنسي (باريس ١٨٩٤) ، ومختارات من الادب الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر (باريس ١٨٩٠) ، مبادىء الانشاء والأسلوب ، وتوجيهات حول فن الكتابة (باريس ١٨٨٧) .. اهتم كثيراً — في مجال النقد الادبي — بالبحث عن فردية الاثر الفني .

(٢) ليفي — برول : فيلسوف فرنسي (١٨٥٧ — ١٩٣٩) اشتهر بدراساته حول العقلية البدائية وفي تحليل الافكار الاخلاقية من حيث منشأ هذه الافكار ، وتطورها ، ودورها التاريخي .

(٣) عنوان الاطروحة كما ورد في المكتبة الوطنية ومكتبة سانت جنفييف في باريس :

الى هذا العام تنتهي اقامة طه حسين الدراسية في فرنسا .. والى هذا العام أيضا تنتهي مرحلة « التتلمذ » التي قضى بها الكاتب ثلاثين عاما لم يجلس بعدها — فيما نعلم — مجلس التلميذ من أحد قط . بل قضى ثلاثة وثلاثين عاما أخر بين استاذ في الجامعة، أو عميد لكلية الآداب ، او وزير للمعارف ، أو رئيس تحرير صحيفة سيارة .. وعشرون عاما اخرى قضاها الكاتب في عزلة أو ما يشبه العزلة ويكتب بقية ايامه(١) .

Etude analytique et critique de la Philosophie sociale D Ibn khal doun .

راجع رقم المكتبة الاول (8 . R . 28731) . ورقم الاطروحة في المكتبة الثانية : (o 8 . 20 . 337 . q3 . oss)

وقد ترجمها محمد عبد الله عنان الى العربية بعنوان « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» مطبعة الاعتماد بالقاهرة — ط١ — ١٩٥٢ وهي تقع في (١٧٥ صفحة) .

(١) نشر الجزء الاول من الايام في مجلة الهلال م ٣٥ ج ٢ ص ١٦١ — ١٦٨ .

وفي م ٣٥ ج ٣ ص ٢٨٩ — ٢٩٤ . وفي م ٣٥ ج ٤ ص ٤١٧ — ٤٢٤ .

وفي م ٣٥ ج ٥ ص ٥٥٩ — ٥٦٦ . وفي م ٣٥ ج ٦ ص ٧١٣ — ٧١٧ .

ونشر الجزء الثاني منه عام ١٩٣٩ . وأعادت طبعه دار المعارف عام ١٩٥٦ .

ومرة أخرى بجزئيه عام ١٩٦٤ .. أما الجزء الثالث فقد نشر عام ١٩٧٣ .

ترجم الجزء الاول من الايام الى الانكليزية على يد E. H. Pa xion (١٩٣٢)

ترجم الجزءان الاول والثاني الى الفرنسية على يد T. Le cerf (١٩٣٤)

وعلى يد Gaston wiet

ترجم الجزءان الاول والثاني الى الروسية على يد Krackovsky

ترجم الجزء الاول الى العبرية على يد Kabiluk Atamara

ترجم الجزء الاول الى الصينية على يد Tsinin Tin

(انظر : مجلة الطليعة — السنة العاشرة — يناير ١٩٧٤ . ص ١٧٧)

وترجم الجزء الاول من الايام الى اللغتين الالمانية والتركية والفارسية : دون تحديد المترجمين . أو عام الترجمة . (انظر المصدر السابق وكذلك : مجلة الاسبوع العربي ع ٦٤٥ السنة ١٣ — الاثنين ١٨—١٠—١٩٧١ ص ٨١) .

ثانياً ـ طه حسين والتيارات الفلسفية في فرنسا

عندما حل طه نفسه الى فرنسا في مطلع القرن العشرين كانت بلاد أوروبية اخرى قد أخذت منها زمام المبادرة في قيادة الفكر الفلسفي الأوروبي لترمي بثقلها على الفكر الانساني من اقصاه الى اقصاه . وهكذا كان الانعطاف التاريخي في ميداني الفلسفة والعلم على يد المفكر الألماني (كارل ماركس (١)) ومواطنه (فريدريك نيتشة (٢)).. وزميلهما النمساوي (سيغموند فرويد (٣)) .

وكانت القارة الأوروبية قد زعمت فرنسا قيادة الفكر الفلسفي منذ صعد (رينيه ديكارت (٤)) على المسرح ، في الربع الثاني من القرن السابع عشر . ولم يتوقف تأثيره على امتداد هذا القرن بل استمر الى القرن الذي يليه حيث كانت التيارات الفلسفية بمثابة استمرار لـ « الديكارتية » من حيث اعتماد الشك سبيلاً منهجياً للوصول الى المعرفة

---

(١) كارل ماركس marx فيلسوف وعالم اقتصادي اشتراكي الماني (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣) . ألف مع زميله انجلز بيان الحزب الشيوعي .. أشهر مؤلفاته « رأس المال » ١٧٦٠ . أول زعيم فكري للحركة الشيوعية .

(٢) فريدريك نيتشة Nietzsché فيلسوف ألماني (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) . يؤمن بقدرة الانسان .. يضع نظرية الانسان ـ الأعلى (السوبرمان) . عرض مذهبه في (هكذا تكلم زرادشت) : الانسان عنده هو كل شيء في الوجود .

(٣) سيغموند فرويد Freud هو عالم النفس النمساوي المشهور (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) : مؤسس علم النفس التحليلي الذي يرى في البحث عن الحالات النفسية الجنسية التي ترسبت في اللاشعور الفرد .. عاملاً نحو علاج حالاته العصبية . هذا ويعود اكتشاف (اللاشعور) الى فرويد نفسه .

(٤) رينيه ديكارت Descartes فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) : طاف كعسكري في أوروبا عام ١٩٢٩ ، ثم أقام في هولندا عشرين عاماً ، تخللها رحلة واحدة الى الدانمارك وثلاث رحلات الى فرنسا . يعود اليه ابتكار (علم الهندسة التحليلية) واكتشاف مبادىء (المنظار الهندسي) . أشهر كتبه « طريقة المنهج » ١٦٣٧ ، « تأملات ميتافيزيقية » ١٦٤١ ، « مبادىء الفلسفة » ١٦٤٤ و « معالجة أهواء النفس » ١٦٥٠ .

مع كل تحرر من الهيمنات والترسبات الدينية وغير الدينية . فضلاً عن ميل هذا القرن الى استعارة طرق البحث العلمي مااتصل منها بالملاحظة أو بالتجربة .

وقد ادى هذا الميل فيما أدى ـ فيما يعرف المهتمون بالفلسفة ـ الى ظهور مذاهب دعيت بالحسية حيث أجرت نقداً جذرياً لمصادر المعرفة متنكرة لكل ماهو فطري ،غير معتمدة الا كل ماهو حسي .. ومن هذه المذاهب ـ على سبيل الأولوية والمثال لاالحصر ـ مذاهب جون لوك(١) ، وجورج بركلي(٢) ، ودافيد هيوم(٣) في انكلترا ، وكوندياك (٤) وديدرو(٥) ـ الى حد ما ـ في فرنسا .

وتبع ذلك فيما يتبع حركة الفكر ـ كما يعلمنا تاريخ كل حركة فكرية ـ حركة نقدية واسعة شملت مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية . .وهو النقد الذي ادى بدوره الى ظهور نظريات المذاهب الديموقراطية التي كانت في حد ذاتها تمهيداً للثورة الفرنسية(٦) .

(١) جون لوك Locke فيلسوف انكليزي (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) يقوم مذهبه على رفض الأفكار الفطرية معتبراً أن المصدر الوحيد لأفكارنا ومعارفنا هو التجربة . أشهر كتبه « محاولة في الفهم الانساني » .

(٢) جورج بركلي Berkeley فيلسوف ايرلندي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣)يسير في نفس الاتجاه العام للمدرسة الحسية .

(٣) دافيد هيوم Hume فيلسوف ومؤرخ انكليزي (١٧١١ ـ ١٧٧٦) واضع أساس الفلسفة الظواهرية . أشهر مؤلفاته « محاولة ـ جديدة ـ في الفهم الانساني » .

(٤) كوندياك Condaillac فيلسوف فرنسي (١٧١٥ ـ ١٨٧٠) زعيم المدرسة الحسية في فرنسا أشهر مؤلفاته « بحث في الاحساسات وفي المنطق » .

(٥) ديدرو Diderot فيلسوف فرنسي (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) مؤسس « الموسوعة » (١٧٥١) ألف روايات ذات طابع فلسفي اهتم كثيراً بالمسرح حيث ابتكر قواعد لمسرح درامي جديد . مادي وملحد . أثر كثيراً في أقطار القرن الثامن عشر . انظر :

Collection Litteraire : Legarde Et Michard
(Xvlll) . France 1970 صفحة ١٩٣ ـ ٢٢٤

(٦) انظر Encyclopedie Weber.
(Penseé . صفحة ٢٠٦)

ويطل القرن التاسع عشر على أوروبا وهي تقطف – قبل أن يفدها طه حسين بقرن – ثمار هذه الثورة العارمة ! ومباوصول الطبقة البورجوازية الى الحكم ،وحركة التصنيع التي رافقت ذلك . . ومن ثم وقوع النظام الاجتماعي في تناقضاته الحتمية مما استدعى « اعادة نظر » ليس في منطلقات هذا النظام وسواه من الأنظمة الاجتماعية وبالتالي السيطرة عليها . وتوجيهها توجيهاً أيدلوجياً فحسب . . . بل في مفهوم الانسان وأصله ومنشئه

ولاريب في أن فرنسا كانت في الساحة الفلسفية هذه ممثة بـ « كونت(١) » ، و « فوريبه(٢) » ، و « سان سيمون(٣) » ، و « برودون(٤) » . كما مثلت ألمانيا بـ « هيجل(٥) » وانكلترا بـ « داروين(٦) » .

ولعل الأسس الرئيسية التي ترتكز عليها فلسفات هؤلاء جميعاً – اذا صح هذا

(١) (أوغست كونت Comt فيلسوف فرنسي (١٧٩٨-١٨٥٧) مؤسس التيار الموضوعي في الفلسفة الحديثة . تعتبر محاضراته في هذا الصدد أحد المؤلفات الكبار في القرن التاسع عشر .

هدف فيا هدف الى انشاء دين جديد للانسانية كافة .

(٢) شارل فوريه Fourier فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي (١٧٧٢ – ١٨٣٧) تقوم نظريته – التي تحمل اسمه – الى تجمع انتاجي يعيش من العمال عيشة مشتركة .

(٣) سان سيمون .. سوف نتحدث عنه بالتفصيل فيا بعد .

(٤) برودون Proudhon فيلسوف افرنسي (١٨٠٩ – ١٨٦٥) . أحد كبار علماء الاجتماع في القرن التاسع‌عشر . الملكية عنده سرقة . يدعو الى ثورة اجتماعية للمحافظة على المساواة بين الأفراد وكذلك للحفاظ على حريتهم .

(٥) هيجل Hegel فيلسوف ألماني (١٧٧٠ – ١٨٣١) صاحب المدرسة المثالية المشهورة في الفلسفة الحديثة ، حيث الفكر مركز الثقل لا المادة .

(٦) داروين Darwin عالم أحياء انكليزي (١٨٠٩ – ١٨٨٢) شهر بنظرية أصل الانسان وصراع البقاء .. (١٨٥٩) يعود بأصل الانسان علمياً الى بعض سلالات الحيوانات .

الجمع — تعود الى الثقة بالعقل . وبالعلم وبتجاربه ، وفي اعادة النظر في الانسان ، وفي علاقاته مع الوسط الاجتماعي وبالتالي السياسي الحاكم ، وهي أسس لا تهدف فقط الى البحث عن الحقائق بل الى توفير جو السعادة والعدالة لهذا الانسان . كيفما كان السبيل الى ذلك دعوة ، أو اصلاحاً ، أو ثورة .

ولم يكن طه حسين قط بعيداً عن بعض هذه الأسس في منطلقات دراساته وابحاثه كما سيتبين معنا في سياق هـذا المقال . ونسرع هنا قبل أن تشغلنا ثنايا البحث الى الاشارة الى ما كان للثورة الفرنسية من أثر مباشر انعكس على فكر طه حسين وأدبه .. اشارة نريدها بقيمة دليل على انعكاس الحيـاة السياسية والفكرية في فرنسا ، على هذا الاديب .

يرجع طه حسين مصدر الثورات السياسية — لا الى الظلم الاجتماعي أو الى النفور من حكم الاقطاعيين او البورجوازيين او الى تطلعات طبقات الشعب العـامة الى الاستيلاء على السلطة بغية تغيير الدفة ، بقدر مـا هو — الى الادب والادباء (١) . فهؤلاء يحلمون، وقد يخططون في احلامهم وينقدون ، وتأتي الثورة لتصنع هذه الاحلام- وفق خطط ومناهج وتنفيذ على ثوري — موضع التنفيذ . فاذا بالأدب باعث الفكرة وإذا بالمنظمة العسكرية ، منتظمة كانت أم شعبية ، منقذتها . بل لعل استمرار الثورة في تطوير النظم الاجتماعية وتحديثها لما فيه صالح المجتمع — الذي من أجله قامت الثورة — ما هو — في منشأ الأمر — الا بوحي جديد وبتحقيق آخر لاحلام الأدب والادباء .

وبالمقابل فان الثورة تعكس خطورتها وطبيعتها التغييرية الانقلابيـة في وعلى الأدب .. فينشأ — مع مرور الزمن — أدب يمكن أن يدعى — بعد ان يستكمل عناصر نموه الخاصة — أدباً ثورياً (٢) . وهذا يعني أن هـذه الثورة مهما تكن بالغة الاثر في حياة الافراد والجماعات لا تغير الادب فجأة ولا تحول طبيعة الفن دفعة واحدة .. بل كل يجري من خلال نموه وتطوره الخاص الذي لا محيص عنه .

صفوة القول ان الادب يثور (٣) — عند طه حسين — قبـل أن تثور

(١) انظر طه حسين ـ خصام ونقد بيروت / ط ٥ / ١٩٦٩ ص ٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩

(٣) يمكن ان نضيف اليه الفكر أيضاً .

السياسة . . كما يثور بعدهـا . الثورة تمهد لثورة السياسيين والعسكريين . والثانيـة لتصور (١) — ما قامت — وما يجب ان تقوم به — الثورة الفعلية . . ولعل الامر لا يتوقف عند هذا الحد بل يسير في ديالكتيكية جديدة .

* * *

آ ــ طه حسين وديكارت

لاتعود شهرة ديكارت باعتباره ــ تاريخيـاً — أول فيلسوف في العصر الحديث. نظراً لتقويضه دعائم البناء الأرسطي الشاهق فحسب ، بل الى هذا المنهج الذي حمل اسمه. والذي كان أحد المعاول التي هدم به ذاك البناء .

ولعل الأسس التي يقوم عليها اعجاب طه حسين بهذا الفيلسوف الفرنسي يتجـلى. استناداً الى الأمور التالية :

أ — ان ديكارت في الوقت الذي يبدو — من خلال ابحاثه العلمية — مفكراً مادياً، فانه يبدو بالمقابل مفكراً مثالياً حين يتعرض للقضايا الفلسفية الميتافيزيائية وتستطيع أن نذهب الى القول بأن هذه « المثالية (٢) » . قد ساهمت في توجيه النقد من حيث. ارجاع كل وجود الى الفكر ، ولم يكن طه حسين — فيما نعلم — مادياً إلا عندما كان يحاول تفسير التاريخ .

٢ — ان ديكارت الذي عكف ذات ليلة باردة من ليالي الشتاء على وضـع منهج جديد للوصول الى الحقيقة الخالصـة عندما تخلى ، ولمرة واحدة ، عن كافة المعتقدات والمعارف المكتسبة التي تكونت لديه ،ليفيد من جديد انشاء جميع نظم هذه وتلك مبتدئاً من اساسها . . وقد توصل الى وضع مبدئه المشهور باسم « الكوجيتو(٣) الديكارتي »: « أنا أفكر . اذن أنا موجود . . وهو الذي يعني — أن الانسان له تفكيره الخاص ،ومن

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ — ١٠٥

(٢) انظر Vocapulaire Technieue Et CrtieuE De La Philosophie par Anoré Lalande . daris - 1966 صفحة ٤٣٥ — ٤٤٤ .

(٣) الكوجيتو Cogito كلمة لاتينية تعني : أفكر Je pense .

ثم وجوده الخاص . ان هذا المبدأ قد وجد صداه لدى طه حسين من حيث انه ضرب مثلاً على امكانية التخلي – ولو لمرة واحدة – عن المعارف المكتسبة لدى الانسان ، وهو ماسيلعب لديه دوراً له أهميته في دراسة تاريخ الأدب العربي بدءاً من « جاهليته » .

ان ديكارت قد رفض التسليم بكل معتقداته السابقة مهما كانت « جنسيتها » و « القضية » التي تنتمي اليها . منطلقاً مما يمكن دعوته « نقطة الصفر » . . أي بالعودة الى اساس هذه المعتقدات وتلك المعارف لقبول ما يمكن قبوله . . ورفض ما يرفض منه .

٤ – وينتج من هذا المنهج من وضع المعتقدات الدينية بين قوسين .. ذلك انها فقدت دفعة واحدة كل القدسية التي تستمدها من كونها كذلك . . واصبحت بالتالي على مستوى واحد مع كل معرفة او معتقد آخر ادبي أو علمي . وهذا يعني انها قابلة لأن تخضع لعملية « التصفية » هذه . ولعل في تجربة طه حسين من الازهر (١) ودروسه وشيوخه ما يعطي مؤشراً على اهمية هذا « الاصغاء » منه لديكارت وذلك عندمايطرح مثل هذا الطرح في ما يتعلق بأسس العقيدة الاسلامية . بل لشروحاتها وتفاسيرها . . وشروح الشروح .. وتفاسير التفاسير .

٥ – ان هذا يعني ، فيما اذا اريد له ان يطبق على تراث ما ، ان يلجأ الباحث الى ما يمكن دعوته ، اعادة نظر « شاملة تجعل منه ليس باحثاً مجدداً فحسب بل باحثاً فريداً في تاريخ الامة التي ينتمي اليها هذا التراث . . ولا غرو في ان مهمة كهذه تتطلب دراسات متعمقة في كافة نواحي تلك المعرفة وذلك التراث .

ويبدو ان صورة هذا الباحث المجدد الفريد قد داعبت خيال طه حسين . .

فالتقت في البداية مع ما كان اساتذة ومعلمون آخرون قد أوحوا اليه به عبر مؤلفاتهم .. من ذلك الطبري (٢) الذي اهتم بدراسة الروايات الى أصحابها مركزاً على

---

(١) انظر : طه حسين . أديب . ص ٤٠

طه حسين – نقد وأصلاح – ص ٢٢٣ – ٢٨٠

طه حسين – من تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٠٥ و ص ١٠٩ – ١١٠

(٢) راجع مقال د . محمود اسماعيل « طه حسين ، مؤرخ صدر الاسلام » مجلة الطليعة – القاهرة – عدد كانون الثاني – ديسمبر – ١٩٧٣ ص ١٥٦ .

امانتها العلميـة ، و « البلاذري » الذي يتحرى الصدق وينقد المصادر التي يأتي على ذكرها في متن أبحاثه ، و « المسعودي » الذي كان ينظر الى الامور نظرة محيطة فيعالج النواحي الاجتماعية والاقتصادية الى جانب التاريخ السياسي .

ولعلنا نضيف الى « الطبري» و« البلاذري » و« المسعودي » « ابن خلدون (١) » الذي منح طه حسين — فيما منحـه — منظاراً يرى من خلاله التاريخ : أعني تاريـخ أسباب ونتائج لاتاريخ حوادث وحروب . تاريخ بحث وتحقيق لاتاريـخ قص وسرد . واخيراً تاريخ استقراء واستنتاج لاتاريخ نقل وتلخيص .

ساهمت هذه الخطوط العريضةمع منهجديكارت القائم على الشك المنهجي فيتشجيع طه حسين لوضـع تلك « الصورة » التي داعبت خياله . . والمتمثلة بمشروع « اعـادة النظر » في التراث العربي موضع التنقيد .

وهكذا اصدر كتابه « في الشعر الجاهلي(٢) » الذيأحدث ضجة هائلة فيصفوف الخاصة مسؤولين ونواباً . . كما في صفوف العامة كتاباً وقراء على السواء . وهـو كتاب يعتمد أول مايعتمد على مبادىء ديكارت .

يقول الكاتب « أريد الا نقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه الا بعـد بحث وتثبت ان لم ينتهيا الى اليقين فقدينتهيان الى الرجحان . والفرق بين هذين المذهبين

(١) ابن خلدون : مؤرخ عربي ولد في تونس (١٣٣٢ — ١٤٠٦) . أسس علم العمران السابق على علم الاجتماع بقرون أربعة على الأقل .. اشتهر بـ « مقدمته » التي عرض فيها فلسفته في التاريخ انظر :

Encyclopebie De L Islam
Ipn Khaldûn . : مادة

(٢) صدر كتاب (في الشعر الجاهلي) عن دار الكتب المصرية (١٩٢٦) ، ونظراً لما أثاره من ضجة دينية وسياسية فقد سحب من السوق . ثم أعيدت طباعته بعد أن حذف منه فصل وأضيفت إليه فصول ، فصدر تحت إسم (في الأدب الجاهلي) عن مطبعة الاعتماد بالقاهرة (١٩٢٧) ؛ وطبـع ثانيه لدى دار المعارف بمصر (١٩٥٨). والكتاب خلاصة ما كان يلقي من محاضرات على طلاب السنتين الأولى والثانية في كليـة الآداب بالجامعة المصرية .

في البحث العظيم . فهو الفرق بين الايمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضى ، والشك الذي يبعث على الاضطراب ، وينتهي في كثير من الأحيان الى الانكار والجحود . المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لاينساله بتغيير ولاتبديل ، ولايمسه في جملته وتفصيله الا مساً رفيقاً . .أما المذهب الاخر فيقلب العلم القديم رأسا على عقب ،وأخشى ان لم يمح كثره ان يمحو منه شيئا كثيراً (١) .

ويعترف طه حسين فيما بعد بأن النتائج اللازمة لهذا المذهب جلية الخطر فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى أي شيء آخر . . إذ تصل الى الشك فيما كان الناس يرونه يقيناً ، والى انكار ما اجمع الناس على انه حق لا مراء فيه .٫

أرأيت الى اي حد « يصغي » طه حسين الى ديكارت . . يصغي الى افكاره . . ومبادئه .. فيتخذ من الكتاب مجالاً لتطبيق هذا الشك المنهجي .. وذلك المنهج النقدي التاريخي الذي سبق للغرب تطبيقه لديه (٢) .

ولا يخص الكاتب نفسه عن قرائه .. وليس هذا قط من طبعه . . فيذكر هؤلاء بكل بيان ووضوح استعارته لمذهب « ديكارت » . يقول :

أريد أن أصطنع في الأدب هـذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث .. وهكذا ينهض طه ليصعد المنبر يخاطب

(١) طه حسين ، من تاريخ الادب العربي ج ١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت / ١٩٧٠ نتجز فرصة ايراد اسم هذا المؤلف كمصدر . لانعرب للاستاذ شكري فيصل وفريق العمل الذي انتدبه وتعاون معه لجمع آثار طه حسين حسب موضوعات هـذه الآثار لا حسب تواريخ نشرها عن جليل الفائدة التي يجنيها الباحث من هذا الجمع المادي ـ ان صحت النسبة ـ ، وبالتالي عن ارسال تحية شكر وتقدير ، هو وفريقه في غنى عنها ... ولكن لنتمنى عليهم معاً أن يتداركوا نقصاً ـ في طبعات قادمة ـ لم يسوا عنه لما تجاوزوه وهو ذكر مواطن وتواريخ نشر ـ كافة وليس بعض ـ هذه الآثار كي لا يخض على الباحث المدقق هذا الجانب الزمني من تطور الكاتب ـ والمفكر .

(٢) انظر André miruel : La Litterature Arabe . (Que Sais - Je ? N o 1355) , Paris - 1969 صفحة ١٠٣

الناس كما خاطبهم من قبل « الحجاج بن يوسف الثقفي » في مساجد الكوفة ! « يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية » ويختم « الخطيب » « خطبته بقوله : أيها الناس « يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء الا لمناهج البحث العلمي الصحيح » (١) .

ولكن مثل هذا « الدرس » يلقى من فوق منبر المحافظين في مصر — ساسة ومدرسين ، بحالة ومحاضرين — قد استتبع — كما أعلنا — موجة من النقد (٢) حركت السوق الادبية من ناحية ، ووضعت الكاتب في قفص الاتهام من ناحية أخرى .

ومن بين النقاط الهامة التي تستحق التسجيل في هذا المقال . . تلك « الثورة »

(١) النصوص في : طه حسين ـ من تاريخ الأدب العربي ط ١ بيروت / ١٩٧٠ ، ص ٨٥ .

(٢) صدر في نقد أو في نقض أو مهاجمة أو تحليل كتاب (في الشعر الجاهلي) الكتب التالية :

١ ـ الشعر الجاهلي والرد عليه	محمد حسين
٢ ـ تحت راية القرآن	مصطفى صادق الرافعي
٣ ـ نقض كتاب في الشعر الجاهلي	محمد فريد وجدي
٤ ـ نقد كتاب في الشعر الجاهلي	محمد أحمد الغ راوي
(راجع هنا بشكل خاص مقدمة الكتاب للأمير شكيب أرسلان)	
٥ ـ الشباب الراصد	محمد لطفي جمعة
٦ ـ نقض مطاعن في القرآن الكريم	محمد أحمد عرفة
٧ ـ محاضرات في بيان الاخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي	الشيخ محمد الخضيري

وانظر أيضاً :

آ ـ الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية انور الجندي .

ب ـ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث انيس الخوري المقدسي

التي نادى بها طه حسين على « القيود والحدود » التي تحد من حرية الكاتب . وهي ثورة مستوحاة — قبل كل شيء آخر — من هذا الكسر للقيد الارسطي الذي تم على يدي « ديكارت » وهكذا اراد كاتبنا أن « يثور » على هذه « المقاييس الادبية » التي سنها المعلم الاول اليوناني(١) — كما ثار عليها من قبل كورني(٢) وراسين(٣) ومريدوهما في القرن السابع عشر — وذلك بطرح مبدأ « الحرية في الادب » طرحا جديا .

وهذه الحرية « لاتؤمن بالقواعد الموضوعة والحدود المرسومة » بل يكون الاثر الادبي هو ذلك النتاج « يتجه الكاتب أو الشاعر كما استطاع ان ينتجه » دون أن يرضخ لامر اللهم « الا هذه القيود والحدود التي يفرضها على الاديب مزاجه الخاص وفنه الخاص وهذه الظروف التي تحيط بمزاجه وفنه فتصور أثره الادبي في الصورة التي يخرجه فيها للناس »(٤) .

هذا ويعطي الكاتب في مواطن اخرى من كتبه جوانب جديدة لمفهوم الحرية لا

(١) أرسطو : فيلسوف يوناني قديم (٣٨٤ — ٣٢٢ قبل الميلاد) خضع العصر الوسيط لمبادئه « وتعاليمه » في مجال الادب ، والعلوم ، والفلسفة وكافة مناحي المعرفة .. ولمزيد من التفصيل في أثره في مجال الآداب وبخاصة النقد الادبي انظر :

R. Bray. «Paris - 1966 » .
Formation De La Doctrine Classi Que .

وكذلك :

H. Peyre : Qu' Est - Ce Que Le Classicisme .
« Paris - 1971 »

(٢) كورني Corneille [شاعر درامي فرنسي (١٦٠٦ — ١٦٨٤) اتجه نحو المسرح كسر القيود الأرسطية .. فأسس المسرح الكلاسيكي . له : (هوراس ١٦٤٠) ، الكاذب ١٦٤٣) (أوبيد ١٦٥٩) ...

(٣) راسين Racine شاعر تراجيدي فرنسي (١٦٣٩ — ١٦٩٩) يبحث في المسرح عن مواقف واضحة وبسيطة ـ بعكس (كورني) الذي يبحث عن مواقف معقدة يبرهن من خلالها الابطال على نوعية انسانية خارقة .

(٤) — طه حسين فصول في الادب والنقد — دار المعارف بمصر / ؟ ص ٤٥ .. (الف الكاتب هذا الكتاب عام ١٩٤٥) .

تقل أهمية عن سابقاتها .. فمنها ما يتصل بتحرير الأدب من أي تقديس ديني كان أم غير ديني بحيث « يخضع للبحث والنقد والتحليل والشك والرفض والانكار » (١) شأنه في ذلك شأن اي انتاج فكري انساني . ولكي يكون الادب حراً .. لا بد أن يكون الاديب — قبل وبعد أي شيء آخر — حراً .

وحرية الاديب هذه قد تتجلى فيا تتجلى — بالشذوذ والانفراد والامتياز والخروج على ما ألف المجموع من القيود (٢) . وهي حرية يجب أن « تكفلها » الجماعة فلا تضمر للاديب شراً أو ضغينة ، ولا كيداً أو هواناً . ولعل هذه « الكفالة » هي شرط من شروط المجتمع المتحضر • وهو مجتمع لا يهدي الحريات لأحد، رغم انه يمنحها ذلك ان الاديب الحق حر بطبعه ، لا ينتظر ان تهدى اليه الحرية من أحد غيره » وهذا يعني بالضرورة أن هذه الحرية « تولد معه يوم يولد ، وتنمو معه حين ينمو ، وتصحبه منذ يدخل الحياة الى ان يخرج منها (٣) .

* * *

ولا نود ان نختم هذه الفقرة عن هذه العلاقة بين طه حسين وديكارت دون أن نشير — بكثير من الاستغراب والاستفهام — الى « تطورها » بينهما .. واتخاذها وجهة أخرى ! !

ففي الوقت الذي كان الكاتب العربي يمتدح منهج الفيلسوف الفرنسي داعياً إياه بأنه من « أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثراً .. جود العلم والفلسفة تجديداً .. وغير مذاهب الادباء في أدبهم والفنانين في فنونهم ... » نراه يقول بعد عشر سنوات ، أي في عام ١٩٣٥ .. للرجل نوعان من الفلسفة ، أحدهما سخيف ضعيف هو الذي اعتمدت عليه في كتاب الشعر الجاهلي ، لاني لست من أهل التصوف ولا القادرين على الشطح والنطح (! !) ، والآخر قيم ممتع ، خصب لذيذ ، يلتمس في كتاب الحلاج ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الديار بي وخمس المعارف الكبرى ، وفي رسالة صغيرة توجد

---

(١) طه حسين — من تاريخ الادب العربي — دار العلم للملايين / بيروت ١٩٦٩ ط ١٠ ص ٥٦ .

(٢) طه حسين — مرآة الضمير الحديث — بيروت / ط ٢ ١٩٥٣ ص ١١٧ .

(٣) طه حسين — خصام ونقد — بيروت / ط ٥ ١٩٦٩ .

في مكتبة الاستاذ الجليل أحمد زكي باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة فينومة(١)]

ولعلها كانت المرة الاولى والاخيرة التي يشطح فيها طه حسين وينطح ! . ؛ وليس غريباً ان كانت بداية الشطح هكذا أن تستمر الى مافيه غاية التطرف، ومنتهى المبالغة .

ذلك انه يدعي توصله الى « نتائج غريبة قيمة » لو أعلنها في فرنسا « لاندكت لها السوربون(٢) ، ولاضطربت لها الكوليج دوفرانس(٣) ولاعلن لها المجمع العلمي الفرنسي (٥٦) إفلاسه » !!! ومن هذه النتائج الجديدة المذهلة أن ديكارت « لم يكن مسيحياً ولا فيلسوفاً ولا من أصحاب التجديد ، ولا من أنصار هذه الحقائق الثابتة

---

(١) طه حسين – من بعيد – ص ٢٨٩

(٢) جامعة السوربون La Sorbonne جاءت هذه المؤسسة العلمية اسم مؤسسها الاول (روبير دو سوربون) يوم كان هدفها تسهيل دراسة الطلاب الفقراء العلوم اللاهوتية . وقد أصبحت منذ عام ١٥٥٤ مركزاً معروفاً لهذه العلوم . أعاد تشييدها (ريشيليو) عام ١٦٢٦ . ضمت الى جامعة باريس عام ١٨٠٨ . أعيد بناؤوها مرة ثالثة بين عامي ١٨٤٤ و ١٩٠٠ . تعتبر الى اليوم من أشهر الجامعات العالمية في العلوم النظرية :

(٣) الكوليج دوفرانس Collège de France مؤسسة علمية انشئت في باريس خارجة عن جامعتها عام ١٥٢٩ من قبل (فرانسوا الاول) . تدرس حتى الآن مختلف الآداب والعلوم على يد أساتذة مختصين ذوي درجة كبيرة من الشهرة والاحترام والتقدير .. وهي تعتبر اليوم المؤسسة العلمية التي تفوق (السوربون) بحرية البحث التي تمنح لمدرسيها ومحاضريها .

(٤) أكاديمية باريس Academie De Paris يعود اسم اكاديمية ، كما هو معروف في تاريخ الفلسفة – الى تلك المدرسة الفلسفية التي أسسها افلاطون في حدائق (اكاديموس) حيث اكتسبت اسمها (القرن الرابع قبل الميلاد) . هذا وثمة خمسة أكاديميات في فرنسا اليوم هي التالية :

آ – الاكاديمية الفرنسية ، المؤسسة عام ١٦٣٥ وهي تتألف من / ٤٠ / عضواً . وهي تهتم بتأليف المعاجم .

ب – أكاديمية الآداب الجميلة : المؤسسة عام ١٩٦٣ وهي الاخرى تتألف من ٤٠ عضواً . تهتم بالتبحر في التاريخ والآثار .

التي ألفها الناس . وانما كان مسلماً ديانًا ، متصوفًا ، مغرقًا في التصوف ، شطاحاً مسرفًا في الشطح »(١) !! .

كانت هذه هي المرة الاولى والاخيرة – فيما نعلم – التي يذكر منهـا طه حسين ديكارت بهذه الاوصاف لفلسفته وبهذه النعوت لتفكيره وديانته ولا شك في أنه احتفظ له طوال حياته بكثير من التقدير والاحترام .

ب ـ طه حسين ودور كهايم

كان ذلك في الشهر الاخير من عام١٩١٥ عندما كان الطالب طه حسين يرتاد قاعة المحاضرات في كلية الآداب في جامعة باريس ليستمع الى « دوركهايم Durkheim(٢) » يلقي دروساً في علم الاجتماع . وبعد فترة قصيرة يوقع الاستاذ المحاضر على طلب يتقدم به الطالب المستمع يوافق فيه على الاشراف على رسالة جامعية يعدها هذا الاخير حول ابن خلدون .

= حـ – أكاديمية العلوم : المؤسسة عام ١٦٦٦ . وهي تتألف من ٦٦ عضواً فضلاً عن عضوين دائمين بصفة أمين مجمع . تهتم بالقضايا الرياضية والفيزيائية والكيميائية .

د – أكاديمية الفنون الجميلة : المؤسسة عام ١٧٩٥ . تتألف من ٤٠ عضواً بالاضافة الى أمين سر دائم . تهتم بأمور الفن من رسم وتصوير ونقش ونحت وموسيقى .

هـ – أكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية : المؤسسة عام ١٧٩٥ أيضاً . تتألف هي الأخرى من ٤٠ عضواً . تهتم بشؤون الفلسفة والسياسة والاقتصاد والقانون والتاريخ .

(١) طه حسين : من بعيد ص ٢٨٩ – ٣٠٨ حيث « القصة » كاملة .

(٢) دور كهايم : فيلسوف فرنسي (١٨٥٨ – ١٩١٧) كلف في بداية حياته الفعلية بدراسة علمية حول أحوال المجتمع في ألمانيا . فأنجز بحثاً كان له صدى واسعاً في عصره . كان أول مدرس لمادة علم الاجتماع الحديث . توفي أثناء وجود طه حسين في فرنسا الذي تأثر لهذه الوفاة كثيراً (انظر الجزء الثالث من الأيام) .

يعود الى دوركهايم الفضل في محـاولة فصل دراسة المجتمع كعلم مستقل عن علم النفس في عام ١٨٨٧ .. وكان المبرر له وللمشتغلين معـه من « المدرسة الاجتماعية الفرنسية » ضرورة دراسة الوقائع الاجتماعية من حيث هي كذلك..والبحث عن شرحها وتفسيرها بالالتجاء الى وقائع اجتماعية أخرى لا بالالتجاء الى علوم أخرى — كعلم النفس مثلاً — للبحث عن هذا الشرح أو ذاك التفسير .. وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، المناداة باستقلال تلك الوقائع الاجتماعية عن شعور الافراد .. مركز الثقل في العلم المشار اليه.

ونسرع الى التنويه هنا — مقاومين أي ضغط أو انجذاب أو إغراء نحو الدخول في التفاصيل — الى أن العـلاقة بين طه حسين وعلم النفس — أو على وجه الدقة ، علم النفس التحليلي — لم تكن وطيدة .. ان لم تقـل كانت سيئة للغاية .. ولسنا نستغرب — كنظرة أولى وسطحية — أن يكون الاصل في طبيعة هذه العلاقة ذلك « الاستقلال العلمي » الذي أعلنه دوركهايم عن علم النفس .. فضلاً عن منطلقاته النظرية المذهبية .

من ذلك أن طه حسين يود ان يميز دوماً بين علمـاء .. وأدباء فالاولون « لهم مذاهبهم في البحث ، يخطئون فيها ويصيبون ، وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب ، فتستقيم لهم حيناً ، وتخطئهم حيناً »(١) ، فأما الادباء فلهم مذهب آخر لا ينهج منهج الاكتشاف والاجتهاد العلميين..وعبثاً يحاولون تقليد هذا أو ذاك من العلم . أو العلماء ..

وهكذا يرى طه حسين ان ادباء عصره — ممن تناولوا هذا الشاعر أو ذاك بالتحليل النفسي — قد أسرفوا في تقدير هؤلاء الادباء وفي الحكم عليهم .. وكذا في إقحام مثل هذا العلم في النقد الادبي بغير حساب .. وهو إسراف يخرج بالادب عما يدعوه طه حسين بـ « ملاءمة الذوق » كما « يحول بينه وبين أخص ما يمتاز به هذا الادب من تحقيق المتعة الفنية للقلب والعقل جميعاً(٢) » .

ولمزيد من الدقة العلمية والايضاح السريع نقول ان طه حسين يرضى — عن غير ما طواعية — بتطبيق منهج عـلم النفس التحليلي على الادباء « المعاصرين » منهم لا « القدماء(٣) » . وله في ذلك حجة .. وهي ليست ، على كل حال ، واهية . ذلك أن

---

(١) طه حسين ـ خصام ونقد ـ دار العلم للملايين طه ـ بيروت /١٩٦٠ ص ٢٢٤
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

« السيرة الذاتية » لاولئك متوفرة مما يسهل مهمة الباحث — العلمي ؛ في حين أن هذه السيرة بالنسبة لهؤلاء — أعني الادباء القدماء — غير متوفرة على الصورة التي تسمح لذلك الباحث بالاطمئنان اليها والاعتماد عليها في بحث قد يقود الى نتائج بالغة الجدة والخطورة .

وهكذا يسخر طه حسين من دراسات نشرت حول أبي نواس(١) وسواه من شعراء العرب القدامى .. كما يسخر مسبقا من كل محاولة — من هذا القبيل — سوف تتصدى لفهم « سقراط » أو « افلاطون » او سواهما من فلاسفة اليونان الاقدمين او لدراسة « مسلم بن الوليد » او « أبي تمام(٢) » او غيرهما من شعراء العرب .. القدامى.

فاذا عدنا الى ذلك الأثر المباشر الذي ألقى « دوركهايم » بثقله على طه حسين ، فاننا نجد هذا الأخير يستعيد من الأول أفكاره ومبادئه استعارة واضحة لالبس فيها ولا غموض .. يوردها ثم يدافع عنها .

فاذا علمنا ان هذا المفكر الفرنسي من هؤلاء الذين يكرّسوا في القول بأن الفرد ظاهرة اجتماعية — إن لم يكن أولهم جميعاً ، فان زميله العربي يقول كذلك بأن الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية(٣) ، ودليله على ذلك ان هذا الفرد « لم يأت من لاشيء وانما جاء من أسرته أولاً ، ولم يكد يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية وصورته في صورتها ، وصاغته على مثالها ، وأخضعته لمؤثراتها التي لاتحصى(٤) » . فاذا ما اعترض معترض محتجاً بوجود بعض الافراد الذين يتميزون عن أقرانهم وأمثالهم .. كهؤلاء المبرزين في كافة نواحي المعرفة من آداب وعلوم وفنون .. فان طه حسين يجيبه بأن امتياز هذا الفرد يرد « في كثير من الاحيان الى الحياة الاجتماعية التي انشأته(٥) » .

ومن خلال هذه النظرة الى الفرد ، يرسم طه حسين هذه العلاقة بين الفرد المبدع،

(١) انظر : محمد النويهي: ثقافة الناقد الأدبي — بيروت ١٩٦٩ . (انظر ماكتبه المؤلف المذكور عن أبي نواس .. وما أنشأه كذلك عباس محمود العقاد ، وعبد الرحمن صدقي حول هذا الشاعر) .

(٢) طه حسين — خصام ونقد — دار العلم للملايين ط ٥ — بيروت/١٩٦٩ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) و (٤) و (٥) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

أديباً كان أم فناناً ، من جهة ، وبين مجتمعه من جهة أخرى . وهو من أجل وضع هذه العلاقة في إطارها الصحيح تجده يؤكد بأن « الاديب لايحس لنفسه وانما يحس للناس ؛ وهو لايشعر لنفسه وانما يشعر للناس ؛ وهو لايفكر لنفسه وانما يفكر للناس » وهكذا فالاديب بعبارة واحدة « لايعيش لنفسه وانما يعيش للناس(١) » . وهؤلاء ليسوا جماعة محدودة .. أو بعيدة عنه .. وانما هم يشكلون « البيئة التي يعيش فيها (٢) »

ولا بد لنا هنا من الاستطراد السريع لنشير الى ان طه حسين يدعو الى مايمكن ان ندعوه نحن بـ « الادب الملائم » من حيث ان الادب لايمكن إلا ان يكون « بطبعه ملائماً للبيئة التي ينشأ فيها(٣) » . فهي علاقة قائمة إذن شئن ومن خلال المجتمع ونسرع هنا لنبرىء الكاتب من ان يكون قد هدف من هذه الدعوة لادب ممالىء ، مداح، أوطبال بل إننا نجد — على النقيض تماماً — من ان الادب — من خلال هـذه الصيغة التي يضع طه حسين فيها « الاديب — في — المجتمع » سوف يبدو داعية « لإصلاح وتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شؤون الانسانية(٤) » تعبيراً يصدر عنه « صدور الضوء عن الشمس ، وصدور العبير عن الزهرة(٥) » . وفي هذا القول كما يبدو لنا واضحاً — وهذا هو موضوع استطرادنا — مخالفة بينة لمبادىء الماركسية من حيث أنها تدعو الادب لان يكون مسخراً لخدمة المجتمع . والفرق بين ان يكون الادب « بطبعه » معبراً عن تحسين حال الشعوب .. وأن « يسخر » لذلك فرق كبير .. وطه حسين ينكر هذا صراحة إذ يقول : « فأما ان يسخر الادب فيكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلاً من سبل التغيير في حياة الشعوب .. فهذا تفكير لاينبغي ان نساق إليه(٦) » .

وطالما أن الفرد — الظاهرة الاجتماعية — يعيش للناس ، ويحس لهم ، ويكتب لهم ، وطالما أن هذه الكتابة أو هذا الادب هما لصالح هؤلاء الناس . فذلك يعني — بعبارة أكثر دقة وأعم مضموناً — ان الادب اجتماعي بطبعه .. وبالتالي فان « الانتاج الادبي ظاهرة

(١) طه حسين ، أديب ، ص ٥ .
(٢) طه حسين ، خصام ونقد ، ص ٥٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٤) و (٥) و (٦) المصدر السابق ص ٥٩ .

اجتماعية (١) » يكون بمثابة الصدى لحياة المجتمع . فاذا حاولنا أن نستتبع النتائج التي تتولد من هذا المنطلق في التفكير الادبي ـ الاجتماعي ، أو من هذه الخلفيـــة الاجتماعية للأدب ، فاننا نرى ان طه حسين يميل الى « تظهير » الادب . بمعنى أنه يميل الى اعتباره « ظاهرة » مستقلة في حد ذاتها . كما اعتبر استاذه «دور كهايم » الفرد «ظاهرة اجتماعية» لها استقلالها الخاص .

وبعبارة أكثر وضوحاً ندرك ان طه حسين يتصدى للطريقة التي سلكتها المدرسة التقليدية في الاداب في تحديد العصور الادبية وتقديرها بالشهر والعام .. كما يصنع المؤرخون والسياسيون في توقيت الحوادث » وأسباب ذلك تعود الى أن هذه الظاهرة الادبية العامة تمتاز في نفسها بأنها « أشد ماتكون استعصاء على من يريد التدقيق في حصرها وتحديد وقتها لانها لاتظهر إلا بعد مقدمات عدة يتوافق بعضها على مغالبة بعض ، ومن هـذا التوافق والتغالب تنتج الظاهرة الادبية ممثلة تلك المقدمات الـتي اشتركت في إظهارها (٢) .

وتوسيعاً لهذه النظرية يصل طه حسين الى المناداة بـ « استقلال التاريخ الأدبي » من التاريخ السياسي .. ذلك أن الاول لا يتقيد ـــ أو لا يجب أن يتقيـد ـ به ، ولا يرتبط به ابتداء كما لا يرتبط انتهاء . ذلك أن التاريخ الادبي انما يعتمد في تحديده « على المؤثرات الكبرى التي تحدث تطوراً في الأدب فتخرجه من وضـــع الى وضع ؛ وعلى التيارات التي تداخله فتحرره من بعض الصفات وتلحق به بعض الصفات الأخرى (٣) ».

وهكذا أثر « دور كهايم » على طه حسين فيما دعوناه هنـا بـ « تظهير » الفرد .. و « تظهير » الأديب .. وكذا في هذا « الاستقلال » للظاهرة الأدبية وللتاريخ الأدبي. وقد ساهم هذا وذاك في مساعدة طه حسين في تفسير حركة التاريخ ، كما استفاد من قبل من أفكار « كارل ماركس » في التفسير المادي لهذه الحركة، عندما منح العامل الاقتصادي دوراً أساسياً فيها . وكما استفاد من نظريات « سيغموند فرويد » عندما منح العـــامل

---

(١) طه حسين ـــ فصول في الادب والنقد ، دار المعارف بمصر ؟ ص ٥

(٢) طه حسين ـــ تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف بمصر ، ط ٦ ١٩٦٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) طه حسين ـ من تاريخ الأدب العربي جـ ١ بيروت ١٩٦٩ ص ٤٦٤ .

النفسي دوراً وان كان ثانوياً جداً في البداية ، فقد أخذ في التطور والجدية والخطورة(١) فيا بعد . وهكذا جمع طه حسين بين هذه العوامل الثلاثة — الاقتصادية والاجتماعية والنفسية — لينظر من خلالها الى تطور الأفراد والجماعات .

هذا .. وكان لتأثير دوركايم على طه حسين لثاني الجانب . ذلك أنه لم يحاضر على طلابه مبادئه ونظرياته فحسب .. بل « أنفق عاماً كاملاً(٢) يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان سيمون » .. فكان بالتالي لهذا الأخير تأثيراً على تفكير الكاتب العربي .

جـ — طه حسين وسان سيمون

ليس مهمنا كثيراً في علاقة سان سيمون(٣) بطه حسين هـذه الاشتراكية — التي مست فكر الأخير مساً رفيقاً سنتعرض له في حينه — ولا هذه الثورية، ولا تلك المعارضة

(١) ان شئت فقارن بين دراسة طه حسين للعري في كتابه الأول (تجديد ذكرى أبي العلاء الذي ألفه عام ١٩١٤) وبين دراسته له في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه الذي كتبه عام ١٩٣٥) .

(٢) انظر مقال : د. عبد العظيم أنيس : فكر طه حسين الاجتماعي ومواقفه مجلة الطليعة القاهرة كانون الثاني — ديسمبر — ١٩٧٣ ص ١٥٢ — ٢٥٣ .

(٣) سان سيمون Saint Simon : مفكر اشتراكي فرنسي (١٧٦٠ — ١٨٢٥) التحق بالجيش الفرنسي عام ١٧٧٩ ، حارب في الولايات المتحدة الامريكية من أجل استقلالها . استقال بعد عودته من الحرب ، من الجيش واشتغل بعلمي الفيزياء والسياسة . سافر الى انكلترا وألمانيا وسويسرا .. ثم عاد ليستقر في فرنسا . كتب في عام ١٨٠٢ « رسائل مقيم في جنيف » ، ومؤلفات أخرى في مجال السياسة والاقتصاد . ورغم عمق هذه المؤلفات فان النجاح لم يكن حليفه . وهكذا حاول الانتحار بمسدس ناري (عام ١٨٢٣) عن عمر يناهز الثالثة والستين .. عاش بعد هذه المحاولة الفاشلة عامين آخرين فقط . سان سيمون زعيم اشتراكي وثوري .. سار على خطى مذهبه مريدون عديدون بعـده دعو بالسان سيموليين .. وهكذا اعتبر مؤسساً لمذهب سياسي واقتصادي لعب دوراً كبيراً في ارساء قواعد الاشتراكية .

المثالية الألمانية سيراً في خط الماديين الفرنسيين.. بل شيئاً آخر هو بالنسبة لكاتبنا وللتاريخه العقلي أكثر أهمية .

كان طه حسين قد شغف ــ كما سبق وألمعنا ــ بالاتجاه العقلي الذي ران على التاريخ الاسلامي بـــدءاً من منتصف القرن الثاني للهجرة يوم كانت بلاد الشام والعراق ملتقى لثقافات فارسية وهندية ويونانية ، اسلامية ومسيحية ويهودية . وهي الثقافات التي أثارت لدى المسلمين نظريات مؤيدة بالحجج وبالبراهين مبعثهـــا الوثنيون والنصارى ، المجوس واليهود ، غايتها دحض بعض جوانب العقيدة الاسلامية . فتصدى لهؤلاء وأولئك ــ ولمن ذهب مذهبهم من فرق المسلمين ــ علمـــاء الكلام لدحض الدحض بنفس السلاح المشهور . العقل بالعقل .. والمنطق بالنطق .

ولعل قضية الجبر والاختيار ــ التي أخذت حيزاً من مناقشات المعتزلة ــ تعتبر من اكثر القضايا التي شغلت ذهن الكاتب العربي مذ كان في الأزهر طالباً يتهيأ له ــ دون أن يطمح ، بعد ان كان يحلم ــ بأن يكون شيخاً عالماً !

كان طه حسين اذاً شغوفاً بهذا السلاح اكثر مما كان مفتوناً بما كان يدافع عنه . فجعل من العقل إماماً له ــ وان كنا نسجل له تراجعاً واضحاً في هذا المجال بعد قرابة عشرين عاماً من الايمان به(١) ــ راخياً له العنان .

فاذا «الجبر» أول ثمرات هذا «الايمان» . وهو «جبر» مبعثه الفلسفة .. كما هو مبعثه الدين . فالأولى ترى أن هذا العالم مبني في حركاته الاجتماعية والفردية للانسان وغير الانسان على العلل والأسباب ، وان كل شيء في هذه الحياة انما هو نتيجة لشيء كان قبله ومقدمة لشيء يجيء بعـــده . وفي رأي طه حسين أن الفلسفة قد فرغت ــ وهي فرغت بالفعل ــ منه اثباته منـــذ امد بعيد(٢) . كما أن الدين قد قال بشمول القدرة والعلم الإلهيين .

وهكذا ينطلق طه حسين في تطبيق الجبر ابتـــداءاً من الفرد .. وانتـــهاءاً بالحركة التاريخية ..

---

(١) انظر كيف يحلل حياة وتفكير أبي العـــلاء المعري في (مع أبي العلاء في سجنه) دار المعارف ١٩٦٤ .

(٢) طه حسين ــ تجديد ذكرى أبي العلاء ــ دار المعارف ١٩٦٣ ص ٢٦٤ .

فالفرد وما له «من آثار وأطوار نتيجة لازمة وثمرة ناضجة لطائفة من العلل(١) اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه من غير ان يكون عليها سيطرة أو سلطان(٢)» والأمر ينطبق أيضاً على ما ينتجه هذا الفرد .. وهكذا فـ « القصيدة الشعرية، والخطبة يجيدها الخطيب ، والرسالة ينمقها الكاتب .. كل اولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية(٣).. » وهذا يعني أننا لو حللنا قوى الانسان النفسية فاننا نجد أن هذه القوى متأثرة بأشياء لايملكها الفرد .. كما انها خارجة عن ارادة الجماعة . فعبث اذن القول بالاختيار .. سواء نسب الى هذا أم الى اولئك . وبعبارة اخرى اكثر اختصاراً وأوسع تعميماً : ان الحركة التاريخية ـ لدى طه حسين ـ « حركة جبرية ليس للاختيار فيها مكان(٤) » .

ولا نريد أن نسترسل في ايراد الشواهد المثبتة على هذا الاتجاه في الجبرية المتطرفة.. حيث يصبح الانسان معها مجرد آلة مسيرة .. يقدم العمل مجبراً عليه .. لايستحق من وراء ذلك مثابة أو عقاباً .. ولا ذماً أو مدحاً .. بل هو مجبر على أن يحمد الحسن ويذم القبيح ، بل على أن يتصور هذا حسناً وذاك قبيحاً .. هو مجبر إن شاء ومجبر إن أبى.. مجبر إن قبل .. ومجبر إن رفض .. نقول لانريد الاسترسال فالشواهد كثيرة .. وكثيرة جداً .. وجل مايهمنا هنا هو أن طه حسين قد سافر الى فرنسا حاملا معه هذه «الجبرية» في حقائبه ..

وفي باريس يستمع الى محاضرات تدور هي الاخرى حول « الجبرية » وان كانت هذه لاتقل الى حدة وتطرف الاولى . والجبرية الأخيرة ـ التي كانت في صميم فلسفة سان سيمون ـ تقترب من « الحتمية » بالمعنى العلمي للكلمة اكثر مما تتصل « بالجبرية » بالمعنى الديني لها .

فهذا الفيلسوف يرى في حركة التاريخ حتمية ، تبدأ من النظام الاجتماعي القائم

---

(١) ان تقسيم العلل ـ كما هو وارد في أصل النص ـ بين مادي ومعنوي .. يقودنا الى لمس هذا التأثير الذي خلفه (ابن خلدون) على طه حسين (راجع مقدمة)الأول.

(٢) طه حسين ـ تجديد ذكرى أبي العلاء ـ ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٦ ـ ١٧ .

على ترسبات من العقائد الدينية . حيث تتصور وطموح الطبقات الاقطاعية في « الحكم المشترك » .. وتنتهي بسقوط هذا النظام ليحل محله نظام آخر قائم على اسس من العلم . وانا لنجد في « رسائل مقيم في جنيف (١) » ما يشير الى هذا الطموح الاخير .

ففي هذه « الرسائل » يطرح اقتراحات أربعة :

١ ـ ان يدرس المجتمع دراسة علمية .

٢ ـ أن ينظر الى هذا المجتمع باعتباره مؤلفاً من طبقات ثلاث : عقلاء ، ومحافظون ، وعامة .

٣ ـ خلق عالم جديد . و « دين جديد » .

٤ ـ ان تكون السيادة في هذا العالم لطبقة العقلاء المفكرين .

وشاء مريدوه من بعده ان يوسعوا هذه الأفكار ويطرحوها ـ هم الآخرون ـ في نقاط أربعة نوردها بايجاز :

١ ـ ادخال المناهج العلمية ـ وحتى الفيزيائية منها ـ في دراسة المجتمع .

٢ ـ نزول الاقطاعيين والعسكريين عن السلطة لصالح المنتجين الصناعيين .

٣ ـ دعوة جميع الافراد في المجتمع الى العمل .

٤ ـ فسح المجال أمام « الدين الجديد » ليأخذ مكانه . وهو دين قائم على الاخوة والمحبة .. وهادف لتحقيق المساواة والحرية بين الافراد (٢) .

فأما دراسة المجتمع دراسة علمية .. بمناظير ومناهج حديثة .. فتلك أمنية حملها طه حسين معه من فرنسا .. ونادى بها في مصر عبر مقالاته وكتبه ومؤلفاته .. بل هو شاء أن تستخدم هذه المناظير والمناهج في دراسات تتعلق بتراث هذا المجتمع ايضاً .. فاذا هو يدعو الى اعادة النظر في تاريخ الادب العربي بحيث يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص (٣) .. دون أن يهمل دور « الذوق » في هذا الصدد ... واذا هو يدعو النقاد الى ان يتكلفوا بعض التضحيات ـ كتلك التي يتكلفها العلماء ـ في سبيل الوصول الى الحق.

---

(١) كتبها سان سيمون عام ١٨٠٢ .

(٢) انظر : Grande Encyclopedie , matiére St. Simon

(٣) طه حسين ـ من تاريخ الادب العربي : ج ١ ـ ص ٣٤ .

وهو تكليف سوف يحملهم اثقالاً واهوالاً .. « من أضطرار الى هتك الاسرار .. وفضح الاسرار .. واظهار الناس من امر بعضهم على مالاينبغي أن يظهروا عليـه (١) . فهو مذهب عام ـ اذا شئنا الاختصار والتعميم ـ يتخذه طه حسين ، في الدعوة الى المنهجية العلمية في البحث (٢) كيفما كان هذا البحث .

ويلتقي من هذا ـ فيما يلتقي ـ دعم للاتجاه العقلي الذي سار فيه كاتبنـا منذ عهد مبكر جداً في حياته الفكرية ، وزعزعة للكيان الثقافي القائم ، أياً كان هذا الكيان ، مالم يدرس هذه الدراسة العلمية الجديدة المستحدثة . ولعلنا نلمح هنا ـ ان لم نكن مخطئين ـ تلك الخطوط التي تصل بين ما أوحاه « ديكارت » لطه حسين .. وما يوحي بـه « سان سيمون » والرافدان يصبان في نهر واحد .

فأما فيما يتعلق بالنظر الى المجتمع باعتباره مؤلفاً من طبقات ، وهو مايشكل كامل الفقرة الثانية من اقتراحات سان سيمون وركيزة الفقرة الثانية أيضاً من مبادىء مريديه ـ فإنا لانجد لدى طه حسين ـ فيما نعلم وفيما مر علينا من آثاره ـ صدى كبيراً لها .

ولعلنا نضيف بأن كلمة « طبقة » و « طبقات » ـ بالمعنى العلمي الاجتماعي الكلمة ـ لانجدها مترددة لدى الكاتب . ولكن هذا لاينفي الاشارة اليها ، اشارات تتم عن روح ان لم تكن يسارية فهي ليست بورجوازية محافظة .

فهو حين تعرض الى دراسة المجتمع القديم للأمة العربية قـد وجد ان العرب « كغيرهم من الامم القديمة وككثير من الامم الحديثة منقسمين الى طبقتين : طبقة المستثيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم ، وطبقة العامة الذين لايكاد يكون لهم من هذا كله حظ(٣) » ولا نبحث هنا عن الاصول التي يستند اليها وان كنا نميل الى ما اعتمد عليه لما فيه من طرح لصراع الطبقات . يقول : « وأنت إذ قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب الى فريقين آخرين : فريق الاغنياء المستأثرين بالثروة ، المسرفين في الربا ، وفريق الفقراء المعدمين او الذين ليس لديهم من الثروة مايمكنهم من ان يقاوموا هؤلاء المرابين او يستغنوا عنهم(٤) » .

---

(١) طه حسين ـ مع أبي العلاء في سجنه ـ ص ٢٣ .
(٢) انظر : طه حسين ـ من تاريخ الادب العربي ـ ج ١ ، ص ٥٢٥ .
(٣) و (٤) طه حسين من تاريخ الادب العربي ـ ج ١ ، ص ٩ ـ ٩٢ .

ومن خلال هذا المنظار يحاول محاولات ندعوها « خجولة » يعالج فيها الآراء الاجتماعية والاقتصادية لاصحابها وفقاً لهذا التقسيم الطبقي .. ووفقاً لصراعه(١) .

بقي ان نشير الى ان طه حسين لم يكن ليهتم بالطبع من هـذا الترداد لـ « الدين الجديد » على مسامعه .. فما نظن انه كان يريد بدينه بديلا .. ولكنا في نفس الوقت ما نشك في انه كان يريد به اصلاحاً وتجديداً ..

فأما أن يهدف « دين » سان سيمون الى المساواة بين الافراد .. فانه طه حسين يرى في « الظلـم مصدراً للتفاوت(٢) » بين الناس .. ان رفع عنهم .. ظلتم المساواة بظلها .. ذلك ان « الخيرات التي تنتجها الارض وتنتجهـا الحضارة كلها لا يمكن ان تتفاوت حظوظ الناس منها الا اذا كان الظلم مصدر هذا التفاوت، فاذا ظفر زيد بالغنى، فلا بد من أن يضطر عمرو الى الفقر ... سبيل ذلك تحقيق المساواة من غير شك » هي اشتراكية اذن ؟ ان طه حسين يتابع قوله بكل وضوح «سبيل ذلك ان يؤخذ من الغني وأن يرد على الفقير حتى لا تكون بينهما هـذه الفروق(٣) » . أما ما سيلي بعد هذه المرحلة .. فذاك أمر لا يتطرق اليه الكاتب .

وأما أن يهدف « دين » سان سيمون الى الحرية .. فذلك ما يطالب به طه حسين ليس في مجال العلاقات الاجتماعية فحسب — والكاتب يظل محافظاً — وانما في مجال الآداب والعلوم خاصة . وهي حرية ينادي بها ولها ويدافع عنها الكاتب مراراً وتكراراً .

إننا أبعد ما يكون عن الادعاء بأننا في ابراز هـذا التأثير الذي مارسه كل من « ديكارت » و « دوركهايم » و «سان سيمون» على طه حسين قد أبرزنا أصول التفكير الفلسفي لدى هذا الاخير . ذلك أننا تجاوزنا الكثير الكثير مما كان يمكن ايراده والتعليق عليه وتقييمه من هؤلاء الفلاسفة أو من سواهم .. ولكن خطتنا في البحث التي سرنا عليها .. والتي سنسير عليها فيما يتعلق بالفقرة التالية لا تأخذ من الامور الا خطوطها العامة والعريضة ..

(١) انظر دراسته حول فلسفة أبي العلاء المعري (تجديد ذكرى أبي العلاء) ص ٢٨٥ .

(٢) لعل الاطلاع على نظرية روسو في (عدم التفاوت) تفيد في هذا القبيل (انظر : رسالة روسو في أصل التفاوت بين الناس) .

(٣) طه حسين ـ مع ابي العلاء في سجنه . ص (١٨٣ — ١٨٤) .

طه حسين والشعر الجاهلي

يوسف اليوسف

الريادة لحظة الانبثاق العامة على نمو الآخر أكثر من عملهـا على نموها الذاتي ، والساعية وراء انطفائها — كوهن — لتتيح للصاعدين فرصة تجاوزها ، وبتجاوزها وحده تحيا . انها لا تبحث عن تناميها الخاص بقدر ما تبحث عن تخطيها ، عن اللحظة التي تضمها الى ذاتها وترتفع بها وعليها في الوقت نفسه . فالريادية عندي لا تمثل الا وعي المجتمع (بذاته وبالعالم من حوله ، وبتاريخيته قبل كل شيء) ساعة افاقته من الرقاد أو تفتحه على المعاصرة . وفي مثل هـذه البرهة تكون الموجودات غائمة أمام العقل ، ويكون الوعي غير متأكد من حضور الاشياء ، ولا هو بالمستوعب لابعادها . ومن هنا تأتي الاسترابة بالحقائق — حتى ماكان منها راسخا كالطود — ابتغاء التحقق من صحتها ،

بل ابتغاء تمكين الشعور من احتضانها . وكذلك من هنا يأتي ضعف البصر والعجز عن الرؤية الواضحة والرؤية البعيدة والشمولية ، أو كما قال هيجل : كل ما هو عظيم لا بد وأن يمر بألم المخاض .

بيد أن مما يؤسف له حقاً أن تستمر الريادية حقبة تزيد عما ينبغي لها أن تستمر ، أعني أن التجاوز السريع والضروري بات أمراً لا بد منـــه ، والا برهنا على عجزنا وقصورنا الذاتي . ان الرائد محق في أن يكون رائداً ، أما الجيل اللاحق فلا علة لريادته الا وهنه العقلي .

والريادية ، كبرهة افاقة يعوزها امتلاء الوعي بالواقع وحضور الأشياء المنبث في الذات والمتغلغل في الشعور ، هي ما كانته الثقافة العربية في مرحلة مابين الحربين العالميتين ، هذه الثقافة التي كان المرحوم طه حسين رائدها الأول ، فهو بحق مؤسس النقـد الأدبي الحديث في اللغة العربية المعاصرة .

* * *

قبل أن اعرض لحجج المرحوم طه حسين في نفي الشعر الجـاهلي أود أن انوه بأهمية المنهج الجدلي وقـدرته على تحليل الوقائع والنفاذ الى الجوهر عـبر الظاهرة . ولعل مما يثير الاستغراب أن يصمت اصحاب المنهج الجدلي من العرب عبر السنوات الخمسين المنصرمة عن اطروحات وشكوك المرحوم والمستشرقين على السواء ، وأن يظل الرد على هذه الاتهامات اللاغية منوطاً بأناس جلهم (ان لم أقل كلهم) من التقليديين الذين تعوزهم المناهج المعرفية . وبوسعي ان أجمل الموقف بقولي بأن المنهج الجدلي هو الاداة الوحيدة الحاسمة في تخليص الادب الجاهلي من براثن المستشرقين ومن لايزالون يصدون آراءهم عندنا . يقول المرحوم : لو عاش الجاحظ في عصرنا لدرس الفلسفة الالمانية . وكم كان حرياً بالمرحوم نفسه ان يدرس هذه الفلسفة ، وعلى وجه الحصر جدلها بوجهيه المثالي والمادي ، اذن لما كان قبل اي ارتياب بالادب الجاهلي ، بل لانبرى للمستشرقين يدحض مزاعمهم ويفندها .

وخير لنا أن نبدأ باثبات الأدب الجاهلي ، لا بالرد على المزاعم العارية عن الصحة التي كالها له المستشرقون . وان لدينا ما ادعوه بالحجة القرآنيـــة التي يمكن عرضها من وجهتي نظر متعارضتين ، ومع ذلك تبقى صحيحة وداعمة للادب الجاهلي .

فمن وجهة النظر الايمانية يمكن القول بأن القرآن، هذا الكتاب الذي يشكل ذروة في جمالية الاسلوب وعمق التعبير الفني ، لم يكن ليخاطب به الله الناس لو لم يكونوا قد بلغوا مستوى من الفصاحة والفنية يؤهلهم للتواصل مع الكتاب وفهمه واستيعابه بوصفه أنظومة لعلاقاتهم الزمنية والأزلية ، لأن الله لايخاطب الناس الا على قدر عقولهم . فمن أين جاء للناس هذا الارتقاء في الفصاحة والفنية التي تهيؤهم لفهم القرآن واستيعابه ان لم يكن قد جاءهم عبر ثقافة سابقة على الكتاب ؟

أما من وجهة النظر الالحادية ، فيسعنا القول بأن القرآن . وهو مايشكل قفزة هائلة في الأسلبة العربية والارتقاء الأدبي والكتابي ، يستحيل – عقلا – أن يبلغ هذه القفزة لو لم يكن قد شرطته تراكات كمية في التطور الكتابي شرطا ضروريا . ان الحياة لاتعرف الطفرة ، والتطور لايأتي مفاجئاً ، بل يسير وفقا لقوانين الجدل في النفي ونفي النفي وتحول الكم الى نوع وصراع المتضادات داخل الكيان الواحد ، بحيث تقوم التبدلات الكمية ، المتعضونة داخليا بالتبدلات النوعية للشيء ، باحداث قفزة قد تبدو فجائية، ولكنها تفقد فجائيتها امام العقل التحليلي ، لأنها في الحقيقة مشروطة بشوارط تفعل فعلها داخل بنية الشيء المتنامي ، وقد يكون هذا الفعل خفيا وغير ملحوظ ، وذلك يعني أن تراكما عقلياً في الاساليب الكتابية وقد سبق القرآن ومهدله . ولايمكن أن يكون هذا التراكم شيئا اخر غير الشعر الجاهلي . انه لايمكن ان يكون التوراة ولا الفكر الاغريقي ولا الاناجيل الأربعة ، لأن كل هذه الاعمال لم تكن مكتوبة باللغة العربية ، وان كانت تشكل بعضا من مصادر القران ، الذي نهتم هنا باسلوبه وفنيته قبل كل شيء .

والحق أننا انطلاقا من تحليل الخصائص الفنية للقرآن يسعنا ان نصل الى الخصائص الفنية للشعر الجاهلي ، لأن هذه الخصائص الأخيرة هي مميزات الأسلوب القرآني نفسها ، ولكنها مصاغة وفقاً لحلقة أدنى من حلقات التطور . أي أن خصائص القرآن الفنية هي ضم لخصائص الشعر الجاهلي وارتقاء بها الى افق اسمى ، وهذا يعني ان الشعر الجاهلي لايمكن أن يمثل الا « كمية نوعية » بالنسبة الى القرآن ، عنيت تراكمات كمية كلما ازدادت وتصاعدت كلما أحدثت فروقا نوعية ، تتراكم هي الأخرى بدورها حتى تفضي الى القفزة.

ووجيز القول ان من المستحيل – عقلا – ان يأتي القران دون ان تشرطه ثقافة متطورة تسود المجتمع قبل ظهور القفزة (القرآن) . فما كان للقران أن يكون خرقاً في مقاييس الأدب عند ذاك لو لم يكن قد سبقته تبدلات كمية تداوم على تكدسها عبر

ثقافة المجتمع . والحق أنه لو لم يصلنا شعر جاهلي لكان من واجبنا ان نتساءل عنه بعد قراءة القران ، لأن مثل هذا الكتاب لايمكن ان يأتي طفرة ، اذ الحياة لاتعرف الطفرة ، أي لاتعرف النشوء المفاجيء للموجودات . واذا ثبت ان الشعر الجاهلي منحول يغيث من الضروري ان يكون القرآن منحولا ، لأنه يغدو مشروطاً لغير شارط ، وهذا مالايمكن ان يكون . فلما كان القران حقيقة لاتقبل الطعن فان شارطه (الادب الجاهلي) حقيقة لاتقبل الطعن بدورها . اللهم الا ما كان طعناً هامشياً يصيب قليله لاكثيره .

وهنالك مسألة اخرى يمكن للمنهج الجدلي أن يثيرها كدعم للأدب الجاهلي ، فالحق أن منهج ديكارت ، الذي نحا المرحوم نحوه ، شديد التخلف بحيث يتوارى أمـام المنهج الجدلي . صحيح أن منهج ديكارت كان قفزة في الفكر الانساني في حينه ، ولكن القفزة نفسها سرعان ماتغدو عقدة تراكمية كبيرة (ليس الا) بالاضافة الى قفزة اخرى ترقى عليها . ان هذا المنهج الجدلي يمنحنا حجة حاسمة أخرى مؤداها أن شعر القرن السابـع الميلادي (الأخطل ، الفرزدق ، جرير ، الحطيئة ، عمر بن أبي ربيعة ، جميل بثينة ، حسان ، كثير عزة ، قيس بن الملوح . . . الخ) الذي لم يرق اليه شك المرحـوم طه حسين ، والذي ارتاب مرجوليوث ببعضه ، أو هو ارتاب على وجه الحصر بشعر النصف الاول من القرن الاول الهجري ، أي انه لم يشك بعمر بن أبي ربيعة والاخطل الصغير ، وجرير والفرزدق وغيرهم ، ان هذا الشعر كان من المتعذر أن يأتي على هـذه الحالة من الجودة والتقنية والنضج الفني لو لم يشرطه تطور طويـل في الأساليب الشعرية ، وفي ترسيخ التقاليد الشعرية ، شرطاً ضرورياً . ولابد أن يكون هذا التطور قد غطى عقلاً حقبة مديدة من الزمن لاتقل عن القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وهما مايشكلان العهد الجديد .

ان الاشياء في تناميها الموضوعي يستحيل ان تبلغ حلقة أرقى قبـل أن تبلغ حلقة سابقة ، ويستحيل ان تبلغ حلقة أدنى قبـل أن تمر بحلقة سابقة أيضاً ، لأن التطور يعرف الاتضاع مثلما يعرف الارتقاء ، اذ ثمة جدل هابط وجدل صاعد . فلامن ريب في أن الشعر الراشدي والاموي قد شرطه الشعر الجـاهلي بالضرورة ، ولولا ذلك لجاء ركيكاً هزيلا ، لأنه لا بد له من ان يتخبط في وهن الولادة ووجع المخاض . ان انعدام المخاضية في الشعر الاموي يدل دلالة قاطعة على أن مرحلة المخـاض كانت قد انطفأت في احقاب أقدم من العصر الاموي بكثير . ومن المسـتحيل ان يرق غزل عمر

ابن أبي ربيعة لو لم يسبقه ويمهد له غزل امرىء القيس وسواه بالضرورة المطلقة لا النسبية .

ثمة حجة جدلية أخرى فحواها أن الواقع يصنع الوعي ويحدد محتوياته ، فلا يملك أي امرىء يعيش في مدينة ، وبعيداً عن الحقبة الجاهلية ، مهما يكن متمثلاً للغة الجاهلية والثقافة الجاهلية والتاريخ والمجتمع الجاهليين ، ان يكتب قصيدة تعكس روح الجاهلية دون أن تظهر عليها علائم عصرهـا ، ودون ان تبتعد عن روح العصر الذي تنتحله . وهذا يعني ان خلف الاحمر الذي عاش في البصرة بعيداً حتى عن جغرافية المجتمع الجاهلي ، وعن زمانه أيضاً ، وضمن شروط حضارة جديدة كل الجدة ، يتعذر أن يكون مؤلف لامية العرب ، لأن مؤلفها الحقيقي (الشنفرى) قد عانى الجوع حقاً ولأنها انما ظهرت بفضل خواء المعدة من الطعـام . وهي تعكس أحوال رجل عاش في البادية لحقبة مديدة بحيث يستحيل اصطناع تجربته . وما في اللامية من تآلف صادق مع الوحوش يدل دلالة قاطعة على ان مؤلفها قد عاش مع الوحوش حقاً لا زوراً ، مما يؤكد بجزم أن المؤلف بدوي لا حضري ، ومن شاء أن يتثبت من صحة مـا أزعم فليتأمل الأبيات العشرة المتعلقة بالذئب ، إذ يستطيع الشاعر ان يرغمك على التفاعل مع هـذه الوحوش المفترسة وان يجردك من كرهك اياها ، لا لشيء الا لأنه صادق الانفعال ازاءها ، والا لانها تحمل اضفاءاته هو نفسه . وهذا الصدق في الانفعال ، هذا الوعي المتحدد بالتجربة لا بالتخيل ، بالواقع لا بالوهم او الانتحال ، هو ما يؤكد صحة انتسابها الى بدوي عاش في الصحراء حياة شقاء وصعلكة .

لقد برهن بلاشير حين قبل الدعوى التي أثارها القالي في أماليه ، والرامية الى ان خلف الاحمر هو واضع اللامية ، برهن على انه يفتقر الى العقل التحليلي ، وإذا لم يكن هذا هو حاله ، فاننا نستطيع أن نطعن بموضوعيته . ان الخبر الذي انفرد به القالي قد لا يزيد عن كونه محاولة للطعن بنزاهة خلف الاحمر ، والا فكيف غاب هـذا الخبر عن ابن سلام وسواه من أئمة الرواة ؟

وهنالك المسألة الطللية كحجة جدلية على وجود الأدب الجاهلي . أن نجـد خمس عشرة قصيدة لحسان بن ثابت تستهل بالوقوف على الأطلال، وأن نجد عمر بن أبي ربيعة يتهجم على هذا التقليد الشعري ، وأن نجد أبا نواس ينحو نحو عمر بدوره ويتهجم على ذلك التقليد نفسه ، كل هذا يستحيل الا أن يشير الى رسوخ هـذا التقليد واسبقيته على من يتهجمون عليه ، والا فما مبرر الهجوم عليه لو أنه لم يوجد قبلهم ؟

بقيت مسألة أخرى تدل على الشعر الجاهلي ،وهي مسألة استقرائية تخدمنا حقاً. لم يكن صدفة أن تمر كلمة « شاعر » ست مرات في القرآن ، وكل مرة في سورة مختلفة. واليك هذه المرات الست : « وماعلمناه الشعر وما ينبغي له هو ان هو الا ذكر وقرآن مبين » (يس ، ٦٩) ، « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر» (الانبياء، ٥) ، « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ، ٣٦) ، « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (الطور ٣٠) ، « وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون » (الحاقة ، ٤١) ، « والشعراء يتبعهم الغاوون » (الشعراء ٢٢٤) ، ولنلاحظ أن سورة من سور القرآن تحمل عنوان الشعراء ، ومن المتعذر أن يكون هذا العنوان لو لم يكن الشعر تقليداً كلي الحضور . ولنلاحظ كذلك أن خمساً من الآيات الست تدافع عن القرآن ضد التهمة الأساسية التي وجهت اليه حين اتهمه المشركون بأنه شعر . أما الآية السادسة فهي كذلك دفاع ضد التهمة نفسها ، ولكنه دفاع غير مباشر . وهنا يخطر للعقل سؤال : العقل أن يكون العرب قد واظبوا على نعت القرآن بالشعر ولنستقرىء هذه المواظبة من ورود الدفاع ضدها موزعاً على ست سور متباعدة زمنياً) لو لم يكونوا يعرفون الشعر معرفة جيدة ؟ الجواب عندي : لا يعقل . اذن فالشعر الجاهلي ضرورة مطلقة .

والشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون قليلا ، لان القفزة القرآنيـة كانت جوهرية بحيث يتعذر الا أن يسبقها كم هائل ليحدث مثل هذا التحول الهائل في الأسلبة . فحين قام مرجوليوث بالطعن بالشعر الجاهلي بحجة أنه يفوق الشعر الاغريقي كماً ، انما برهن على انه لم يكن ليستوعب هذه المسألة ، عنيت أن القرآن لابد من أن يكون قد سبقته وشرطته كميات هائلة من الشعر المتطور نوعياً ، لانه على قدر كمية ونوعية الشـارط يأتي المشروط . ونمثل على ذلك بقولنا : ان تحقيق نصر صغير على العدو لا يحتاج الى تحولات كبيرة (كماً ونوعاً) في المجتمع ، أما احراز النصر الساحق فيتطلب استقلالات جذرية تنقل المجتمع من حلقة الى حلقة أرقى . وذلك يعني ان نوعية القرآن الراقيـة تسمح لنا بتخيل كميات هائلة من الشعر الجاهلي . ولو لم تصلنا هذه الكميات الهائلة لاثار لنا تاريخ القرآن متاعب جمة تتعلق بضروراته التمهيدية .

أفيصدق العقل ، اذن ، ان جميع الرواة — عربا وعجما — قد تواطؤوا على تلفيق عصر أدبي بأكمله ؟وهل كان الناس من الغباء بحيث ينطلي عليهم ان عصراً بكامله

يكن اختلاقه ؟ والشك الذي ابداه القدماء بالمنحول من الشعر الجاهلي ، أما يحمل ايجابية فحواها ان المنحول أقل من الحقيقي لأن ماشك به الاقدمون من شعر هو أقل مما أثبتوه ؟ ان المستشرقين واتباعهم قد جعلوا من الحبة قبة ، كما يقول المثل .

والآن بعدما اقتنعنا بالشعر الجاهلي كضرورة مطلقة لو لم تصلنا لتساءلنا عنها، دعنا نعرض لاهم آراء المرحوم طه حسين .والحقيقة ان حججه يمكن تصنيفهافي حجتين اساسيتين ، هما :

أولاً ـ الشعر الجاهلي ليس مرآة للحياة الجاهلية :

ا ــ الشعر الجاهلي لا يعكس الحياة الدينية الجاهلية : « فأمــا هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديــني القومي والعاطفة الدينية المتسلطة على الناس أو المسيطرة على الحياة العملية » (راجع: « في الأدب الجاهلي » ، دار المعارف بمصر ، الطبعة التاسعة ، ص ٧٢ ــ ٧٣) بخصوص هذه الحجة ، لسنا نريد إلا أن نقول كلمة واحدة قالها الرسول : « الاسلام يجب ماقبله».

ب ــ الشعر الجاهلي لا يعكس الحياة الاقتصادية الجاهلية : « فأنت تستطيع أن تقرأ امرأ القيس كله وغير امرىء القيس ، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا ا الأدب الجاهلي كله دون أن تظفر بشيء ذي غناء يمثل للكحياة العرب الاقتصادية فيا بينهم وبين أنفسهم» (ص ٧٥) لست أدري كيف غاب ديوان عروة ، وشعر الصعاليك كلــه ، عن بال المرحوم ، وهو الشعر الذي يعكس الصراع الطبقي وعلاقات الانتاج بكل أمانة . أفنتهمه بأنه لم يكن كامل الاطلاع على الشعر الجاهلي ؟ ألا يعكس شعر الصعاليك ترديالاوضاع الانتاجية والعلاقات السالبة والاحوال الاقتصادية عند العرب ؟

« أفتظن أن القرآن كان يعنى هــذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقــة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو الى ذلك ؟ » (ص ٧٦)

أفتظن أن عروة كان قد قال :

ومن يك مثـلي ذا عيال ومقتراً   من المال يطرح نفســه كل مطرح

وان الشنفرى كان قد قال :

واستفترب الارض كي لايرى له   عــلي من الطــول امرؤ متطول

« لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخليـــة من الفساد والاضطراب بحيث تدعوا الى ذلك ؟ » .

« وحدثني أين تجد في هذا الأدب ، شعره ونثره ، وما يصور لك نضالاً ما بـــين الأغنياء والفقراء » (ص ٧٦) أنت تطلب الى ان أن أحدثك ، اذن ؟ وها انذا أشير باصبعي ألى شعر الصعاليك . والحق أن ما من شـــيء في كتاب المرحوم يثير استغرابي أكثر من هذا الطلب .

جـ ــ الشعر الجاهلي يرينا الاخلاق على غير ما نراه في القرآن :

« فالشعر الجاهلي يمثل لنــا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال مسرفـــين في ازدرائهـا ، ولكن في القرآن الحاحـــاً في ذم الطمع ... (ص ٧٧) لقد غاب عن بال المرحوم أن الشعر ، كل شعر ، يقدم الاخلاق كما ينبغي أن تكون ، لا كما هي كائنة في الواقع ، وهو يتعامل مع القيم على الامكان لا على التحقيق . وحين ندرس مرحـلة أدبية لنستقرىء واقعها الاجتماعي من النصوص الادبيـــة فـانننا لن نملك ذلك إلا بالتحليل لا بالمباشرة . ان شعر الرثاء والمديح لا يمكن أن يعكس الا المثالي قبل الواقعي ، وإن كان يعكس الواقعي فبالعكس .

ترى ألا نجد البخل والجبن والتكالب على المال في شعر الهجاء . خــذ هذا البيت لعروة كشاهد على البخل :

اني امرؤ عافي انائي شـركة وانت امرؤ عافي انائك واحد

وهذا ، كشاهد على تكالب الناس على الكسب :

وماطالب الحاجات من كل وجهة من النـــاس إلا من أجـد وشمـرا

وانظر حال الفقير في الناس في قصيدة عروة التي يستهلها بهذا البيت :

دعيني للغنى اسـعى فاني رأيت النـاس شرهم الفقير

لا أملك ان أرجع ان المرحوم لم يكن مطلعاً على شعر الصعاليك حين وضـع كتابه هذا .

ان خصيصة الكرم التي ألحقها الرثاء والمديح ببعض النـاس لم تكن تسوغ الا على الارستقراطية البدوية والطبقة التجارية وحدهما ، وهـــذا أمر كانت تقتضيه شروط السيادة . والأهم من ذلك ان المرحوم قد فاته ان يستخلص الشيء من نقيضه . فاضفاء

صفة الكرم على الممدوح أو المرثي تعني حاجة المجتمع اليها كمثل أعلى أكثر مما تعني وجودها في الواقع .

واذا كان القرآن « يدقق في تنظيم الصلة بين الدائن والمدين » (ص ٧٨) ، فهو انما يفعل ذلك لأنه جاء كاديولوجيا بالدرجة الاولى ، لا كحالة جمالية ، كما هو شأن الشعر . زد على ذلك ان للشعر موضوعات لا يتعداها ، وهذا موروث قديم ما زال له أنصار بيننا نحن في القرن العشرين ، فما بالك بالجاهلية ، يا رعاك الله ؟

د ـ الشعر الجاهلي والبحر :

« ومن عجيب الأمر انا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر او الاشارة اليه ، فاذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا اقل » (ص ٧٩) ، أي جور هذا على الشعر الجاهلي !؟ نحن نستطيع ان نذكر ،على سبيل المثال لا الحصر ، خمسة مواضع لشعراء متفرقين يتطرقون فيها الى البحر أو ما يتعلق به . يقول امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علي بأنواع الهموم ليبتلي

ويقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

ويقول زهير :

يقطعن أجواز أميال الفلاة كما ... يغشى النواتي غمار اللج بالسفن

ويقول :

عوم السفين ، فلما حال دونهم ... فيد القريات فالعتكان فالكرم

ويقول النابغة :

يظل من خوفه الملاح معتصماً ... بالخيزرانة ، بعد الأين والنجد

فكيف نفتري على الشعر الجاهلي ونزعم انه لم يذكر البحر ، او ان ذكره لا يدل الا على الجهل ؟ ثم لماذا لا نأخذ مسألة أن الكثير من العرب كانوا يجهلون البحر حقاً . ومن المشهور أن عمر قد نهى معاوية عن انزال المسلمين في البحر . ويبدو ان عمر لم يكن يعرف البحر حقاً ، ولهذا طلب الى عمرو بن العاص ، وواليه على مصر ، أن يصف له

البحر . ان العرب لم يمتلكوا اسطولاً قبل وفاة عمر الذي كان يعلم حق العلم ان العرب فرسان يقاتلون على صهوات الخيل لا على ظهور السفن ، الامر الذي يؤكد ان العرب لم يكونوا في الجاهلية أمة بحرية . وتجارة اليمن والشام لم تكن الا تجارة قوافل ، قبل كل شيء .

ان حجة المرحوم طه حسين الرامية الى ان الشعر الجاهلي لا يعكس الحياة الجاهلية منقوضة حتماً ، لأنه عكس علاقات الغزو وصلات القبائل بعضها ببعض ، كما عكس القيم المثلى للارستقراطي والفارس البدويين . وصور المرأة ظعينة أو مسبية أو موروثة . وصور الصراع الطبقي على أشده ، واطلعنا على فئة من الناس انقبذت علاقاتها العشائرية لتقيم صلات طبقية . وأحسب ان الصعاليك هم أس الخط اليساري في التاريخ الاسلامي . فأنا لا أجد فرقاً بين قول عروة :

فأبلغ عذراً او اصيب رغيبة   ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقول أبي ذر : عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج الى الناس مشهراً سيفه .

أما أن يطلب المرحوم من الشعر الجاهلي ان يصور العلاقات التجارية مع البلدان الاخرى ، وان يحدد حالات الربا والمداينة ، فهو أمر ينسى صاحبه ان الشعر الجاهلي في غالبيته بدوي ، وان التجارة وشؤونها حضرية بالدرجة الاولى . ان الشعر الجاهلي قد عكس العلاقات البدوية على أحسن وجه . ماقولكم اذا ذهبنا الى ان شعر جرير والفرزدق وعمر بن ابي ربيعة (وهؤلاء هم اركان الشعر الاموي) لم يكن يعكس الفتوحات الاسلامية الكبرى المعاصرة له ؟ افنزعم ان هذا الشعر منحول ؟

ووجيز القول ، يصعب ان نزعم ما مفاده ان الشعر الجاهلي قد عكس الحياة الاقتصادية في الجاهلية على أحسن وجه عكساً مباشراً ، عبر الصعاليك . وعكساً لامباشراً عبر شعر سواهم . ان تحليل القصيدة ، أعني القدرة على قراءة تحتانيتها ، هو مانستطيع ان نغترف منه ما نشاء ، من صور الحياة الاقتصادية في الجاهلية .

ثانياً — الحجة اللغوية واللهجوية :

بعد مايجهد المرحوم نفسه ليثبت التباين القائم بين اللغة الحميرية والعربية ، الامر

الذي لايماري فيه احد ، وبعد مايقدم حجة القراءات السبع للقران ، نجده يطرح هذا السؤال : « أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية واخضعت العرب لسلطانها قبل الاسلام أم بعده ؟ » (ص ١٠٥) في قناعتي أن الاجابة عن هذا السؤال ينبغي ان تستفيد من صحة الشعر الجاهلي لا أن تؤخذ حجة عليه ، اذ الشعر الجاهلي دليل جاسم على أن لهجة قريش كانت سائدة في معظم بلاد العرب خلال القرن السادس الميلادي ، ولاعجب في ذلك فالتجارية (الميركنتيلة) الحجازية كانت تحكم قبضتها على طرق التجارة من خلال تعريب هذه الطرق ، ومن خلال تعريب الاسواق أيضاً . فقد كان الجو مهيئاً أحسن تهيئة قومية عشية الثورة الاسلامية ، الشيء الذي نملك استقراءه من الانتصار السريع للاسلام ، هذا الانتصار الذي ماكان يمكن أن يتم بتلك السرعة لولا ممهداته الضرورية.

ونحن لانعلم السبب الذي جعل المرحوم يرفض ان تكون العربية قد سادت معظم انحاء جزيرة العرب قبل الاسلام ، اذ هو يظن ان السيادة انما كانت للجنوب لا للشمال . وقد غاب عن باله ان الشمال الذي تمكن من انجاز أعظم ثورة في تاريخ الامة العربية كان من المتعذر عليه ان يخطو هذه الخطوة الجبارة لو لم تسبقها تراكمات تاريخية ضرورية ، لعل اهمها ان الشمال بسط نفوذه على كل خطوط التجارة واسواقها في جزيرة العرب . وحين ادعى طه حسين ان اليمن كانت أرقى من الحجاز ، فان دعواه هذه لاتصدق الا على عهد سبأ ومعين وحمير ، لأن اليمن كانت قد لحقها الانحطاط بدليل تغلب الاحباش والفرس عليها ، في حين بدأ الحجاز منذ مطلع القرن السادس الميلادي بنهضة ذات قفزات نوعية في ميدان الاقتصاد والحضارة والعمران ، مما جعل منه قطب العرب والموطن الذي راحت قبائلهم تؤول اليه وتستقر .

والغريب ان المرحوم يحاول ان يقطع عليك السبل من حيث تحليل المسألة اللغوية بقوله : « ليس هناك اذن سبيل الى أن نفهم ان القحطانية قد اتخذت لغة عدنان أداة لاظهار آثارها الادبية ، فكيف شعر شعراء قحطان وسجع كهانهم وتكلم خطباؤها بلغة القرآن ؟ انما فعلوا ذلك لان ما يضاف اليهم من الشعر والسجع والنثر قد حمل عليهم بعد الاسلام حملا . » (ص ٩٠) لقد ظل المرحوم يستشهد بالقرآن حتى صار الكتاب الكريم حجة عليه . فقد نسي « رحلة الشتاء والصيف » وأثرها على ذلك . اذا كانت اليمن ، التي مازال الصراع بينها وبين القيسية قائما حتى اليوم ، قد نحلت هذا الشعر المنسوب الى شعرائها ، اما كانت القيسية قادرة على فضحها محتجة بالحجة اللغوية التي يطرحها

المرحوم ؟ وحين يقال له ان بعض ، أو معظم ، شعراء اليمن ، كامرىء القيس ، مثلا، كانوا قد عاشوا في الشمال ، وهذا يعني أنهم كانوا يتقنون لغة عدنان ، فان المرحوم يرفض السبب الذي جعلهم ينزلون الى الشمال ، بعدما انهار سيل العرم ، دون ان يقدم سببا وجيها لرفضه هذا ، ويرفض ان تكون قبائل الاوس والخزرج وسواهما قد استوطنت الشمال مهاجرة بعد انهيار ذلك السد . ولسنا ندري كيف أباح المرحوم لنفسه ان يشك بهذه الهجرة المتفق عليها من قبل المؤرخين القدماء والمحدثين ، مع قبوله لواقعة انهيار السد ، بل وعلى الرغم من ان القرآن قد ذكر هجرة السبئيين ونص عليها صراحة بقوله : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين » (سبأ ، ١٨) ، « ومزقناهم كل مُمَزَّق»(١٩).

بدهي ان انهدام سيل العرم هذا كان سيؤدي بالضرورة الحتمية الى هجرة بعض القبائل المستفيدة منه . والحقيقة ان المؤرخون يجمعون على هجرة بعض القبائل المستفيدة منه . والحقيقة ان المؤرخون يجمعون على هجرة اهل اليمن ، لا الى الشمال فحسب ، بل حتى الى مناطق خارج جزيرة العرب . وفي رأينا ان انحطاط اليمن سابق على انهيار السد ، وان عامله الاساسي هو سيطرة الرومان على الاسواق التجارية في حوض البحر المتوسط ، وهذا يعني ان انحطاط اليمن بدأ قبل تشكل الدولة الحميرية (١٥٠ — ٣٠٠ م) ، أي في العصر الذهبي لروما ، وهو القرن الاول قبل المسيح . ان انتقال السيطرة التجارية على المتوسط والاحمر ، واسواقهما ، من يد اليمن الى يد الرومان قد بدا ينقل بالتالي موازين القوى من ايدي الجنوبيين الى ايدي الشماليين ، وبخاصة الحجازيين ،نظراً لقربهم من تخوم الامبراطورية الرومانية . والحقيقة ان طرق التجارة الدولية لو دانت للفرس لا الرومان ، لكانت نجد هي المؤهلة للقيام بدور الحجاز ولكانت مهداً للثورة . فلم يكن صدفة ان اطلق الرومان على العرب اسم « الحلفاء » .

ان سقوط الدولة الحميرية في اواخر القرن الثالث الميلادي سقوطاً تاماً بيد الاحباش قد لعب هو الآخر دور نقل زعامة العرب السياسية الى الشمال . كما ان هذا السقوط قد القى بزمام التجارة في ايدي الحجازيين . والحق ان صور التاجر والحانوت والسفينة والملاح والراية التي كان ينصبها التاجر ليستدل عليه ، وهي صور كثيراً ما نجدها في الشعر الجاهلي ، بخلاف ما زعم المرحوم ، هي برهان قاطع على رواج الحركة التجارية في معظم ارجاء الجزيرة العربية عهد ذاك .

وفضلاً عن ذلك ، ان في امكان المرء أن يطرح فرضية فحواها أن قريش نفسها ، وعرب الشمال جميعاً هم من اليمانية أصـــلاً . فاذا علمنا أن اليمن قبل الفتح الحبشي كانت أرقى مركز تجاري في الجزيرة العربية ، واذا علمنا أن قريش انمـــا سميت كذلك لانها تتكسب بالتجارة (إذ أن كلمة « قريش » مأخوذة من الفعل « قرش » ، أي عاش على التجارة ، ومنه كلمة « قرش » المعروفة) ، واذا صدقت الاخبار القائلة بأن جرهم كانت تستوطن مكة قبل قريش ، وحين جاءت قريش أجلتهم عنها ونزلتها ، يصح أن نفترض ما خلاصته ان قريش هذه قد جاءت من الجنوب . فقريش المتكسبة من التجارة يحتمل أن تكون قد جاءت من مركز تجاري لا بدوي ، واليمن هي الموطن الاكثر احتـــمالاً لهذا المركز . واذا صحت هذه الفرضيــة ينتج عن ذلك أن لغة اليمن الشعبية هي لغـــة الشمال نفسها ، وأن الحميرية لم تكن الالغة الارستقراطية والثقافة في مرحلة دولة حمير ، ومن قبلها سبأ ومعين ، وبانهيار هذه الدولةفي أواخر القرن الثالث انطلقت القبائل تتكلم لغتها الشعبية وترفعها الى درجة لغة للثقافة . وليس هذا بمستبعد لان مصر قد اكتشف فيها لغتان ، الهيروغليفية ، كلغة رسمية ، والديموطيقية ، كلغة شعبية . ان من المستحيل أن يتكلم البدو في عهد بلقيس اللغة التي كانت تتكلمها ملكتهم نفسها . ان الملكة التي لا بد أن يكون الكهان قد أشرفوا على تربيتها وتعليمها لا يمكن أن تتكلم لغة الرعاة الاميين ذاتها ودون فروق لهجوية على الاقل .

والحق ان لغة حمير ولغة القرآن هما شقيقتان توأمان لا تختلفان عن بعضها بعضاً كثيراً . فما يخول لنا حق طرح فرضيتنا السابقـة ان مؤرخي القرن الرابع الهجري قد ذهبوا الى ان عرب اليمن كانوا يتكلمون لغة عربية فصيحة . كما أن من المستحيل ألا تفرز الحميرية ، الـتي كانت تتطور خلال الفي عام ، لهجة عامية شعبية . وأياً كان الشأن ، فان الحميرية لا يمكن ان تكون اكثر من لهجة عربية موغلة في القدم ، حافظت على استمرارها (كاللاتينية) وثباتها وابتعادها عن التطور الداخلي عوامل تاريخية أهمها ان أصبحت لغة الثقافة لكل دول اليمن القديمة المتلاحقة .

ان هذه الاطروحة الرامية الى ان ما ندعوه باللغة الحجازية كانت ذات يوم لغـــة الشعب في اليمن وسواه ، في حين كانت الحميرية ، التي تنتسب الى سبأ ومعين قبل حمير ، اي الألف الثاني قبل المسيح، هي اللغة الرسمية لليمن عبر الفي سنة، هذه الاطروحة التي احسبها تقدم لاول مرة كتفسير لنشأة اللغة العربية ، هي ما ينبغي العمل على اثباتها أو دحضها ابتغاء الوصول الى ارومة اللغة العربية وينابيع تشكلها . غير ان نفي هـــذه الاطروحة

لا يعني عجزنا عن دحض الحجة اللغوية ، بل نحن نملك ذلك عبر ربط النمو اللغوي بتحولات الحركة التجارية في القرنين السابقين على الاسلام .

ولكن ما يدعم اطروحتنا هو الهجرات اليمنية المؤكدة الدائمة الى الشمال والتي جلبت قبائل يمنية الى الحجاز وسواه ، اذ يرجح ان يهاجر الفقراء لا الاغنياء اليمنيين اثر كل احتلال في الاوضاع الاقتصادية والسياسية لليمن ، ولا سيما اذا عرفنا ان حضارة اليمن الزراعية كانت حضارة سدود معرضة للانهيارات على الدوام . واظن ان اليهود الذين استقروا في المدينة هم من اليمن ، وقد نقلوا خبراتهم الزراعية والتجارية الى تلك المناطق التي اعادوا عمرانها بعدما كانت زاهرة في العهود السحيقة . وكذلك هو حال يهود خيبر ووادي القرى . والارجح عندي ان تكون هذه المجموعات اليهودية وقد هاجرت الى الحجاز اثر سقوط اليمن (القلعة الرئيسية لليهود يومذاك) بيد الاحباش المسيحيين الذين كان لا بد لهم من أن ينتقموا للمجزرة التي دبرها اليهود لمسيحي نجران .

وحتى اذا لم تكن قريش يمانية الأصل ، فان في وسع المرء ان يؤكد تكون لغة حجازية بدأت تتشكل منذ مطلع القرن الخامس الميلادي ، ولم تكن لغة قريش الا عمودها الفقري . وفي يقيني ان لغة القرآن هي لغة الحجاز هذه ، بل ان لغة قريش في المرحلة الجاهلية العليا كانت لغة الحجاز (او لغة القرآن) نفسها . ففي حين وردتنا أخبار عن فروقات لهجوية بين لغة الرسول ولغة الوفد اليمني الذي أتاه مبايعاً ، فاننا لم يردنا خبر عن فروق لهجوية ذات شأن بين لغة المهاجرين والأنصار ، الامر الذي يدعم صحة الفرضية القائلة بأن الحجاز كان يملك لغة موحدة قبل الاسلام ، وليكن اسمها لغة قريش، او لغة الحجاز ، سيان .

وفي مقدورنا تقرير مامفاده ان بناء كعبة الحجاز ، كمنافس تجاري لكعبة اليمن، لا يمكن ان يكون قد تم إلا بعد انحسار النفوذ التجاري لليمن . ونحن نرجح ان يكون هذا الانحسار قد بدا في القرن الاول قبل المسيح ، اي بسيطرة روما على اسواق المتوسط والاحمر ، الذي نجم عنه تحول التجارة في بلاد العرب من اليمن الى الحجاز . ان هجرة السبئيين في القرن الثاني الميلادي ، بناء على رأي (بلو) ، يعني أن اليمن قد انحطت حقاً . ونحن نرجح ان يكون الحجاز قد أخذ بالنهوض بدءاً من ذلك القرن. وربما تهيأ له المزيد من أسباب النهضة عند انهيار دولة حمير في أخريات القرن الثالث، وبوسع المرء ان يفترض قيام هجرات كبيرة اتجهت من اليمن نحو الشمال بين القرن الاول

قبل المسيح والقرن الثالث الميلادي ، دون أن ينقطع سيل هذه الهجرة في القرون اللاحقة ، وبوسع المرء أن يفترض كذلك ان هذه القبائل اليمنية قد طغت على الشمال وأكسبته لغتها العربية التي يمكننا أن نفترض انها اليمنية العامية . وليس مما يدحض هذا الافتراض ان حضارة ثمود التي ترقى الى القرن الثامن قبل المسيح ، وكذلك حضارة لحيان والصفائيين ، التي كانت تستخدم لهجة عربية معينة ، تعني أن نشوء اللغة العربية اسبق من هذه الهجرات اليمنية . وذلك لأننا نملك ان نقول بأنه ما من شيء يمنع أن تكون ثمود نفسها يمنية الاصل وأنها اتت ومعها لهجتها اليمنية الشديدة الشبه بالعربية . كما انه ما من شيء يمنع ان تكون لهجة ثمود هي اقدم انشقاق عامي عن الحميرية .

وعلى أية حال ، فان التقارب الشديد بين الحميرية والعربية يخولنا وحده حق افتراض خروج العربية من الحميرية (لا العكس ، لأن الحميرية كانت لغة قديمة لحضارة اليمن) . واذا كانت اللغة العربية اصلية في الشمال ، ولم يجلبها المهاجرون اليمنيون معهم ، فانه مما لا ريب فيه أنهم تعلموها من الشماليين بعد اندماجهم بهم . غير أن مما يرجح فرضيتنا الرامية الى ان الجنوبيين جلبوا معهم العربية (بوصفها عامية يمنية) من بلادهم هو أن لغة الغساسنة والمناذرة لم تكن حميرية بل عربية .

والآن فلنقفل الطرق عن فرضيتنا الرامية الى ان العربية عامية حميرية ، ولنناقش المسألة اللغوية انطلاقاً من الحجاز وشروطه الاقتصادية في الحقبة الجاهلية .

لقد فات الرائد الكبير أن يربط بين الثقافة والانثربولوجيا (وخاصة الدين) ، من جهة ، وبين الشروط الاقتصادية المتحركة في الواقع الجاهلي ، من جهة أخرى . وهنا يكمن سر مقتل حجته اللغوية ، فهي تتهافت أمام الربط المتين بين الوعي والواقع ، بين العوامل الروحية وبين الشروط المادية أو الاقتصادية للعرب الجاهليين .

ان مكة التي كانت تمارس الحوار التجاري مع كافة الاتجاهات (رحلة الشتاء والصيف) ، والتي ربطت الدين الوثني بالسوق عبر الكعبة ، هذا الربط الذي أفادت منه الثورة الاسلامية التي تنطوي في أحد جذورها على جعل مكة قبلة الناس ، بل على ابقائها قبلة للناس ، ان مكة التي محورت الدين حول ذاتها ما كان يعوزها أن تمحور اللغة حول ذاتها أيضاً . وكذلك ما كان يعوزها أن تمحور الشعر حول ذاتها . والحق أنها فعلت ، اذ كان الشعراء (وهذا شكل من أشكال الحاق الشعر والثقافة بالسوق) كل عام يأتون الى قريش ويلشرونها شعرهم ، فان لقي استحساناً منها كتب له البقاء ، والا فمصيره الزوال

وهذا ما أملى على الشعراء أن يكفوا عن اتخاذ لغاتهم ولهجاتهم المحلية كأوعية لمشاعرهم بل اضطرهم الى قول الشعر بلغة قريش ، أو ما اوثر أن ادعوه بلغة الحجاز . ولا يمكن تكذيب هذا الخبر ، لأن ربط الدين الوثني بالسوق ، عبر الكعبة ، يجعل من الأسهل ربط الشعر بذلك السوق. ولا يعني ربط الشعر بالسوق أن يتحول الشعر الى أخبار عن الاسعار والمداينة ، وما الى ذلك، لأن الشعر موضوعاته التقليدية التي لايجوز له تخطيها . بل الربط يعني أن تغدو مكة سوقاً للشعر ، كما هي سوق للبضاعة لتتحول الى مركز ثقافي يلعب دوراً هاماً في اجتذاب العرب الى السوق التجارية .

لقد فات الرائد الكبير أن يربط بين ظاهرتين متجادلتين : الاولى أن الشعر الجاهلي (الذي ورثناه ، لا الذي لم نرثه) بدأ يزدهر منذ أواسط القرن السادس الميلادي والثانية أن حركة التاريخ العربي كانت قد تم لها الانتقال ، منذ أواسط ذلك القرن عينه ، من نجد الى الحجاز ، بعد أن تم لها الانتقال من اليمن الى الحجاز أيضاً ، اثر الفتح الحبشي لليمن عام ٥٢٥ م ، وذلك لأن مدن الحجاز كانت قد غدت مراكز مالية وتربوية وتجارية مزدهرة ، الشيء الذي يمكن استقراؤه من القرآن نفسه . وأخذ رأس المال المالي يعمل بانتظام ليحول الحجاز من ممر تعبره القوافل التجارية المتنقلة بين الشام واليمن ،الى مركز لهذا النمط من الرأسمال ، وفقاً لما يقوله عمر فروخ في كتابه « تاريخ الجاهلية » . ولعل وقوع الحجاز (واسمه « حجاز » لأنه يحجز بين اليمن والشام ، وفقاً لقول الأقدمين) في منتصف الطريق بين الشام واليمن هو الذي أهله – بعد سيطرة روما على المتوسط – ليتحول الى هذا المركز . ونظراً لما يفرزه السوق الجديد من أسباب للعيش فقد اجتذب اليه الكثيرمن القبائل العربية النجدية واليمنية،وخاصة القبائل الأولى التي انهكهاالتصاول التناحري فيما بينها . والارجح عندي ان نجد كانت تعاني منذ اوائل القرن السادس من تفجرات سكانية ليس أدل عليها من هجرة النجديين في تلك الآونة الى بلاد الرافدين حيث تجد الكلأ والماء ، والى أسواق الحجاز حيث تجد العمل المأجور . ولنطرح السؤال التالي أكان تحول الحجاز الى سوق كبيرة ، او مركز تجاري عظيم ، سبباً للهجرات ام نتيجة لها ؟ الحق ان العلاقة جدلية بين الموضوعتين ، فالسوق تطلب البشر ، وتكدس البشر يقتضي الى تطور السوق وازدهارها .

ولقد حاول حكام اليمن ان يقيموا كعبتهم الخاصة وأن يجعلوا من اليمن المركز التجاري لبلاد العرب . ولهذا قام حسان بن التبع بغزوة (٤٨٠) تستهدف هدم الكعبة

ونقل حجارتها الى كعبة اليمن . ولكن الشماليين أسروه وأوقعوا بجيشه وخاب مسعاه، الأمر الذي يدلل على وهن اليمن في تلك المرحلة ، وعلى منعة الحجاز وقوته في الوقت نفسه . أما قصة عام الفيل فأشهر من ان نشير اليها . ولعل موقع الحجاز كوسيط جغرافي هو الذي مكنه من التحول الى وسيط تجاري ومركز أساسي لاقتصاد العرب ، على الرغم من ان اليمن كان أرقى من الحجاز من الناحية السياسية طيلة التاريخ القديم .

ان هذه الاوضاع التجارية (والمعروف ان النشاط التجاري يؤدي الى وحدة قومية أول مظاهرها الوحدة اللغوية) وهذه التنقلات السكانية لابد وأن يسفر عنها بالضرورة تجانس لغوي ، أن لم نقل وحدة لغوية . وهذا التجانس يحتمه نزوع الطبقة التجارية نحو بسط هيمنتها على الاسواق وطرق التجارة ، والحقيقة ان المناطق التي لم تكن تقع عبر طرق التجارة ظلت تتكلم الحميرية حتى اليوم (جبال ظفار مثلاً) ، في حين كانت العربية الحجازية ترغم اليمنية الحميرية على التراجع والاختفاء تدريجياً في كل مكان كانت تطؤه أقدام التجار وقوافلهم . وأظن أن الحميرية أخذت تتراجع أمام الحجازية أثر اخفاق التبع حسان في حملته على الكعبة ، أي منذ أخريات القرن الخامس الميلادي . وفي ميسورنا القول بأن الغزو الحبشي للحجاز بعد اليمن لابد من ان يكون قد خلق شعوراً قومياً لدى العرب أزاح ضغائنهم الاقليمية ، أو ارجأها ، نظراً للخطر المشترك ، الامر الذي يمكن ان يكون قد أفاد اللغة الحجازية ، وذلك عبر تخفيفه للعصبية اليمنية التي كانت مضطرة الى التواري ليحل محلها شعور قومي عربي . وليس هذا من قبيل الظن ، لأن الشعور القومي قد برز فعلاً في ذي قار . والحق ان هذا الشعور القومي كان أساساً من أسس الاسلام ، الذي أفاد منه في تأليب العرب ضد الفرس والروم .

وهذا لم يكن صدفة ان يقام سوق عكاظ بالقرب من مكة ، إذ هو شكل من أشكال ربط الشعر بالسوق وبعاصمة العرب (مكة) أيضاً . ومن أشكال هذا الربط الاخرى تعليق المعلقات على جدار الكعبة . ان سوقاً واحدة تقام للبضاعة والشعر (والحقيقة ان منظمي هذه السوق قد استغلوا خصيصة نفسانية أساسية في العربي : حب الشعر) في مكان واحد كفيلة بأن توجد نوعاً من التجانس اللغوي بين القبائل ، وان ظلت هذه القبائل تحتفظ ببعض سمات لهجاتها وببعض مفرداتها المحلية . لو استطاع

الرائد الكبير ان يربط الوعي بأرضيته الاجتماعية – الاقتصادية لعرف حال اللغة العربية في القرن السادس الميلادي .

والحقيقة أنه مامن شيء أدل على علاقة اللغة وتطوراتها بحركة التجارة من ان لغة الجاهلية العليا أرق وأكثر بعداً عن الالفاظ الخشنة من لغة الجاهلية الدنيا . وهذامايعكسه الشعر الجاهلي بوضوح ، وهو يعني ، أول مايعني ، ان لغة البدو الخشنة كانت تتراجع لتخلي الساح أمام لهجة الحضريين التجارية الرقيقة . كما يعني ان المدن كانت تنمو باطراد وتمارس تأثيرها الواسع والعميق على البادية . ان وجود فوارق لغوية جوهرية بين شعر الجاهلية الدنيا وشعر الجاهلية العليا لهو دليل فصيح على ان العربية كانت تمارس الازاحة على كافة اللهجات واللغات العربية الاخرى ، وان هذه الازاحة بلغت الذروة في الآونة التي سبقت ظهور الاسلام مباشرة . والحق ان هذا التطور اللغوي باتجاه الاسلوب الأرق مؤشر يتجه صوب ابراز حقيقة فحواها ان شعر اواسط القرن السادس كان بدوره طوراً متقدماً – لغوياً وفنياً – بالاضافة الى طور سبقه . فلو تحدر الينا شعر جاهلي ينتمي الى القرن الخامس لوجدنا الفرق شاسع البون بين لغته ولغة أوس بن حجر ، مثلاً ، ومرد ذلك الى ضآلة تأثير التجارية (الميركنتلية) على التطور اللغوي في تلك الحقبة السحيقة بالمقارنة مع تأثيرها على شعر القرن السادس ، ولا سيما ما كان منتمياً الى أخريات القرن نفسه . ففي الجاهلية العليا لم يبق أمام التجارية الحجازية الا أن تقيم وحدة العرب السياسية لكي تهيمن على السوق هيمنة مطلقة .

ان لغة الخنساء ، وهي من المتأخرين ، تختلف كثيراً عن لغة شعراوس بن حجر ، وهو من السابقين عليها . ولا يمكن أن يكون شيء مسؤولاً عن هذا التحول اللغوي الا تحول الحجاز في القرن السادس الى نقطة محورية ترتبط بها القبائل العربية . فالحجاز المدني قد أثرعلى لغةالقبائل وأخذ يدخل فيها الفاظه الرقيقة ويدفع بألفاظهاالصحراوية غير المنعمةالىالاختفاء . وهذا لايعني أن الحجاز لم يؤثر في لغة المرحلة الجاهليةالدنيا ، بل يعني ان تأثيراته قد تحولت الى قفزة في الجاهلية العليا نتيجة لتراكمات سابقة كانت تفعل فعلها النوعي في مراحل التطور اللغوي كافة .

ولعل مما هو بليغ الدلالة ان القبائل التي قرأت القرآن الحجازي اللغة لم تأخذه مترجماً الى لغاتها ، ولم نسمع قط عن أية عقدة لغوية كان يسببها القرآن لغيرالحجازيين، إلا بقدر ما كان يسبب للحجازيين أنفسهم ، الامر الذي من شأنه أن يشير الى وحدة

لغوية سابقة على القرآن . والحق أن الشعر الجاهلي هو الذي حل له هذه العقبة قبل قرن من ظهور الاسلام على الأقل . وهذا يعني ان علينا أن ننطلق من الشعر الجاهلي لدراسة تطور اللغة ، لا من تطور اللغة لاثبات صحة الشعر الجاهلي .

ومع ذلك كله ، لم يلغ الشعر الجاهلي فوارق اللهجات ، بل هي ظاهرة واضحة لكل من شاء أن يتحراها ، ولكنها في الحقيقة طفيفة وليست بارزة بشكل مميز . كما ان حجة القراءات السبع لاتدحض ان اللغة الحجازية كانت قد سادت قبـل الاسلام معظم أرجاء الجزيرة العربية، بل هي تنفي أن تكون هذه اللغة قد أصبحت لغة الحياة اليومية لدى الرجل العادي . ان لغة الحجاز كانت قد أصبحت في القرن السادس لغـة التجارة والارستقراطية والمشتغلين بالأدب والدين والمعرفة بوجـه عام ، وباختصار هي لغـة الرجـل الخاص . وما ذلك الا نتيجـة لما استطاعت التجارة الحجازية أن تحققه حين تمكنت من أن توثق كافة اسواق العرب بسوقها الرئيسي (مكة) . والدليل على هـذا الربط ، وعلى نفوذ مكة بين العرب طراً ، هو أن مجرد دخول هذه المدنية في الاسلام قد جر العرب جميعهم الى هذا الدين الجديد ، بما في ذلك اليمن . ولو لم تكن اليمن تدين بنوع من الولاء للحجاز في تلك الحقبة لما كان لاسلامها أن يأتي الا بالسيف .

ولا ريب في أنه لو كانت هـذه الفوارق الهجوية عظيمة الشأن لظهرت في شعر القرن الاول الهجري ، لأنه ليس من اليسير أن تنطفيء هـذه الفوارق بمجرد ظهور الاسلام ، الا اذا كانت قد سبق لها أن انطفأت حقاً . ان غياب كافة الفوارق اللغوية من شعر القرن الاول الهجري لايعني انها ذابت بعد الاسلام ، بقدر ما يعني أن التقليد الشعري كان يقضي بقول الشعر بلغة الحجاز منذ ما قبل الاسلام .

ان الغاء عثمان للقراءات السبع يؤكد أن الفوارق الهجوية واللغوية لم تكن عظيمة أو ذات شأن ، والا فما كان عثمان ليقدم على ذلك الالغاء . أما نزول القرآن على سبع لهجات ، في حين جاء الشعر الجاهلي على لهجة واحدة ، فما ذاك إلا لأن القرآن كان يتجه الى الرجل العادي بالدرجة الاولى ، أعني الى الجماهير بلغتنا المعاصرة ، ولما كان من المهم أن تفهم الجماهير الكتاب فقد كان من الضروري الاستعانة بالقراءات السبع .

وثمة مسألة أخرى : ان غياب شعر حميري ينتمي الى القرنين الاول والثـاني الهجريين يعني ان اللغة الحميرية كانت قد كفت عن كونها لغـة أدب قبل هذه المرحلة ، حين بدأت اوربا تتحول الى لهجاتها او لغاتها المعـاصرة وتنفصل عن اللغة اللاتينية ،

كانت المؤلفات يظهر بعضها بهذه اللغة وبعضها الآخر باللغة المحلية ، بمعنى ان ازاحة اللاتينية او الانقطاع عنها كان تدريجياً . فاذا صح أن لغة قرنين قد محت او ازاحت لغة حمير بعد الاسلام، فان هذه الازاحة كان ينبغي ان تكون تدريجية هي الاخرى ،وبالتالي فان لغة حمير كان ينبغي عليها الاستمرار في التواجد عبر القرنين الاول والثاني الهجريين ، وكان لا بد ، اذن ، ان يكتب تراث بالحميرية في هذين القرنين مثلما كتب بالحجازية ، وفي عصر كانت فيه حركة التأليف سائدة ، فلماذا لم يصلنا شيء من هــذا ؟ من المؤكد أنه في عهود الانتقال اللغوي تتجــاور اللغتان الهابطة والصاعدة لحقبة من الزمن ، بحيث تغدو اللغة الصاعدة لغة ثقافة ، في حين تتوارى اللغة الهابطة من الوجود بالتدريج ،ولا سيما في القرون الوسطى التي تنعدم فيها وسائط الاتصال الجماهيري وتختص الارستقراطية وحدها بالثقافة . ان اللغة العربية المعاصرة ، رغم كل ما تبذله الدول العربية من اموال على التعليم المدرسي والجامعي، ورغم توسع رقعة التعليم ، ورغم انتشار وسائط الاتصال الجبارة، ولا سيما الاذاعة والصحيفة، رغم كل ذلك لم تستطع الفصحى ان تزحزح العامية الا زحزحة نسبية . ان قرناً آخر من التطور المريع لن يلغي العــامية . ان عدم وراثتنا لشعر حميري ينتمي الى العصر الاموي (العصر الذي احتدم فيه الصراع بين القيسية واليمانية أوجه) لا يعني الا أمراً واحداً فحواه أن الحميرية كانت قد سبق لها ان كفت عن كونها لغة الأدب والتجارة والنبلاء البدو في عهد سابق على القرن الاول الهجري ، ترى أما كان بوسع القالي ، حين اتهم خلف الاحمر بأنه مؤلف اللامية ، ان يقول بأن لغة الأزد كانت حميرية واللامية مكتوبة بالعربية ، الامر الذي من شأنه ان يدعم تهمته ، لو انه كان يستطيع ان يحتج بهذه الحجة ؟ ان كل من تعرض لمنحول الشعر الجــاهلي من الرواة والمؤرخين القدماء ، كابن سلام مثلاً ، لم يتطرقوا الى فرق لغوي بــين اليمن والحجاز . لماذا ؟ أليس لأن هذا الفرق كان ملغياً بالفعل ؟

خــاتمة :

لم نتطرق الى ما اورده المرحوم طه حسين من أسباب انتحال الشعر، بل اكتفينا بحجتيه اللتين ظنها نافيتين للشعر الجاهلي ، ونحن نؤيد الأسباب التي قدمهــا المرحوم للانتحال ، فالسياسة عامل ، والدين عامل ، والشعوبية عامل ، والعصبية عامل آخر . فلا شك في أن قصائد ومقاطع وأبيات قد انتحلت وحملت على الجاهليين حملا للاسباب

الوجيهة التي قدمها المرحوم ، غير أنه ما من سبب في العالم يمكن أن يكون مسؤولاً عن انتحال عصر بأكله او بمعظمه .

وحين نراه يقدم العصبية كسبب من اسباب الانتحال فانه يعجز عن أن يرى الموقف بجدليته الثنائية ، اذ أن العصبية نفسها كفيلة بأن تفضح كل انتحال تنسبه احدى القبائل الى نفسها .

والحقيقة أن المرحوم يقبل اموراً لا يمكن لعالم أن يقبلها ، منها مثلا :

أ – « ولابن سلام مذهب من الاستدلال لاثبات ان اكثر الشعر قد ضاع . ولا بأس بأن نلم به المامة قصيرة . فهو يرى ان طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين واشدهم تقدماً ، وهو يرى أن الرواة المصححين لم يحفظوا لهذين الشاعرين غير قصائد عشر ... وشق على الرواة ، او على غير الرواة ، الا يروى لهذين الشاعرين الا قصائد عشرة فأضافوا اليها ما لم يقولا ، وحمل عليها – كما يقول ابن سلام – حمل كثير . » (ص ١٣١) أهكذا « شق على الرواة » !؟ ألأنه « شق » عليهم راحوا ينسبون الى هذين الشاعرين الكثير من القصائد المنحولة ؟ والأهم من ذلك ، لماذا يرفض المرحوم الاخبار التي تثبت صحة الشعر الجاهلي، ويقبل خبراً أوهى من خيوط العناكب كهذا الخبر ؟ ان « شق على الرواة » لا يمكن أن تكون سبباً للانتحال .

ب – « ولامر ما شعروا [العرب] بالحاجة الى اثبات ان القرآن كتاب عربي مطابق في الفاظه للغة العرب ، فحرصوا أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت ان هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل الى الشك في عربيتها» . (ص ١٣٨) ترى ، ماهو هذا « الأمر » ؟ وكيف نفسى أن القرآن ينص بصراحة قائلا : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » ؟ اذن ما الحاجة الى الشعر الجاهلي لاثبات عروبة هذا الكتاب طالما انها ثابتة بنص قرآني ؟ ولكن المرحوم مايلبث أن يناقض نفسه على الفور ، أو بعد بضعة اسطر ، اذ يقول : « .. اننا نعتقد أنه اذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته شكاً ولا ريباً ، وهو لذلك اوثق مصدر للغة العربية ، فهو القرآن » . (ص ١٣٨) .

ج – يرى المرحوم أن الشعر الجاهلي انما انتحل لتستخدم مفرداته لتفسير القرآن ترى ، لماذا نجد الكثير من القصائد يغلب على مفرداتها الطابع اللا قرآني ، عنيت أن معظم هذه المفردات ليست موجودة في القرآن ، ولا صلة لها به ، فكيف تصلح هذه القصائد للقيام بخدمة الكتاب ؟

وقد لا نعدم رابطاً يؤصر بين نزوع المرحوم نحو نفي الادب الجاهلي ، وبين نقيه لكون مصر بلداً شرقياً ، او مادعاه المنظر الكبير ، سمير امين ، بالنزعة الغربوية عند طه حسين (Occidentalism) ، وعلق عليها في كتابه « النمو المتكافىء » بقوله : « وهذه نزعة غربوية سطحية تغطي فراغاً ثقافياً حقيقياً ». (راجع : مجلة «دراسات عربية » ، اذار ، ١٩٧٤ ، ص ١٤٤) والرابط في يقيني هو ان نفي الادب الجاهلي يغطي بدوره الفراغ الثقافي نفسه لعصر الريادات الكبرى في مرحلة مابين الحربين العالميتين ولولا هذه التغطية ، هذا الستر او الاخفاء لضحالة العصر ، لبرهن الرواد على فضيحة ثقافية هائلة .

ويجمل بنا كذلك ان نقدم الرأي الرويع الذي قدمه المفكر الشهير عبدالله العروي عن كتاب المرحوم طه حسين الذي بين ايدينا ، وذلك في كتابه الذائع الصيت : « الايديولوجية العربية المعاصرة » (ص ١٥٦) : « ان كتاب طه حسين لم يضف بالمعنى الدقيق للكلمة ، شيئاً لفهم ذلك الادب » . وقد صرح العروي بأن المرحوم كان قد تبنى وطور « اشارات مرجوليوث لنفي صحة الشعر الجاهلي » ، مما يتيح لنا الذهاب الى انه لولا مرجوليوث لما كان كتاب طه حسين هذا . ورأى العروي ان الكتاب « هام في قسمه العام والنهاجي مثلما هو ضعيف وخفيف في قسمه التطبيقي ، الى درجة ان معاصره المازني قد قارنه بموضوع انشاء كتبه طالب » .

ان ما أشدد عليه كاثبات لصحة الادب الجاهلي هو صدق العاطفة الذي يحتم صدق التجربة والمعاناة . ان صدق العاطفة هو اول واهم حكم نحتكم اليه ، اذ يمكن اصطناع كل شيء إلا العاطفة الصادقة ، سواء في الشعر او في المواقف المعاشية الاخرى . ولا ريب في ان المستحيل بعينه ان يكون تفجع الخنساء ، مثلاً ، منحولاً ، لأنه لايمكن ان يصدر الا عن روح احرقتها فجيعة مروعة .

طه حسين
ليبرالية وتكاملية

رجاء طنايع

يحلو لي أن أتخيل طه حسين انساناً من نوعية خاصة نادرة ، انساناً استطاع أن يتفهم المتناقضات ، وان يتمثلها ، وان يعكسها نظرة شمولية جعلت منه أبرز رائد عرفه تاريخ الأدب العربي المعاصر . استطيع ان أتخيله في اوائل هذا القرن شاباً ذكياً يتمتع بتفتح ذهني يفوق العادة ، تفتح أغناه عن فقدان البصر ، ودفع به في طريق العظماء .

لو ألقينا نظرة تاريخية سريعة على الحياة الفكرية والادبية في مصر في أوائل هذا القرن لوجدنا التأثيرات الحضارية الاوربية أخذت تدق أبواب الشرق الموصدة منذ زمن بعيد على ماض تراثي قديم عريق ، وجيل طه حسين هو الجيل الشاب الغض الذي تعرض لهذه التأثيرات الجديدة .

كان طه حسين في تلك الفترة طالباً في الازهر ، يتردد على أستاذه « سيد علي المرصفي » ويستمع الى أحاديثه ، ويتشبع بالثقافة التقليدية ، ويتمثل التراث العربي القديم ، في الوقت نفسه الذي كان يتردد فيه على الجامعة ، وينصت الى محاضرات « كارلو نللينو» هذا المستشرق الذي كان له الفضل الاول في تفتح طه حسين على الفكر الاوروبي ، وعلى مناهج البحث العلمي الحديثة . استطاع طه حسين ان يتمثل هذين الاتجاهين المتناقضين ، وذهب الى فرنسا ، واطلع على الآداب اليونانية والرومانية القديمة ، وبعد عودته الى مصر كان لديه الكثير ليقوله ، والكثير ليفعله ، عاد وأسهم في الحياة الادبية والفكرية ، وكانت آراؤه ودراساته النقدية بمثابة ثورة فكرية ، اتت في مرحلة زمنية مناسبة . تعبيراً عن احتياج موضوعي لها .

— ١ —

احتل الفكر الليبرالي مكانه في الحياة الفكرية الأوروبية نتيجة تغييرات اجتماعية احدثتها اسباب متعددة ، واصبحت الليبرالية في مطلع هذا القرن موضة العصر ، وأماً لمعظم التيارات والمذاهب الفكرية والفنية التي اجتاحت العالم ، ولا تزال حتى ايامنا هذه تحتل جزءاً هاماً كبيراً من الكيان الفكري العالمي المعاصر . .

وكان طبيعياً أن يتأثر طه حسين ــ أثناء دراسته في فرنسا ــ بهذه التيارات الجديدة ، وبلغ من عمق هذا التأثير أن طبع بصماته على المنطلقات الأساسية لتكوينه الفكري :

١ ــ حرية الفكر والأدب :

أتت « حرية الفكر والادب» مقولة ليبرالية أساسية بين المقولات التي طرحها طه حسين ، واكد عليها في جميع مراحل إنتاجه الأدبي . لقد ادرك ان مظاهر الجدب والعقم التي تتعرض لها الحياة الفكرية والادبية تكمن أسبابها في الافتقار الى الحرية ، واعتبر الرقابة السياسية عدوه اللدود الذي عليه استئصاله ، واكد اكثر من مرة على اهمية كون الادب مستقلاً في مواضيعه وفي طريقة معالجته لهذه المواضيع ، وان الحرية وسيلة لدراسة الادب كغاية جمالية مطلقة ، هذه الغاية الجمالية هي التي تحقق المتعة الفنية لدى الكاتب

والقارىء معاً، وهي التي تدفع النوعية الانسانية أو البشرية في طريق السمو ، وترتفع بها عن ترهات وعبثية الحياة المادية العادية .

إن هذه الرؤية لماهية الأدب ولهدفيته هي التي تستطيع أن تحرره من اغلاله ، والانطلاق من أن الفكر مسخراً لخدمة نظام سياسي معين هو الذي يدفع به الى الجمود، ويجعله بوقاً دعائياً لاأكثر ولا اقل .

وحرية المفكر أو الاديب أو الناقد يكفلها له الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ولاينسى طه حسين التأكيد على ان الحرية الفكرية تتناسب طرداً مع الدرجة الحضارية التي يصل إليها هذا الوسط الاجتماعي ، لايجب أن نطالب المفكرين والادباء بالحرية ، لانهم أحرار فطرياً. فكونهم مفكرين وادباء يجعلهم عشاقاً للحرية. هنا يبرز الدور الحاسم للمجتمع المطالب بتأمين هذه الحرية المقدسة ، والمجتمع لايعني الحكومات او الجهات الرسمية فحسب ، بل يعني ايضا الجماهير الشعبية ،ان الحكومات في نهاية المطاف انعكاس للجماهير، فهذه الجماهير التي تسير وفق تقاليد معينة ، وتحكمها خلفيات فكرية ثابتة وراسخة ، هي المعنية هنا ، هي المطالبة بتأمين حرية المفكرين والادباء ، وتتحقق هذه الحرية عن طريق تقبل التجديد، بعدم التعصب ،بالرأي العام المتسامح ، بالنظرة اللااحادية للأمور..

هذا العرض لآراء طه حسين في حرية الادب واستقلاليته لا يجب أن ينسينا أنه كان أكثر ما يكون بعداً عن الفردية ، فهو لم يدع مطلقـاً الى أدب فردي ، بل اعتبر الادب أولاً وآخراً ظاهرة اجتماعيـة ، فهو يستمد مبررات وجوده من البيئة التي يترعرع فيها ، اذ لا وجود لأدب لا يقرؤه الناس ، ولا وجود لفن لا يسترعي انتباههم ولا يستمد موضوعاته مما يشغلهم ومما يشكل حيزاً كبيراً من وجودهم واهتماماتهم .ومهما كان الاديب فردياً او عبثياً فانه عندما يكتب يفكر بالناس الذين يتوجه اليهم بكتاباته فهو « لا يكاد يكتب ، بل لا يكاد يأخذ في الكتابة حتى يحس الحاجة الملحة الى ان يقرأ الناس ما يكتب ، فمن طبيعة نفســه ان يكتب ، ومن طبيعة نفسه أن يتصل بالناس ليقرأوه ، ويشاركوه في الحس والذوق والشعور » .

ولكن هذا المنطلق في رؤية الادب ، وفي توضيح العلاقة الجدلية الحتمية بينـه وبين الناس، سلاح ذو حدين، ويكمن الخطر في المحاولات العديدة التي يقوم بها بعض الأدباء لتملق قرائهم ، مما يدفعهم الى التهاون في تحقيق المستويات الفنية الجيدة في انتاجهم .

والأديب الجيد هو الذي « يجب ان يرقى اليه قراؤه حيث هو ، ولا يجب ان ينزل اليهم حيث هم ، وليس معنى هذا ان يستعلي عليهم أو يزدريهم أو يزور عنهم ،وانما معناه أنه يهبط اليهم فيشتق منهم مادته ، ويجني منهم حلوهم ومرهم ، ويستخلص منهم صفوهم وكدرهم ، ثم يعود الى نفسه فيخلو اليها ، ويستخرج نتيجة هذا كله رائقة صفواً يعرضها على الناس في الصورة التي يحبونها هم » .

فالاديب الجيد يسعى دائماً الى تنمية الملكات التذوقية لدى قرائه ، بأن يقدم لهم أدباً نظيفاً ، مستوفياً شروطه الجمالية .

رحب طه حسين بالخصومات ، واعتبرها قوام الحياة ، فالصراع ظاهرة حتمية وطبيعية بين الاجيال قديمها وحديثها ، وبين أبناء الجيل الواحد .

كان طه حسين يحلم بتحقيق شروط اجتماعية وحضارية يستطيع بموجبها كل فرد أن يقول ما يشاء . . اعتبر كاتبنا الحرية جواز مرور الى الإبداع ، وشرطاً مقدساً لتحقيق انسانية الانسان في المستويات كافة .

٢ ـ اللامذهبية الفكرية والأدبية :

لم يدع طه حسين أية مدرسة فكرية او فنية تستعبده ، وتجعله يدور في فلكها ، كان بفضل فكره العميق ، وثقافته الواسعة المتنوعة ، قطباً تحاول مختلف المذاهب جذبه ، وكان كل مذهب في عملية الجذب هذه يبطل مفعول الآخر .

كره طه حسين التأطير الايديولوجي مها كان مصدره ، واعتبره ضد الحياة ، وضد طبيعة الأشياء ، وآمن دوماً أن للحقيقة أكثر من وجه ، لأن الحياة خضم كبير ، قوامه الحركة المستمرة ، ولا تستطيع الإرادة البشرية ان تخضعه للمنطق .

نظر طه حسين الى الأدب كما نظر إلى الحياة ، فالأدب الحق عنده يكره الخضوع للعموميات والتجمد المذهبي ، ودخل في محاورات مع اصحاب المذاهب والأفكار الجديدة التي اكتسحت مصر والعالم العربي ، كتعبير ايديولوجي عن التغييرات الاجتماعية الثورية ، في المنطقة ، وركز جهده في مناقشة آرائهم ومنطلقاتهم الاساسية بروح حاول مخلصاً ان تكون موضوعية ، مثال على ذلك مقال بعنوان « الحياة في سبيل الادب » يرد فيه على دعاة « الادب في سبيل الحياة » . فطه حسين يعتقد ان شعار « الادب في

سبيل الحياة » لا يحمل مضموناً واضحاً ، ولايدل على معنى محدد دقيق ، وإنما يعكس عدة مفاهيم قد تكون متناقضة وغامضة :

فقد يفهم العامة ان هذا الشعار يدعوا الى تسخير الأدب في سبيل الحاجات المادية اليومية الصغيرة ، وقد يفهم المثقفون انه يدعوا الى كون الادب داعية الى مذهب بعينه من المذاهب الاجتماعية المادية الحديثة « وهو ان الادب يجب ان يكون مسخراً لاقناع العامة واشباههم بأن الحياة مادة ليس غير، وبأن الروح وما يتصل بها من العقل والقلب والملكات المختلفة ، اساطير هام بها القدماء ، وهي لا تغني من الناس شيئاً » .

ويعتقد طه حسين ان غالبية الذين يرددون عبـارة « الادب في سبيل الحياة » لايريدون المذهب المشار اليه ، فالحياة التي يجب ان يتجه اليها الادب ، والتي يتجـه اليها بالفعل شأنه شأن العلم والفن والفلسفة « إنما هي حياة الجماعات الانسانيـة من حيث انها جماعات طامحة بطبعها الى الرقي والسمو ، والى الكمال بقدر الطاقة في جميع فروع النشاط الذي تبذل فيه جهودها على اختلافها » . ويرى طه حسين انه اذا اتفق على صحة هـذه المقولة ، فالادب في اي زمان ومكان ، وتحت مختلف الظروف الاجتماعية والسياسـية يغدو محرضاً للجماعات الانسانية في ارضــاء حاجتها الى السمو والكمال ، وترقية حياتها الاجتماعية ، حتى أصحاب النزعات المتطرفة من انصار « الفن للفن ، لايترفعون بأنفسهم عن الجماعات الانسانية ، ولا يجعلون انفسهم ملائكة ، ولا يعيشون في السحاب » ولكنهم يعطون أنفسهم والانسانية جمعــاء الحق في ان تصرف بعض نشاطها وطاقتها في التذوق الجمالي الخالص . والارتفاع بين الحين والحين فوق ميكانيكية الحياة اليومية العادية ، فهم في نهاية المطاف يريدون الخير والاصلاح لانفسهم ولغيرهم .

من هذا المنطلق يؤمن طه حسين بحتمية كون الادب مصلحاً وفي سبيل الحياة ، وان البرج العاجي خرافة يجب نفسها من جذورها ،« والمحقق ان الأدب الذي لا يتوخى إصلاح الجماعات الانسانية من بعض وجوهها لم يوجد بعـد . وان الادب منذ كان ، كالفن منذ كان ، وكالعلم والفلسفة منذ كانا ، ظواهر اجتماعية لا تستطيع ان تبرأ من ذلك حتى حين تحاوله ؛ ولا يستطيع انسان عاقل أن يجادل في ذلك أو يشك فيه » .

ويمضي طه حسـين في محاوراته مع الجيل الجديد ، كان يشعر بمسؤوليته كأب لهذا الجيل ، أب يقع عليه عاتق إرشاده ونصحه ، ودعوته الى الأناة والتريث في إصدار أحكامه على الجيل القديم ، وعلى فكره وأدبه .

كره طه حسين التطرف واصحابه ، كان يؤلمه كثيراً أن يرى بعض النقاد والأدباء يتقوقعون داخل اطار من التراكيب الجاهزة، والاحكام المسبقة ، ويغلقون على أنفسهم أبواب الحياة بديناميكيتها وحيويتها وتجددها المستمر ، أرادهم ان يفتحوا أعينهم ويروا الحقيقة الخالدة ، حقيقة ان الحياة واسعة ، وقوانينها متناقضة ، وظواهرها متباينة ، وانّنا لكي نستطيع ان نتفهمها ، علينا أن نهتم ببعديها المادي والروحي معاً، وكذلك الادب ، عليه ان يبتعد عن التقوقع ، وان يكون شمولياً في موضوعاته ، انسانياً في اهدافه ، يسعى الى تجسيد الجمال ، لذلك يجد طه حسين « المتعة في شعر إليوت ،' وقصص جيمس جويس ، كما اجدها في شعر مايكوفسكي ، وقصص ايليا اهرنبورج . كل ما فيه روعة وجمال يروقني ويشوقني ، ويمتعني ويرضيني مهما يكن موضوعه . لا انفر من الادب المادي لأنه مادي ، ولا احب الادب الروحي لأنه روحي ، وانما انفر من الآثار التي لا تحقق معنى الادب ، ولا تهدي الى ما ينبغي ان يهدي الادب' اليه من هذا الشعور بالجمال سواء اصور المادة ام صور الروح » .

— ٢ —

نستطيع بعد هذا العرض المكثف ليبرالية طه حسين، وانعكاس هذه الليبرالية على موقفه الفكري ككل ، ان نتكهن ان طه حسين كان ذا موقف' نقدي ليبرالي ، فهو في مختلف دراساته النقدية كان ابعد مايكون عن الخضوع لمنهج نقدي معين ، لقد ادرك ان الادب من السمو والجمال والتعقيد ايضاً حيث لايمكن لمنهج واحد او لرؤية واحدة ان تفيه حقه ، وان تبرز خصائصه الجمالية والاخلاقية بشكل واضح ، ودون تعسف .

ومن هذا المنطلق طبق كاتبنا في مختلف اسهاماته النقدية منهجا او طريقة تستعين بمعطيات المناهج النقدية المتعارف عليها وتستخدمها بشكل تكاملي حسب متطلبات المادة الادبية المدروسة .

تعتمد تكاملية طه حسين على خصائص معينة اهمها :

١ — النقد الموضعي : فالناقد الجيد هو الذي يولي المادة الأدبية التي يريد دراستها

اهتمامه الأول ، ويحاول الكشف عن النواحي الجمالية فيها ، وإذا تطلب الأمر الاستعانة بمعطيات العلوم الانسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع فلا مانع من ذلك على أن تستخدم هذه المعطيات لالقاء الأضواء التفسيرية على المادة الأدبية ، التي هي الأساس في الدراسة النقدية، فنحن ندرس نفسية وبيئة هذا الشاعر أو ذاك لأننا نهتم بإنتاجه الشعري بالدرجة الأولى .

فعملية النقد ، ليست تطبيقاً ميكانيكياً للمبادىء النقدية على المادة الأدبية ، بل إن المادة الأدبية هي التي توحي بنوعية المناهج النقدية المستخدمة في عملية النقد هذه .

٢ — الروح الموضوعية في النقد : فالناقد لا ينقد لمجرد النقد ، وإنما يدعوه النقد حبه للحق، لذلك عليه أن يكون نزيهاً في نقده، وأن يعترف بالخطأ إن أخطأ لأن وظيفة النقد الأساسية « هي تمحيص العلم والأدب والفن . وليست وظيفته الثناء والتقريظ . أو الذم والتجريح » وهذا يستدعي كون النقد حراً من أي قيد يعوقه عن تأدية وظيفته هذه ، فلا يتقيد « بالمجاملة أو نحوها ، ولا يشتط فيتخذ النقد وسيلة للطعن في أخلاق الأحياء ، أو استنباط أخلاقهم ، فاستنباط الأخلاق سبيل يسلكه الباحث مع القدماء الذين أصبحت حياتهم ملكاً للتاريخ » .

٣ — الاعتماد على مناهج البحث العلمي الحديث ، واتخاذها ارضية او قاعدة في مختلف الدراسات الادبية :

أ — يتبنى طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » منهج « ديكارت » الفلسفي ، الذي يعتمد على الشك ، ويتخذه مقياساً لاثبات وجود ذاته المفكرة ، ومن اثبات وجود ذاته المفكرة هذه ، يثبت وجود الله ووجود الكون ، ويستخلص قاعدته الشهيرة « انا افكر إذاً انا موجود » .

اكد طه حسين — انطلاقاً من منهج ديكارت — ان الوصول الى الحقيقة فيما يتعلق بالادب القديم يحتم علينا ان ننسف كل معتقداتنا التراكمية التي وصلت الينا ، عبر قرون طويلة ، وان نستقبل « هذا الأدب وتاريخه ، وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيه من قبل ، وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة ، التي تحول بيننا وبين « الحركة العقلية الحرة » ، وهذا يستدعي ان نتجرد من عواطفنا القومية والدينية « وان ننسى

ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية »، وان نلغي نظرة التقديس الاعمى والاجوف لكل ما هو قديم ، ولا نتقيد بشيء ، « ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الحديث » .

ب ــ استعان طه حسين بالعلوم الاجتماعية في دراساته النقدية ، ورجع كفة العامل الاجتماعي واثره على الادباء وعلى النتاج الادبي ، وتأثر بمذهب المفكر الفرنسي «تين» الذي نادى بأن شخصية الكاتب او الشاعر تلتمس من المؤثرات المساهمة في تكوينها .

وهذه المؤثرات تتمثل بالجنس او العرق الذي نشأ منه ، وبالمكان او البيئة الجغرافية التي عاش فيها ، وبالمرحلة الزمنية بأحداثها السياسية او الاقتصادية اوالفكرية، كما أكد « تين » على حتمية أثر هذه العوامل في النتاج الادبي أيضاً .

ويرى طه حسين ان الفرد ظاهرة اجتماعية ، فتكوينه النفسي والفكري لم يأت من الفراغ ، بل هو في غالبيته نتاج بيئي ، وعنصر الفردية فيه ضئيل ، وما ينطبق على الفرد العادي ، ينطبق على الشاعر أو الكاتب فهو « لايستمد أدبه من شخصه وحده ولو استطعت لقلت أنه لايستمد شخصيته من شخصه وحده ، إنما يستمد أكثر فنه ، وأكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها، وليس لطبيعته ، ومزاجه ، وفرديته فيها كل مانظن من التأثير » .

حـ ــ لم يهتم طه حسين بعلم النفس كثيراً ، وهو يعترف أنه قليل الإلمام به ، ولكنه لم يمانع من تطبيقه على الادب الحديث ، مع عدم الإسراف في ذلك لان الاولوية في هذا المجال هي للمنهج الاجتماعي ، واستنكر كاتبنا تطبيق المنهج النفسي على الشعر العربي القديم ، وأكد ان هذا التطبيق تعسفي ومشوه للتراث ، لانه يحمله أكثر مما يحتمل ، فضلاً عن ان معظم المرتكزات التي يعتمد عليها المنهج النفسي ماتزال فرضيات لم تقم البراهين على صحتها .

كما ان التفاصيل الحياتية لمعظم الشعراء القدامى ، والتي تشكل المادة الخام التي يعتمد عليها المنهج النفسي غير متوفرة في أغلب الاحيان ، وإن توفرت فهي غير موثوقة .

د — اهتم طه حسين بالتاريخ الادبي ، ووصلت عبقريته الى أوجها في هـذا المضمار ، واعتبره أرضية صلبة على كل ناقد ان يسعى للوقوف عليها لتأمين الاستمرار والتناسق لاحكامه .

وأكد دائماً على العلاقة الجدلية بين التاريخ والحياة الادبية ، وامتازت دراساته التاريخية بالرؤية الواضحة والتحليل الجيد .

تعرضنا لأهم مناهج البحث العلمي التي حاول طه حسين تطبيقهـا في دراساته الادبية ، ويجب التنويه ان طه حسين كان موضوعياً في تطبيق هذه المناهج ، وتذوقياً في استنتاج احكامه النقدية، فعمله كان مزيجاً من العلم والفن ، وقد تعمد ذلك لان الناقد الجيد لايقتصر على مناهج البحث العلمي «وإنما هو مضطر معها الى التذوق، هو مضطر معها الى هذه الملكات الشخصية الفردية التي يجتهد العالم في ان يتحلل منها » .. فالنقد عند طه حسين «شيء وسط بين العلم الخالص ، والادب الخالص : فيه موضوعية العلم ، وفيه ذاتية الادب » .

٤ — تقويم العمل الادبي من خـلال اخلاقيته وشكليتـه ، مع التركيز على الناحية الجمالية :

اكد طه حسين كثيراً ، ان غاية الادب الاساسية ، هي السمو بالنفس ، وادراك لذة التذوق الفني الرفيع ، بغض النظر عن القيمة الاخلاقيـة لهـذا الادب ، فالكلام « لايكون ادباً حتى يوجد فيه هذا الجمال الذي تجده فيما تنتجه الفنون الجميلة الاخرى، وليكن موضوع الادب بعد ذلك ما يكون ، ليكن موضوعه جميلاً أو قبيحاً ، محبباً أو بغيضاً ، فليس يعنيني من الأدب إلا أن يحـدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من الشعور بالجمال » .

وطه حسين لا يرى انفصالاً بين صورة الادب ومادته ، اي بين شكله ومضمونه، فلا وجود لمعان مجردة من ألفاظها ، ولا وجود لالفاظ فارغة من محتوى معنوي ، فالالفاظ والمعاني ممتزجة ومتحدة حكماً ، « وإذن فصورة الادب ومادته شيئان لا يفترقان ، أو هما شيء واحد اذا شئت ، اضف اليها عنصراً ثالثاً ... وهـذا العنصر

يلزمها لزوماً لا فكاك منه وهو عنصر الجمال » .

فالجمال مقياس أساسي للحكم على الادب « وحيثما وجد الجمـال في الكلام كان الادب ، وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون »

هكذا كان طه حسين ؛

كان ببساطة : ليبرالياً وتكاملياً

ماوراء حديث الأربعاء

ظافر عبد الواحد

اذا كنت لم أعاصر عميد الأدب العربي معاصرة تامة ، فقد عاصرته فكرياً بضعة أعوام ، وهي الفترة القصيرة بين بدء وعيي الثقافي وانقطاعه عن التأليف تقريباً في حوالي عام ١٩٥٢ . وقد روى لي احد الرفاق قبل حرب تشرين التحريرية كيف رفض الدكتور طه حسين أن يشترك في ندوة تلفزيونية مقابل خمسين جنيهاً مصرياً . وأبى أن يقل أجره عن أجر الراقصة المصرية الشهيرة نجوى فؤاد . ولم يكن مساوماً ، بل كان يكرم رياضة العقل على هز البطن ، أو انه نوع من القرف . وعلى من يريد أن

يعرف هذا المفكر الكبير أن يعرف اسباب الغضبة عليه . فهل كانت منها ابحاثه التي كان ينشرها في الصفحة الأدبية لجريدة (السياسة) كل يوم أربعاء تقريباً ؟ لم أطلع على جريدة (السياسة) التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يضم الاقطاعيين ونخبة من المثقفين . كانت أحاديثه أدبية ولم يكن المثقفون اقطاعيين .

جمع طه حسين مقالاته الاسبوعية التي كان ينشرها في جريدتي (السياسة) ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ و (الجهاد) ١٩٣٥ في كتاب (حديث الاربعاء) . ويحمل الكتاب هذا الاسم لأن مقالاته كانت تنشر كل أربعاء تقريباً . و « تقريباً » هذه ضرورية، لأن مقالاته كانت تنشر احياناً في غير يوم الاربعاء . مثل حديثه عن الغزل في جريدة (السياسة) في يومي الجمعة الواقعين في ١٨ و ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ و « تقريباً » تلك ضرورية ، لأنني لاحظت فترة انقطاع بين المقالات أحياناً . مثل الفترة الواقعة بين حديث الاربعاء ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٣٥ وحديث الاربعاء ٨ أيار (مايو) ١٩٣٥ في جريدة (الجهاد) .

صنف الدكتور طه حسين احاديث الاربعاء في ثلاثة كتب نشر اولها في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ وآخرها في عام ١٩٥٢ .

تبدأ هذه الأحاديث في جريدة (السياسة) في ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ في ذلك العام الذي قامت فيه اولى المظاهرات في سورية ضد الانتداب الفرنسي « حينما جاء مستر كراين الاميركي ، فاحتشدت الجماهير وألقيت الخطب ضد فرنسا وأوقف المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورفاقه(١) » .

ويلجأ طه حسين الى الادب ، لأن الخلاف الادبي اسلم من الخلاف السياسي . فلم يحدث خلاف في اسلوب الشعر والنثر ثورة ، في حين كان الاختلاف في تقسيم الثروة أو في نظام الحكم مصدر ثورة. على أن حديثه الادبي في جريدة السياسة دل على رأيه السياسي . مثل اولئك الشعراء الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد بسبب ارائهم السياسية .

ويبدو اتجاهه الى المعاصرة لنتيجة انتقاله من الازهر الى السوربون حيث يقول: « لم يكد يمعن المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على ارض الفرس من جهة والروم

(١) مذكرات خالد العظم ـ الجزء الاول ـ الطبعة الثانية ـ الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٣ ص ٥

من جهة اخرى ، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الامة العربية . وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادي وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين في هذا الفتح والتغلب من المال والغنائم الموفورة التي بدلت حياة هؤلاء الناس فجعلتها يسيرة بعد عسر سهلة بعد صعوبة ولينة ناعمة بعد شدة وخشونة ، والآخر معنوي فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظماً للحكم والسياسة لم يألفوها وطرقاً للادارة وتدبير الامور العامة لم يعهدوها من قبل فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية ايضاً »(١) .

ويرجىء الدكتور طه حسين حديثه عن الشعر السياسي ، الذي استحدث أيام بني أمية ، الى الاسبوع التالي ؛ ولكنه يقفز في الكتاب الى العصر العباسي . ولعل ذلك الحديث نشر في جريدة (السياسة) يوم الاربعاء ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ ولم يعجب السلطة .

وكأن حديث الاربعاء التالي ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ امتداد له . فهو يبين كيف أكره الشعراء على ان يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فامحى فن الشعر السياسي الذي أزهر أيام بني أمية ، ولكنه لا يبخس المثقفين العباسيين حقهم ، صحيح أنهم كانوا لايجتمعون إلا على لذة ، ولكن الدين واللغة والفلسفة كانت حديثهم ايضاً ، مثل الاغريق ويعتقد ان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ويعلنون المجون اصدق لهجة واصح تمثيلاً للعصر الذي كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة . ويشير في الحديث التالي الى ماكتبه بعض الناس في الصحف منكرين حديث الاربعاء لأن لصف القرن الثاني للهجرة لم يكن عصر شك ومجون . ويبدو أن وصفه لهؤلاء الشعراء بالصدق تمجيد للحرية ، تلك الحرية التي اعلنتها الثورة البرجوازية الفرنسية وغدت اساساً للرأسمالية الصناعية المعاصرة مقابل الاسلام الذي طبق نظامه في مجتمع تجاري ، وليست هذه الملاحظة خارجة عن الموضوع . اذ كان الناس في مطلع القرن العشرين يخلطون بين الشرقية والعروبة والاسلام ، مما دعا محمد لطفي جمعة الى ان يتساءل في عدد ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٢ من مجلة « الهلال » في معرض رده على الاستفتاء عن النهضة

---

(١) طه حسين — حديث الاربعاء ٢ ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ص ١٤ — ١٥ .

العربية الذي وجهته المجلة الى جماعة من الكتاب والمفكرين(١) : « هل المقصود الأقطار العربية بالمعنى الصحيح ، أي بلاد العرب بحجازها ونجدها ويمنها وحضرموتها ؟ أم البلاد التي فتحها العرب في صدر الاسلام وبقيت الى الان سائرة على انظمة العرب ؟ أم البلاد التي يتكلم أهلها باللغة العربية بقطع النظر عن تابعيتهم ودينهم ؟ أم البلاد التي تدين بالاسلام وتخضع المدنية العربية بحكم لغة القرآن ؟ » .

ويرى أنيس الخوري المقدسي في عـــدد يناير (كانون الثاني) ١٩٢٣ من مجلة « الهلال » أن اللغة العربية وآدابها ومــا إلى ذلك من تاريخها وتاريخ رجالها هي الأداة الوحيدة التي يمكن أن تجمع شتات العناصر في كل قطر عربي وتجعل منها أمة حية نامية .

فماذا كان موقف طه حسين ؟

إن دراسته الموضوعية وضعته في الخندق المقابل للمتاجرين بالدين . ويستمر في الحديث عن أبي نواس ومذهبه في الدين والمجون والشك . فيراه مثلاً صادقاً للعصر الذي عاش فيه ، ذلك العصر الذي كان يمتاز بالشك والمجون ، كان شعراء ذالك العصر يستمتعون بلذات الحياة ما استطاعوا ، فإن أدركهم الشيب والضعف لجؤوا إلى عفو الله . ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة والتوبة .

ويستأذن الدكتور طه حسين رجـال الأدب القديم من المعاصرين في أن يكون جريئاً في حديثه عن أبي نواس .

وفي عدد الأربعاء ٧ فبراير « شباط » ١٩٢٣ من جريدة « السياسة » لا نستمع إلى حديث طه حسين وإنما إلى حديث وجهه إليه العـالم الجليل الأستاذ رفيق بك العظم يرد فيه على مــا ذهب إليه الدكتور طه حسين من ان الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر مذهب ابي نواس واضرابه من شعراء المجون .

ويستهل الدكتور طه حسين حديث الأربعاء ٢١ شباط (فبراير) ١٩٢٣ في جريدة (السياسة) بقوله : « مازلت أذكر هذا المقال الرائع الذي نشرته (السياسة) للاستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه . ثم حالت حوائـل بيني وبين هذا الرد إلى الابد . » .

---

(١) الدكتور محمد حسين ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٢ الطبعة الثالثة ص ١١٧ .

ولاندري أكانت تلك الحوائل شخصية أم موضوعية .

ويرد طه حسين خلافه في الرأي مع رفيق العظم إلى انطلاق هذا العالم من قاعدة تقديس القدماء .

أما طه حسين فلا يقدس القدماء ، ومن هذه القاعدة يستمر في حديثه عن الخمر عند أبي نواس .

فيعتبره زعيم فن وصف الخمر ، هذا الفن الذي نشأ قبل أبي نواس بنحوقرنين .

ويغرق الدكتور طه حسين في جريدة (السياسة) في جدل عنيف وخصومة خصبة مع الاستاذ مصطفى صادق الرافعي .

وإذا احتاج الشيخ طه حسين الى أن يعتذر عن بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال : « سيضحك مني بعض الحاضرين اذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عبادة العصر »(١) ، فقد لزم مصطفى صادق الرافعي جادة الدين حين انشغلت الصحف بأخبار الخليفة عبد المجيد وأسرته وأخبار المطرودين من آل عثمان وتعليق الزعماء والمفكرين وعلماء الدين في مصر وفي شتى أنحاء العالم الاسلامي على هذا الانقلاب الخطير وعلى ماتلاه من خطوات تدفع بالترك بعيداً عن ماضيهم الاسلامي وتقطع مابينهم وبينه من صلات وتطمس كل ماله من شارات وأمارات لتلحقه بالغرب ولتجعله قطعة من أوربة وأسرف مصطفى كمال وصحبه في حمل الناس على مذهبهم الشرود حتى قتلوا كل من ارتفع صوته بالمطالبة برعاية حق الدين وحرمته بعد أن اقاموا لهم محكمة وهمية سموها (محكمة الاستقلال) . ومن أحسن ما كتب في تصور الانحراف مقال مصطفى صادق الرافعي (تاريخ يتكلم)(٢). وقد ذهب الرافعي في هذا المقال مذهب الرمز ، فزعم أنه رأى فيما يرى النائم أنه صحب حاكما مجنوناً اسمه الحاكم بأمر الله ــ وهو يرمز بهذا الحاكم لمصطفى كمال نفسه ــ فدون تاريخه في عشرة أسفار ، أخذ يلخصها في هذا المقال . فيصف مثلا كمال في السفر الثاني بالغيرة على الاسلام في بدء الانقلاب تألفاً للقلوب ثم ظهوره على حقيقته حين أمكنته الفرصة .

ويفتتح الدكتور طه حسين الجزء الثالث من كتاب (حديث الاربعاء) بقوله :

(١) مجلة الهداية ــ القاهرة ــ عدد تشرين (اكتوبر وانوفمبر) ١٩١١ ص ٧٦١ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي ــ وحي القلم ــ مصر ١٩٤١ ص ٢٣٥ ــ ٢٤٦ .

« كان نشر هذا الكتاب للاستاذ مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله – في جريدة (السياسة) مثارا لجدل عنيف وخصومة خصبة لها في تاريخ الادب العربي الحديث أثر أي أثر . لذلك رأيت أن أثبت نص هذا الكتاب . ليستطيع القارئون من الشباب الذين لم يشهدوا هذه الخصومة أن يتتبعوها واضحة جلية ، وهذه الفكرة نفسها قد اقتضت أن أنشر في هذا الجزء فصلاً يتصل « بهذه الخصومة قد نشر في الجزء الثاني من (حديث الأربعاء) لتكون قضية الخصومه من القديم والجديد كاملة . ولن يعاد نشر هذا الفصل في الجزء الثاني ، لأن مكانه في هذا الجزء . »(١) .

وهذا الفصل هو حديثه عن (القديم والجديد) في جريدة (السياسة) يوم الاربعاء ١ رجب سنة ١٣٤٢ هجرية ٦ فبراير (شباط) سنة ١٩٢٤ ميلادية .

بعث الرافعي برسالته الى جريدة (السياسة) على النحو التالي : « سيدي الفاضل الدكتور حسين هيكل بك . أرسل الى (السياسة) هذه الرسالة عاتبت بها طريقا من أدباء الشام كتبت اليه فتقتر في رد كتابي ، لأن جماله ظرف وظرفه جمال ، وهما اذا اجتمعا كان لهما حكم خاص في قانون الرسائل . وقد كتبتها من النمط الاول الذي هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون في مثل هذه الرسالة لا يكون أبدع منه شيء من الأساليب الاخرى . فأرجوكم الحفاوة برسالتي هذه في (السياسة) الغراء . والتمهيد لها بما يبين عن سبب كتابتها .

حفظكم الله للمخلص مصطفى صادق الرافعي » .

ويعلن طه حسين أن أسلوب الرافعي هذا الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة لا يستطيع ان يروقنا في هذا العصر الحديث .

ويتباهى الرافعي بأسلوبه الذي بلغ الغاية التي تتقاصر دونها الأعناق منذ القرن الرابع الى آخر التاسع ، فكأنه يبعث أسلوب القرن التاسع في القرن الرابع عشر للهجرة .

و « يعترف » طه حسين بأنه لا يجيد هذا الاسلوب ولا يريد ان يجيده .

وتنشر (السياسة) في صفحة الادب يوم الاربعاء ٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٣

---

(١) طه حسين – حديث الأربعاء ٣ ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١٩٩٣ ص ٣ .

رد كاتبين على الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ورسالة أخرى عنوانها (بين الجمال والحب) للكاتب الاديب طه عبد الحميد الوكيل .

ويجد الدكتور طه حسين نفسه وسطاً بين أسلوب الرافعي القديم جداً وأسلوب الوكيل الحديث جداً .

ويتابع طه حسين حديثه عن الخمر عند أبي نواس ثم ينشر في (السياسة) نماذج من اللغة الرسمية التي كانت في مضمونها الرسالة التالية الممهورة بخاتم أمير مصر سعيد باشا الذي امتدحه الشاعر صالح مجدي :

« اعلان الى مديرون الاقاليم قبلي وبحري ونظار محطات السكة الحديد ومأمور وابورات النيل . رافعه مسيو كابيز جرى انتخابه بمعرفة مأمور الانتيقة لضرورة الاطلاع على الكتب والآثار الموجودين بالديورة القبطية الكائنة على شاطيء النيل والديورة التي بالصحراء والمأمور المومىء اليه التمس بواسطة ديوان الخارجية صدور إعلان من لدنا باعطاء مايلزم من الجمال وما يلزم للشالات والانفار الكفاية لأجل مساعدته على هذه المأمورية المتوجه لها . وحيث وافق إرادتنا تعيينه لما ذكر وأعطاه ما يلزم من المديريات من جمال او أنفاراً وركائب لتوصيله من أي جهة الى الجهة التي يقصدها بالقطر المصري قبلي وبحري ثم اذا كان قاصدا جهة من لزوم هذه المأمورية ويكون وابور قائم من وابورات السكة الحديد أو البحر فيجري نزوله وتوصيله فقد أصدرنا هذا الاعلان وغطى له بيده لاعتماد الاجرى بموجبه في الجهات التي يمر بها داخل الحكومة كما اقتضته ارادتنا

ختم

٤ جا سنة ٧٨ محمد سعيد

نمرة ساير ٥٧ . »

مسيو كابيز هومرقس بك كابس عالم مصري قبطي ، ولد في طهطا سنة ١٨٣٠ ونال من روما شهادة الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الدينية سنة ١٨٥٧ وعاد الى مصر ، وكان يريد ان يكون قسيساً كاثوليكياً ، ولكنه عدل عن هذا واشتغل بالحياة المدنية ، فعين سنة ١٨٦٣ أميناً مساعداً بالمتحف المصري في بولاق ومفتشاً للبحث عن الآثار ، ثم اعتزل هذا العمل سنة ١٨٧٥ وعمل في تصفية بيت المال . ثم توفي سنة ١٩٠٥ . وكان عضواً في المجمع العلمي المصري ، وترك آثاراً قيمة في الهيروغليفية والقبطية .

وليست هذه الرسالة المكتوبة في العهد العثماني سيئة . اذ راعينا ان الشعب يبقى ما دام محافظاً على قواعد لغته .

فالرسالة تبدأ بداية لغوية متينة فيما عدا بعض الاخطاء في الاعراب «الى مديرون» . وليس في استعمال كلمة (وابور) بدل (قطار) خطر على اللغة ، كما نعرف من هذا البيت الطريف :

ولقد ذكرتك والحمار معاندي فوق الحديد وصفر الوابور

ويرثي الدكتور طه حسين استاذه الشيخ محمد المهدي الذي علم في دار العلوم وفي الجامعة وفي مدرسة القضاء الشرعي ، وكان وسطاً بين انصار القديم وانصار الجديد .

ثم يعود طه حسين الى الغزل في شعر ابي نواس : غزله بالنساء وغزله بالغلمان .

ويؤكد ما حدث به في (السياسة) الأربعاء ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ من ان تطور الشعر في عصر بني امية كان قويا منتجاً من بعض الوجوه .

ويعدنا بحديث عن شعر ابي نواس في الصيد والطرد .

لكنه يعود الى الخصومة بين القديم والجديد . ثم ينتقل الى جد ابي نواس .

ويأخذ الدكتور محمد احمد الغمراوي على زميله انه لم يجد في الادب العربي مايستحق ان يبعث الا اخبار المجونيين مثل ابي نواس(١) .

وينتقل طه حسين الى الوليد بن يزيد الذي يقول الرواة إنه زعيم اصحاب الخلاعة ثم يتحدث عن شاعر خليع آخر هو مطيع بن إياس ، ثم عن حماد عجرد وهو احد الحمادين الثلاثة الذين كانوا « يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعاً ، واشهرهم بها حماد عجرد »(٢) .

ثم يحدثنا عن شاعر ظريف هو حسين بن الضحاك الخليع الذي كان قليل الفحش في اللفظ مع اسرافه في المجون .

---

(١) الدكتور محمد احمد الغمراوي ـــ النقد التحليلي لكتاب فى الأدب الجاهلي ١٣٤٧ هجرية ١٩٢٩ ميلادية .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـــ الجزء الخامس ص ١٦٦ طبعة بولاق .

ومما يلفت النظر أن الهامش يدل على أن حديث (بشار بن برد) نشر في جريدة (السياسة) في ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢هـ ٣٠ أبريل (نيسان) ١٩٢٤ م ، بينما يدل الهامش على أن حيث (شعر بشار) الذي يتابع فيه الدكتور طه حسين حديث الأربعاء نشر في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ — ١٢ أبريل (نيسان) ١٩٢٤ م . ويجب أن يوافق ١٧ رمضان ٢١ نيسان (أبريل) .

ويجب أن يكون الحديث نشر في أيار (مايو) . يليه الحديث عن والبة من الحباب وأبان بن عبد الحميد ، ووالبة من الذين انتقده الغمراوي لبعثه أخبارهم .

ثم يتحدث طه حسين عن مروان بن أبي حفصة والسيد الحميري .

بعد أن يفرغ من شعراء المجون والسياسة في العصر العباسي يعدنا بالحديث عن شعراء آخرين . فيحدثنا عبيد الله بن قيس الرقيات قيس بن الملوح . ويعود إلى نشأة الغزل وأخبار الغزلين فيروي قصة قيس بن ذريح وعبيد الله بن قيس الرقيات .

ثم يعود إلى الجاهلية ،ويريد أن ينصرف عن الغزلين إلى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموي ،ثم يؤثر العودة إليهم ليتم البحث ، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضر ليسوا أقل خطأ في الاجادة من أولئك الغزلين من أهل البادية . فيحدثنا عن وضاح اليمن والعرجي والأحوص بن محمد الأنصاري ويزيد بن الطثرية وكثير .

ويرجىء الدكتور طه حسين حديثه عن عمر بن أبي ربيعة ، ليعرض كتاب (الأخلاق) لأرسطاطاليس مترجماً إلى اللغة العربية بقلم أستاذه أحمد لطفي السيد عضو حزب الأمة .

ولأرسطو مكانته عند المسلمين ، فقد عده الشيخ محمد عبده من الذين تجلى لهم الوجود الأعلى . في مقاله الثالث في الرد على هانوتو(١) .

ويختتم طه حسين حديثه عن الغزلين بزعيمهم عمر بن أبي ربيعة ، فيحدثنا عن الحب في شعره ، ولكن إلى من يدع الغزلين ؟ يدعهم إلى حديثه المنتظر يوم الأربعاء ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤ ، وربما كان هذا الحديث منشوراً في الجزء الثالث من (حديث الأربعاء) حيث يقول :

---

(١) الدكتور محمد محمد حسين ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٢ ص ٣٥١ .

« يصح أن نقف بين موضوعين وقفة للراحة ينتفع بها الكاتب أيضاً ، فقد فرغنا من الغزلين أو من أئمتهم ، وقد ننتقل منهم إلى غيرهم ولكن بعد أن نتريح ونستريح من هذا البحث الشاق الذي يعني قارئه وكاتبه معاً . »(١)

ويبشر الدكتور طه حسين قراءه بأن كتاب (حديث الأربعاء) سينشر بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وهكذا صدر الجزء الأول منه في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ .

ويناقش جندياً مجهولاً من جنود الأدب فيما أشار إليه عميد الادب العربي نفسه من وجوه الشبه بين عمر بن أبي ربيعة والكاتب الفرنسي بيبرلوتي .

وينتقد (مهذب الاغاني) للشيخ محمد الخضري الذي ألف كتاب (محاضرات في بيان الاخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي) . ويدافع الخضري عن (مهذب الاغاني) . وتثبت الايام صحة ماذهب إليه طه حسين فنسى (مهذب الاغاني) بعد نصف قرن ولا ننسى كتاب (الاغاني) بعد نيف وعشرة قرون. ويضطر الدكتور طه حسين إلى فقد كتاب (بلاغة العرب في الاندلس) لصديقه الدكتور أحمد ضيف .

وينشر دفاعاً لأحد الكتاب عن (مهذب الأغاني) ، ويلفت القراء إلى شيئين ؛ الأول أنه ما زال محتفظاً برأيه كاملاً في عمل الاستاذ الخضري ، فهو مؤذ بالقياس الى العلماء، نافع بالقياس الى عامة الناس ، وأنفع من أن تؤلف لهؤلاء الناس كتب مستقلة لا تمسخ كتب القدماء ولا تشوهها .

الثاني أنه سعيد كل السعادة بأن يبيح صحيفة الادب للنقاد جميعاً ، على ألا يخلو نقدهم من خصال ثلاث : الحرية والادب والنفع .

وحين ينظم أحمد شوقي وحافظ ابراهيم وأحمد نسيم القصائد في مدح الاستاذ لطفي السيد وترجمته لأخلاق أرسطاطاليس ، يشك طه حسين في أن يكونوا قرؤوا مقدمة الكتاب .

وكانوا شعراء عثمانيين ، إذ يقول شوقي :

---

(١) طه حسين ـ حديث الأربعاء ٣ ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ص ٥٨ .

رضـي المسلمون والإسلام فرع عثمان دم فداك الدوام(١)

ويقول حافظ من قصيدة له أنشئت في عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ :

لقد مكن الرحمن في الارض دولة لعثمان لا تغفو ولا تتشعب(٢)

ويقول نسيم من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر :

خليفـــة الله يا ابن الغر من نجب لله درك يوم الروع من عضـــد

ويمدح الدكتور طه حسين مختارات سلامة موسى وكتاب (مطالعات في الادب والحياة) للأستاذ عباس محمود العقاد .

وكان سلامة موسى ينادي بالتوسع في التشريع المدني حتى يشمل المسائل الشخصية لان « شرط النهضة أن تكون اجتماعية واقتصادية وأدبية ، فلا يجب أن ترمي الى تغيير نظامنا الحكومي فحسب ، بل الى تغـــيير نظام العائلة واعتبارات الطبقات الاجتماعية ، وكذلك نظام الانتاج الاقتصادي ، حتى الأسلوب الكتابي يجب تغييره . » (٣)

ويتلقى طه حسين رسالتين كان يود أن ينشرهما ليرد عليها ، ولكن المجال لم يتسع لذلك . إحداهما من الاستاذ عباس محمود العقاد تقبلها الدكتور طه حسين شاكراً ما فيها من خير وشر ومؤكداً لصاحبها أنه لم يصدق في رسالته كما صدق في آخرها حيث يقول أن صوت طه حسين يسمع على ما فيه من نشوز . ويقول الدكتور طه حسين : « وأما أعلم أن في صوتي نشوزاً وأحمد الله على أن هذا النشوز لا يمنع الناس من الاستماع لهـــذا الصوت ، فقد يكون في الاستماع اليه خير ، مهما يكن قليلاً فهو خير » .

أما الرسالة الثانية فأرق من رسالة العقاد وأدعى الى الابتسام والفكاهـــة . يقرأ كاتبها أن طه حسين يصف أحد الكتاب بأن لسانه أطول من عقله فأخذ يتمعجل في نقـــد هذا الكاتب .

ويدع الدكتور طه حسين الرسالتين لينتقل الى هذين الكتابين (جان جاك روسو حياته وكتبه) بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك .

(١) ديوان شوقي (الجزء الاول) مصر ١٩٥٠ ميلادية

(٢) ديوان حافظ ابراهيم الجزء الثاني) مصر ١٩٣٧ ميلادية

(٣) مجلة الهلال بالقاهرة — نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٢ .

(وأشهر قصص الحب التاريخية) بقلم الاستاذ سلامة موسى ، ويتهم الدكتور محمد محمد حسين الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير (السياسة الاسبوعية) باعانته الموجة الفرعونية التي حاولت غزو سائر النواحي الثقافية .

ويأخذ هيكل على طه حسين اهتمامه بطباعة كتاب (جان جاك روسو) قبل اهتمامه بمضمونه ، وينتقل طه حسين إلى كتاب (رسائل الاحزان في فلسفة الجمال والحب) للرافعي الذي أهداه المؤلف نسخة منه ليثني عليه فلما نقد فلسفته في الجمال والحب غضب وأثنى على هيكل لينشر شتمه للدكتور طه حسين : وأكد له هيكل أنه لن ينشر ما لا يوافق عليه المحرر طه حسين وأن رئيس تحرير السياسة لم يؤثر نقد المحرر له على حمد الرافعي ، لانه يؤثر الليمون على السكر الخالص ، ويلزم طه حسين برفض الثناء ، إذ يعتذر عن عدم نشر أبيات الدكتور احمد زكي ابو شادي التي يثني فيها على حديث الاربعاء .

وأبو شادي من الذين فشلوا في التوفيق بين الاصالة والعالمية .

يقول في قصيدة نشرت في (الهلال) عدد أبريل (نيسان) ١٩٢٩ :

... فشعري كل ما يبدي شعوري وعرفاني إلى الوطن الظليل
له مصرية النفحات شاقت بنفحة (مصر) والحسن الاصيل
وإن لم ينس احساناً (لعرب) ولا الآيات (للغرب) الكفيل

وقد أنشأ من بعد مجلة (أبولو) سنة ١٩٣٢ .

ونشرت (الاهرام) للاستاذ وحيد مقالاً في حوار الاحرار الدستوريين أراد صاحبه الجد فكان آية في الفكاهة وكان عنوانه (ما قول فئة ما قولها) . وأراد كتاب السياسة — ومنهم طه حسين — أن يردوا عليه فأجابه الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظة بمقال عنوانه (ما قول فئة ما قولها) .

ويدع الدكتور طه حسين أسلوب الاستاذ وحيد الى مجلة (الجديد) .

وينتقل الى الشعر المعاصر فيتحدث عن ديوان (الملاح التائه) للمهندس الشاعر علي محمود طه وديوان (وراء الغمام) للطبيب الشاعر ابراهيم ناجي ، قدمه احمد الصاوي محمد الذي اجرى حديثا صحفيا مع هدى شعراوي — حرم علي باشا شعراوي من زعماء حزب الامة — عن رحلتها الى باريس وامريكة في (السياسة الاسبوعية) عدد ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٧ .

ويدع طه حسين الادب الى اخلاق الادباء الذين لا يحتملون النقد . ويستغرب كيف يسأله صديقه حسن محمود عن علاج هذه العلة . فهي لا تقاوم الا بالمضي في النقد الحر الصريح الذي لا أثر فيه للميل ولا الهوى أو الخوف أو الاشفاق ، ويتبع هذا الاسلوب في نقد كتاب (الضاحك الباكي) للاستاذ فكري أباظة الذي أضفى عداءه للبريطانيين على حلفائهم اليونان في مقال له نشر في (صحيفة اللواء) سبتمبر (ايلول) ١٩٢٢ . ويعود الدكتور طه حسين الى اخلاق الادباء ، فقد أثبت فكري أباظة أنه الأديب الذي لا يخشى النقد حين شكره على نقد كتابه (الضاحك الباكي) . ويحلل طه حسين قصيدة (على بساط الريح) الشاعر اللبناني فوزي المعلوف ، ولا يعتبر كتاب (أنفاس محترقة) لمحمود أبي الوفا شعراً بل نظما . ويدرس (جداول) الشاعر اللبناني أبي ماضي ، فيؤكد حاجة الأدب العربي الى جماعة بين النقاد أشداء في الحق حراص على سلامة هذه اللغة وحمايتها من الفساد الاجنبي .

والشيء الذي كان الادباء يألفونه قديماً ويضيق به طه حسين هو أن يلتمسوا حياتهم بالسؤال ، يلجؤون الى هذا الوزير ويبيعون الثناء بالمال أو يبيعون سكوتهم .

وينتقل الدكتور طه حسين من صحيفة (السياسة) الى صحيفة (الوادي) التي يجعله فيها صديقه الاستاذ عوضن من أصحاب الفوضى في الادب . ويبحث طه حسين عن الاديب الذي يرفع أدبه عن الظروف ويأبى ان يجعله تجارة . ويفضح المعهد الديني في الاسكندرية الذي رفض التبرع للجمعية الخيرية الاسلامية في القاهرة .

وينتقل الى جريدة (الجهاد) ويعود الى الشعر القديم فيقضي ثلاث ساعات مع الشاعر الجاهلي لبيد وساعتين مع طرفة وثلاث ساعات مع زهير وساعة مع كعب بن زهير وساعتين مع الحطيئة وساعات مع عنترة وسويد بن أبي كاهل والمثقب العبدي (١) .

والخلاصة فان الدكتور طه حسين لم يغادر أزهر القاهرة ليحبس نفسه في أزهر باريس . وتنقل في الصحافة المصرية .

بدأ حديث الاربعاء في (السياسة) وانتقل منها الى (الجهاد) عبر (الوادي) . ورغم أنه حديث أدبي ، فمن المفيد أن نعرف الاتجاه السياسي لهذه الصحف .

(١) طه حسين - حديث الاربعاء ١ ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

فحين رشح الملك فؤاد للخلافة أعلنت صحيفة (السياسة) أن الدستور ينص على « أنه لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر أمور دولة أخرى بغير رضاء البرلمان » لذلك فهي ترجو علماء الأزهر أن يتركوا بحث المسألة للسياسيين (١) .

ثم أخذت صحيفة (السياسة) في مهاجمة المؤتمر العام للخلافة ، وشاركتها في ذلك صحف الوفد ، بينما تصدت للرد عليها صحيفة (الاتحاد) التي تمثل القصر .

ولا يلبث طه حسين « أن ينضم الى حزب الوفد ، ويكتب في صحيفة (كوكب الشرق) ، ويخرج صحيفة (الوادي) ويحول قلمه الى مايشبه سوطاً يلهب به لحم صدقي الطاغية . »(٢) . ويبدو أنه ينتقل الى (الجهاد) بعد توقف صحيفة الوادي . « وكان طه حسين قد أبعدته الجامعة وفصلته في أواخر ١٩٣٢ ، وبدأ يلمع في (كوكب الشرق) معلقاً أدبياً وسياسياً . »(٣) .

---

(١) اعداد صحيفة (السياسة) في ٢ ــ ٢٦ ٢٨ فبراير (شباط) ١٩٢٦ .

(٢) الدكتور شوقي ضيف ــ الأدب العربي المعاصر في مصر الطبعة الرابعة ــ دار المعارف بمصر ! ١٩٧ ص ٢٨١

(٣) كمال الملاخ ــ د . طه حسين قاهر الظلام ــ دار الكتاب الجديد ــ القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٢٣

طه حسين * وأسرار الليل

انجيل فانيه *

لن أحاول في هذا المقال ابراز النواحي الفنيـة المتعددة الالوان والضروب في

«*» عنوان المقال بالفرنسية Taha Hussein et les puissances de la nuit

«**» السيدة انجيل فانيه Madame Angèle VANNIER كاتبة روائية وشاعرة فرنسية . ولدت في عام ١٩١٧ ؛ نشأت في ظل اربع نساء بعيدة عن ذويها ؛ ثم لحقت بعائلتها في مدينة رين Rennes حيث بدأت في دراسة الصيدلة ، ولكن فقدان بصرها وهي في الثانية والعشرين حال دون إتمام هذه الدراسة ، فانقطعت عنها متوجهة نحو الادب . والشعر بشكل خاص . طرقت في البـداية مواضيع تتصل بالبيئة التي تعيش فيها .. ثم تجاوزتها بعد ذلك لتنشد أشعاراً لها كل الصلة والاهتمام بالليل.. ليل المكفوفين بشكل حاد.. سجلت برامج شعرية لاذاعات فرنسية (باريس ورين)=

مؤلفات طه حسين ، بل سوف أقتصر على دراسة العلاقة الحميمة التي كانت قائمة بينه وبين أسرار الليل .. اذ يبدو لي أن النقد لم يتعرض بالدراسة الى هذا الموضوع بالعناية التي تليق به .

فلما كنت كاتبة مكفوفة البصر ، ولما كنت قد اطلعت على مؤلفات طه حسين عندما أخذت على عـاتقي اجراء بحث حول ابرز الادباء المكفوفي البصر على مدى العصور واختلاف الامم والشعوب . . فقد وجدت ان هـذا الكاتب العربي يمنح « قوى

=وبلجيكية (بروكسل) وسويسرية (جنيف). صدر لها كثير من الكتب والدواوين الشعرية منها : احلام النور والضباب (١٩٤٨) ، الشجرة تحـترق (١٩٥٠) ، ليسمح لي الله (١٩٥٣) ، مختارات شعرية (١٩٦١) ، دم اللبـالي (١٩٦٦) ، رواية الليل اللاهب (١٩٦٩) ، المسرح الابيض (١٩٧٠) ، واخيراً الرواق الأحمر (١٩٧٢) . هذا وقد كتبت هذا المقال خصيصاً لمجلة المعرفة بعدما علمت مني بعزم هذه المجلة على اصدار عدد خاص عن طه حسين .. وذلك تكريماً منها لهذا الكاتب الكبير الذي تجلّه وتحترمه وتذكره هو والمعري كلما تحدثت عن المكفوفين وادب المكفوفين . وقد شاءت ان تأتي على ذكرهما بشيء من الوضوح عندما القت محاضرة في مركز « جمعية ادباء فرنسا » في باريس بتاريخ ٧/ ٢ / ١٩٧٤ بعنوان « رهائن الليل Les Otages de la nuit» حيث جعلت من هذين الاديبين فضلا عن بشـار بن برد ابرز الادباء المكفوفين العرب .

(٣) ليست هذه الترجمة بمنزلة الترجمة الحرفية ، ولا هي بمنزلة الترجمة المتصرفبها. بل هي واقعة في منزلة بين المنزلتين . ذلك أن الكاتبة الاديبة الشاعرة شـاءت أن تخط بحثها — أو أن تمليه بالاحرى — بلغة هي لغة الشعر اقرب من لغة النثر ، فأفاضت في صدرها الشعرية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، وقصرت في جملها ما شاء لها التقصير .. ولو عرب المقال كما كتب لبدا نابياً عن ذوق المقال العربي . فأبحت لنفسي — فيما يبيح المترجم لنفسه — التصرف بعض الشيء في الربط بين الجمل والالفاظ بحيث تبدو الافكار متسقة والآراء ملسجمة ما قصرت في ذلك قط . بل اني لطاولت مرة واحدة — فيما لا يحق للمترجم التطاول به — عندما جعلت موضع أحد المقاطع في ختام المقال بدلاً من توسطه فيه لما وجدت في ذلك خيراً وحسناً لتسلسل الافكار المعروضة .. كما اني أضفت العناوين التي وزعتها في سياق المقال بحيث تتناسب أيضاً والافكار المعروضة .

الليل » في قصصه اهمية تبدو لي واضحة تمام الوضوح . وهكذا يقوم الكاتب الكفيف البصر بوظيفة خاصة يمتاز بها دون سواه من الكتاب وهي طرح واثارة مواضيع متعلقة بألغاز الليل هي على غاية من الذكاء والفطنة .

قد يُعترض عليّ بأنه ليس من الضروري أن يكون الكاتب مكفوف البصر كي يثير أشباح الليل وأوهامه ونجومه في كتاباته . ولعلي أجيب بأن مثل هذا الكاتب « مؤهل » اكثر من سواه لابراز هذه الجوانب الخفية . اذ لا مراء في أنه دفع ثمن هذه « الاهلية » من عينيه .. حتى أصبح الليل جزءاً لا يتجزأ منه .

الجنون في « شجرة البؤس » :

لعل « الجنون » (١) من أكثر الامور المتصلة بالليل مأساوية وقلقاً وحيرة ولغزاً .. وقد تصدى له طه حسين في اكثر مؤلفاته القصصية . . من ذلك في (شجرة البؤس » حيث « خالد » يقول : « كانت والدتي قد قالت لي إنها تخاف زرع شجرة البؤس في دارنا » .

و « خالد » هذا مراهق مائع عالم ، مريض بالمثل العليا الغامضة والضبابية . . يغلق عينيه عن حقائق الوجود الحسية بدلاً من رؤيتها ولمسها . . لذا فقد فوجىء بجنون زوجته ينفجر يوماً في وجهه . انه يرى ان كون المرء تقياً وورعاً ، لا يعني بالضرورة ان يطبق كافة تعاليم الدين .. فهو يفصل بين الامرين . والواقع ان خالداً عاجز عن ربط الامور بعضها ببعض . . وبالتالي فانه لا يستخرج من أحداثها لا دروساً ولا عبراً . . كما انه لا يدري ان احدى مهام ووظائف الانسان هي ان يتعلم كيف يربط – بفضل ذكائه وفطنته – الامور بعضها ببعض : سلبيها بايجابيها .

ونسرع هنا كي نشير الى الدور الكبير الذي منحه طه حسين للمرأة في صنع التاريخ.

---

(١) لقد ترددت كثيراً في ترجمة كلمة La Folie بالجنون . ذلك ان الكاتبة لا تعني « الجنون » كما نفهمه نحن ... بقدر قصدها الهوس والاضطراب حيناً ... وفقدان السيطرة على النفس أو الانغلاق فيها حيناً آخر ... ولعلها جعلت من « الجنون » تعبيراً عاماً يجمع كل هذه الحالات النفسية غير السوية التي يعيشها امرؤ ما في حالة اضطرابه النفسي على مستوى الذات وعلى مستوى العلاقات مع الغير.

ذلك ان ام خالد قد حذرت ابنها البكر من ضرورة عدم زرع شجرة البؤس . ومع ذلك فقد زرعها خالد . . وكانت نتيجة هذا أن حملت تلك الشجرة ثماراً فاسدة استمرت تنتقل عبر الأجيال ، حتى الجيل الثالث .

وهكذا تلاحظون معي كيف يهتم طه حسين بالوراثة والنسب كدعامة رئيسية لايستهان بها . . دون ان يهمل دور المرء ، حيث يدعوه لان يكون ذكياً وفطناً .. بل هو ينتظر من هذا المرء ، بفضل هذا الذكاء وتلك الفطنة ، تحطيم حلقات التشاؤم والسوداوية التي تنتقل بصورة عمياء من جيل الى جيل . . وهذا الذكاء لايكتسب ـ في رأي طه حسين ـ سوى بفضل الثقافة والتفكير والتأمل والملاحظة الدائبة غير المملة . . للحقائق الروحية ، جمعاء . وسوف نعود الى طرق هذه الناحية من البحث فيما بعد .

الاضطرابات والهذيان في « أديب »

هذا في شجرة البؤس . أما في « أديب » فالصفحات الاخيرة مخصصة لحالة من الهذيان المتصل المحموم .

ترك « أديب » أرض طفولته متجهاً نحو الغرب « حيث كان يرجو استفادة جمة من الثقافة الغربية . . وقد كان هذا الرجاء بمثابة الشغف المضطرب المحموم الذي يعكس صورة صادقة لفكر وذهن صاحبه . . فأما باريس ـ مركز اقامته ـ فتجعل منه امرءاً مجنونا . . وتزداد الامور تعقيداً عندما يحترق الغرب بلهيب الحرب . . وكأننا بطه حسين يقول لنا : ان نور المعرفة لايكتشف في الغرب باكثر مما يكتشف في الشرق .

ونتساءل ، أهذا مايريد طه حسين أن يعلمنا اياه ؟ أم أنه يريد بالأحرى أن يبين لنا ـ بفضل علمه وحكمته ـ ضرورة عدم القفز في مراحل التعلم ان كنا نتوق حقا الى الوصول الى المعرفة الصافية والحكم السديد . وهكذا تبدو صورة « أديب » صورة هذيان مضطرب لرجل يندفع نحو مصدر المعرفة الساطع دون ان يكون مهيأ لذلك من قبل مروراً بدراسة منظمة في مراحلها ، مدعمة بتفكير عقلي من مستوى عال .

ولاشك عندي في أن صورة أديب ـ كما تبدو من خلال الكتاب كفريسة للاضطراب والهذيان ـ تدعو القارىء إلى التروي والتعقل والحكمة . « وأصبح(١) ذات يوم

---

(١) بدلاً من ان المقاطع المذكورة عن طه حسين بلغتي الخاصة .. ذهبت الى المصادر التي ذكرتها الكاتبة الفرنسية..كي أسوق هذه المقاطع كما كتبها طه حسين بنفسه=

مرتاعاً حقاً ، فقد جاءه النبأ ـ ولست أدري كيف جاءه ولا من أين جاءه ـ بأن الخلفاء يأتمرون به لينفوه إلى المغرب الاقصى . وهو ينبئني بأنه قد جد" في السعي لصرف الخلفاء عن هذا الاثم العظيم والظلم القبيح ... وقد أجمع الخلفاء أمرهم وامضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعة . بل هم قطعوا على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السوربون(١) » .

الأشباح والأوهام في « دعاء الكروان » :

أما في «دعاء الكروان »فيقدم لنا طه حسين « آمنة » كبطلة قادرة علىالسيطرة على الاضطراب والجنون بفضل شخصيتها الخارقة . صحيح أنها كانت هي الاخرى ممسوسة بكل هذا ، ولكنها أفلتت منه بفضل ذكائها وفطنتها .. كما أن سيرها الحثيث نحو « الشرق » قد قادها نحو معرفة نفسها معرفة حقيقية .. وكذا نحو السيطرة على « قوى الليل » . ان « آمنة » تمثل في الواقع صورة الانسان الذي ينجح في الخروج من الحلقة الفاسدة البدائيـة التفكير التي يعيش فيها حيث لا يزال اللاشعور البدائي والتقاليد العتيقة الدعامتين الرئيسيتين للحياة الاجتماعية في هذه الحلقة . ان هـذه البطلة ذكية جداً ، تتجاوز الاشباح والاوهام التي تتبدى لها أثناء الهذيان ، بـل هي تسيطر عليها ، وتطردها ، دون ان تبيح لها ان تكون مقودة أو مخدوعة .

كانت « آمنة » تتلقى رسالة الاشباح والاوهام الحمر التي تبدو لها في أول الليل ، وكانت بالمقابل تتلقى رسالة نجمة الليل « الكروان » في منتصف الليل .

ولكن ما هي هذه الاشباح الحمر ؟

اننا نلاحـظ أن الاوهام والاشباح الحمر من طرف ، والنجمة ـ الكروان من طرف آخر ، تتوافق وتتواكب وتتطابق في كافة فصول الكتاب . وهكذا تبدو «آمنة» هنا بمثابة النقطة التي يلتقي لديها اللاشعور الجمعي السلفي التقليدي من جهة ، والشعور الاعلى (المثالي) من جهة اخرى .. انها يلتقيان ويتوافقان دون ان تذهب آمنة

= وقد رفقت في ذلك في الاستشهادات الثلاثة الاساسية التي ساقتها الكاتبة ... مبيناً مع ذلك مصادرها .

(١) طه حسين ـ أديب ... دار المعارف بمصر / ١٩٥٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨

ــ مع ذلك ــ صريعة لها .. بل هي تخرج من هذا اللقاء منتصرة .. رغم ان الدم ــ دم جريمة قتل أختها ــ بقواه الخفية وبوضوحه الشديد يرافقها طوال حياتها .

ويصل الامر بهذه البطلة الى ان تندمج في اشباحها اندماجاً تاماً بعدما أصبحت زوجة الرجل الذي كان ممثلا لهذه الاشباح .. دون أن يعي ذلك . ولعل ارتباط«آمنة» بهذا الرجل ــ الذي كان السبب غير المباشر لقتل أختها ــ يبرهن على أن هذه البطلة جديرة بأن تكون فوق مستوى كل مفهوم للذنب . بل لعلها هدفت من هــذا الزواج تحقيق مفهوم ذكي للحب ، وهو حب ينظر إليه من عل . من نقطة « يتوقف عندهــا الخير والشر عن أن يكونا متناقضين » كما يقول بروتون (١) . إن عملية الذكاء في الحب هذه لم تتم لدى البطلة إلا لأنها كانت مقصودة بفعل صوت الكروان .

ومن هذه الاشباح .. هذا الوضع الفظ الشنيع للفتيات وهن صريعات الوحدة القاتلة .. بلا نهاية .. وهي الوحدة والعزلة التي ضللن فيها شر تضليل . ها هي «هنادي» أخت آمنة تتحمل آلام هذه الوحدة المحضة المقضية .. كما لاقت كثيراً من الآلام والمرارة من قبل خالها بعد ان سلمت نفسها الى ايد صارمة هي « قوانين » الاعراف والعادات والتقاليد .. وفي الوقت الذي كانت « هنادي » صريعة هذه الوحدة .. والدم ينساب على الرمل .. كان الكروان يرسل صيحته وانشاده ..

وتقرر « آمنة » الانتقام لشقيقتها . ولكن هذه الرغبة تتحول لتصبح رغبة في الحب . وهكذا تتزوج الرجل الذي أغــوى وضلل أختها ، حاملة هذه المرة اســم « سعاد » .. محققة بذلك أعراس النهار وأعراس الليل .. انها لن تنس قط الجريمة .. ولكنها عازمة دوماً على التخلص من ســائر القوى الظالمــة .. وهكذا تحيي في منتصف كل ليلة من ليالي أيامها ذكرى جريمة قتل أختها .. دون أن تنســى مع ذلك حبها ..

هكذا كان شأنها كل ليلة عندما تسلم أذنها لنشيد الكروان :

---

(١) هو : اندريه بروتون André Breton : شاعر وأديب فرنسي (١٨٩٦ ــ ١٩٦٦) اتخذ من (بول فاليري) معلماً له في التفكير والنظرات .. أصبح في عام ١٩٦٦ زعيم الحركة السريالية .. اكثر كتبه التي أحدثت ضجة في عصره ، بيان سريالي، الذي نشره عام / ١٩٢٤ /

(المترجم)

« لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ، ما زالت ساهرة أرقب مقدمك ، وانتظر نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك .. اسمع مني ، وتحدث الي ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً .. لقد تم العهد بينك وبيني أيها الطائر العزيز على أن نذكر معاً هذه المأساة كلما انتصف الليل (١) ... »

لماذا منتصف الليل ؟

ويحق لنا أن نتساءل لماذا يصر طه حسين على « منتصف الليل » ؟ لماذا يريد بعث المآسي الانسانية في وسط الليل ؟ ثم لماذا هذا الطير الذي خلقه ليحمل النور في آخر الليل واول النهار ، يغني وينشد هو الآخر في منتصف الليل ؟ اننا نعتقد ان الكاتب يهدف من خلف هذه الاشارة الرمزية الى امرين اثنين . فاما الامر الاول فالاشارة الى أمكانية وقوع الاحداث الانسانية من مآثر او سواها في العمق من الليل ؟ وأما الامر الثاني فهو ان الانسان عندما يكون صريع الزيغ والضلال البدائيين ، انما يخلق بعضاً من العرف والتقاليد العتيقة الفظة (من ذلك قتل الفتيات المضلل بين مثلا) . ولاشك في ان طه حسين يريد انقاذ مثل هذا الانسان الذي يحتمي بغرائزه العمياء الطائشة خلف طقوس وتقاليد بالية . . بنقله بعد مرحلة الاذعان المستسلم للقدر الطائش الأعمى.. الى مرحلة الانسجام في وظائفه وأعماله ، بما يتناسب واقرار قدر غير طائش ولا أعمى.

حكمة « الجنون » !

واذا كانت قصص طه حسين تعطي صوراً منوعة لابطال بهم مس من هوس أو هذيان أو اضطراب أو جنون ، وهنا نضيف إلى خالد ونفيسة وأديب ، خال هنادي وآمنة الذي قتل الاولى بطريقة شرسة فظة ومحمومة وهي الفتاة التي كانت مطواعة للأخلاق الخرقاء السائدة في المجتمع الذي كانت تعيش فيه - فان هذا يعني - فيما يعني - حض القارىء على تثقيف فكره .. وعقله . ألسنا نعتبر في الغرب كل من فقد عقله مجنوناً ؟ !

وهكذا نتساءل فيما اذا كان طه حسين يريد من وراء هذه الاثارة لهذه المواضيع

(٧) طه حسين – دعاء الكروان – دار المعارف / ١٩٤٢ ص ١٢ –١٤

دفعتنا الى تثقيف فكرنا . الواقع ان مثل عملية التثقيف هذه قائمة .. والكاتب يشعر بأنها لا تتم بالشكل الفعال المرجو ما لم تكن مواكبة باتباع منهج صارم ، وعقل فطن متنبه ، وذكاء جلي واضح ، ثم رغبة عنيدة لا تلين . وهي شروط ضروري توفرها سواء لما فيه خير ثقافة المرء أو تفتح ذهنه ومداركه .

وبعبارة اخرى فان كاتب « دعاء الكروان » يدعو قارئه لان يكون هذا الفطن الذكي ، الفعال النشيط المتحمس .. بل ان يكون زاهدا ، دون ان يعني هـذا الزهد عدم التمتع والاستمتاع بلذات الحياة اليومية . وبهذا الصدد فان « آمنة » تبدو شخصية مثالية لانها ـ قبل ان تدخل دار المهندس الشاب الذي تقترن به ـ كانت قد هيئت لخوض المحن .. وهو خوض خرجت منه « آمنة » منتصرة .

ولدت هذه البطلة في عائلة فقيرة ، في قرية لم تكن تتورع عن اتخاذ الانتقام شريعة لها تمارسه بصورة بشعة فظة .. في مجتمع لم يعط النساء ـ اللواتي كن يعشن كالعبيان ـ قيمة اكثر من قيمة الاشياء ! وقد وعت «آمنة» كل هذا وعياً مدهشا وذلك بفضل يقظة ذكية ـ كانت آمنة قد تعلمت دروس الفتاة التي كانت تسهر عليها كخادمة في نفس الوقت الذي كانت تلقي على هذه الفتاة الدروس ـ من جانب ـ وبفضل انتباه مركز واستجابة لنداء منبثق من اعماق السماء من جانب آخر .

ماذا يعني « الكروان » ؟

ان صوت الكروان كسهم مضيء ينطلق في أجواء الليل ، هو أشبه بعين تسبر أغوار العالم من عل .. هادفة نحو الكشف عن أخطاء هذا العالم وهفواته وزلاته ، مخطرة الانسان بضرورة السيطرة على نفسه ، والتميّز ببعد النظر ، وثبات الفطنة . اننا نسجل هنا اعجابنا لطه حسين ، الكاتب الكفيف البصر ، وهو يطرح علينا مثل هذا الطرح ، حيث العين الساهرة من علٍ ، تطل على حقل من الرؤيا غير متناه . تتمثل بصورة إشارة ـ وأكاد أقول صيحة ـ تقلق « آمنة » في اعماقها وجذورها .

اني أخشى في قولي هذا ان أذهب الى تعميم أو تشويه فكر كاتب كبير اكن له كل احترام عندما أرى انه انما دعا الانسان الى احتلال مكانته وعظمته اللائقة به .. انه يدعوه الى التحرر ، الى السيطرة على أشباحه وأوهامه التي ليست في واقع الامر سوى تصورات خيالية خادعة ومجموعة من الهلوسات . وهذه وتلك صادرة من لاشعور

جمعي، من طبيعة بدائية فظة. ان شخصية « آمنة » هي في الواقع اشارة اتهام الى جدوى التعاويذ الدينية لطرد شر الجنون ! وهنا أتذكر أبا العلاء المعري – الشاعر الذي بعثه طه حسين بالدراسات النقدية التي أجراها حوله – والذي يقول : « استيقظوا أيها النـــاس النائمون استيقظوا .. فان الاديان التي تحيطونها بالتقـــديس ليست سوى من اختراع القدماء ! »(١) .

وهكذا يعطي طه حسين الدرس ثم يبرهن عليه ! ومهما يكن من أمر فان هـــذا الكاتب لا يقع في شرك الحركة الديالكتيكية قط . يتميز أشخاصه دوماً بالحياة والحركة.. فضلاً عن ان الاطار الذي تدور فيه الحوادث ويتطور هؤلاء الاشخاص هو دوماً اطـــار رائع جذاب .. حتى ولو كان جو الأحداث مأساوياً .

أسلوب طه حسين

ان طه حسين يعرف كيف يسحر بلغته وأسلوبه . انه يكتب قصصه لا كروائي أو قصاص .. ولكن كشاعر .

اننا نرى أن « دعاء الكروان » يمتاز – فيما يمتاز – من الصفات الخاصة ، بهـــذه النغمة المترددة بين سطوره . فاذا أردت أن تقرأه فانت بحاجة الى عين تسمع . انـــه كتاب يمكن حفظه عن ظهر قلب لما يتميز به من طابع شعري يختال فيـــه . انه اشبه بالقصيدة الشعرية الطويلة التي تتناقلها الأجيال جيلاً بعـد جيل ... بل هو أشبه بالنشيد الصادق الذي لا يمل المرء من سماعه طوال الليل ... بل يمكنك سماعه كله – ان اردت – خلال ليلة واحدة كما لو كان قصة من قصص الف ليلة وليلة .. وهكذا يبدو طه حسين ، الكاتب الكفيف البصر – كما لو كان أحـد الشعراء المنشدين المكفوفين الذين ينشدون في الأذكار !!

لقد كان « دعاء الكروان » كتابي المفضل خلال خمسة أعوام .. ولفرط ما كنت

---

(١) تريد الكاتبة قول المعري :

أفيقوا أفيقوا يا غواة ، فانما دياناتكم مكر من القدماء

انظر كتاب طه حسين (صوت أبي العلاء) – سلسلة اقرأ رقم ٢٣ / دار المعارف بمصر / ١٩٥٥ ص ٦٢ .

اسمه في الأمسيات ، أكاد اليوم أحفظه عن ظهر قلب .. ان شخصية « آمنـة » ، في مجابهتها الواضحة الذكية لقوى الليل، بدت لي كنموذج من أكثر النماذج وضوحاً لمشروع الكتاب الذي بدأت فيه(١) . وقد شاء طه حسين أن يسام في هذا المشروع عندما جعل هذا النموذج مقوداً « بنجمة » .. وهـذه « النجمة » تتجلى بصورة « صيحة » ... وهذه « الصيحة » ـ التي من حق الكاتب الكفيف البصر خلقها وابتكارها ـ هي دعاء .. دعاء هذا الكروان :

« ها أنت ذا أيها الطائر العزيز ، تنشر في الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث .. ماخطبك ؟ وما أنباؤك ؟ وما الذي يغريك بي ويسلطك علي ؟ لا أكاد أمضي في النوم حتى تسرع الي فتوقظني كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً بان توقظني اذا تقدم الليل ..(١)

... أأنت هذا المساء .. كعادتك .. يا ملك الليل » .

باريس ـ ترجمة وليد فستق

---

(١) رهـائن الليل Les Otages de La Nuit : نظرات في أبرز الكتاب المكفوفي البصر على اختلاف العصور والأمم . (قيد الطبع)

(٢) طه حسين / دعاء الكروان / دار المعارف بمصر / ١٩٤٢ .

طه حسين

يرثي صديقه أندره جيد

ترجمة: الدكتور ابراهيم الكيلاني

ما أصعب الكلام عن انسان بارح دنيانا هذه !

ويكان يكون التحدث عنه ضرباً من الخداع ، ذلك أن في مقدور الاحياء أن يردوا عليك اذا اخطأت ، وأن يدفعوا عن أنفسهم اذا تجنيت ، وأن ينيروا امامك السبل اذا قل اطلاعك على الحقيقة أو كذّبك الإعلام .

---

(١) توفي الكاتب الفرنسي الكبير أندره جيد André gide سنة ١٩٥١ فأصدرت مجلة « المجلة الفرنسية الجديدة » عدداً ممتازاً تكريماً للفقيد واحياء لذكراه أسهم فيه كبار الكتاب والأدباء في انحاء العالم فكان طه حسين الكاتب العربي الوحيد الذي شارك في تأبين صديقه بمقال كتبه بالفرنسية فرأينا ترجمته الى العربية ليطلع عليه قراء المعرفة .

ان اجلالنا ، من وراء الرمس والصمت الرهيب ، شخصاً نحبه لهو بمثابة احجام عن الكلام عنه . اني سأتكلم مع ذلك عن اندره جيد لا لكي أضفر له الأكاليـل، ولا لأنظم مديحاً ينكره ذوقه السليم وحصافته الرهيفة، وأحرى بي أيضاً ألا أقيم أثراً أدبياً صنيع ملكاً لنا جميعاً . بيد أن الفرنسيين وعلماء الأدب اجدر من سواهم بتعداد أوصافه.

اني سأتكلم ، على استحيـاء ، يساورني الخوف من أن ألمس بيد ثقيلة خرقاء ماضيــاً لن تجد له تبديلاً ، ذلك أن استجرار بعض الذكريات ، مهما ضؤلت ، هو أيضاً مرافقة لفقيدنا . اني لأشهد ، بخاصة ، على أن هذا الرجل الذي دأب الناس على القول بأن عهده كان مشؤومــا ، كان لي ، باستمرار ، رفيقاً وصديقاً وغوثاً ، فسأوجز اذا ما عرفته عنه ، وهو شيء قليل ، ولو أن كلّ أحد ممن رزقوا صداقته ونعمة التحدث اليه ذكر ما اعطاه أندره جيد لشُيد صرح تخليداً لذكراه .

عندما يتعلم المرء الفرنسية في سن متأخرة ، وينزل باريز ليفعل شيئاً آخر غير دراسة اللغة المذكورة، لمعذور في عدم معرفة أندره جيد الا عن طريق السماع والأقوال، وهكذا عرفته دون أن أتعرف عليه عندما كنت طالباً في فرنســا ، وكنت اعلم انه كاتب عظيم ، وأن الناس مختلفون في شأنه غاية الاختلاف لغرابات بدرت منه ، وهــذا كل شيء . ولم تزد معرفتي به الا عندما عدت الى بلدي ووقفت نفسي على دراسة الأدب العربي القديم .

ولم يكتب لي مقاربة آثاره مباشرة الا سنة ١٩٣٢ ، وكنت يومئذ أشعر بدافع ملح الى الهرب من الواقع ، فقد اصطدمت باستبداد حكومة دكتاتورية تقريباً ففقدت في آن واحد ، كرسي الاستاذية ومنصب عمادة كلية الآداب ، وتركت خصومي يتجادلون مع المدافعين عني ، حتى اذا سئمت ، لوقت ما ، الادب العربي لجأت الى الكتب الفرنسية فكان أن طلع عليّ كتاب من كتب جيد ، ولعل ذلك عن طريق المصادفة ، ولم أكد ابلغ نصف الكتاب حتى ساورني اعجاب حار بالمؤلف فقد وجدت عنده صراحة وشجاعة وحباً عنيفاً للحرية ، ورفضاً ، لايقل عنفاً ، لكل تعرض للشبهات ، وليس من شيء ، اكثر من هــذا ، كان يتناسب وقتئذ مع استعدادي فانغمرت في قراءة جيد واعتقد جازماً أنني قرأت كل الكتب التي كانت في متناول يدي ، وكما هي الحال عندما نعجب، حقيقة ، بكاتب من الكتاب ، حملت معارفي كافة على ان يشاركوني انفعالي وبذلك قرأ كتب جيد من كانوا حولي .

ومرت الأيام ، وتغير نظام الحكم ، واستعدت كرسيي الجامعي ولقيت ثانية عمادتي ولكن جيد لم يهجرني قط ، ولم يكن الأدب العربي ، بالرغم من حماسة حبي له ، بقادر على ان يصرفني عن صديقي فقد ترجمت ، بتحريض مني ، بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ « الانشودة الريفية » فكشف بذلك اندره جيد ، لأول مرة ، للجمهور الواسع الناطق بالعربية ؛ وكدت ، سنة ١٩٣٩ أن اتعرف عليه حقيقة ، عندما قام برحلته الاولى الى مصر ، فقد حاول صديق مشترك ان يصطحبه الى داري ، ولكن جيد كان فقد زوجه ، ولما كان مستسلماً لأحزانه فلم يكن يرغب بلقاء أحد ، مفضلاً ، كما ذكر لي في رسالة غاية في اللطافة ، العيش مع ذكرياته ، وهكذا اخفق لقاؤنا ، ولكن رسالته كانت بمثابة مدخل لعلاقات لم تنقطع أبداً .

وجاءت الحرب فأخرت لقاءنا ، ولم يكن بوسعنا التراسل ، وكنت على يقين ان جيد لم يفكر بي ، مرة واحدة ، اثناء تلك الأهوال ، ولكنني كنت أفكر به كثيراً ، فقرأت مذكراته فهزتني هزاً عنيفاً ، وكنت أعلم قرائي الشرقيين بذلك . ثم أشرت ، بعد الحرب مباشرة ، بترجمة « الباب الضيق » و « مدرسة النساء » و « جنفياف » و « روبير » و « ايزابيلا » . ولما عاد جيد ، ثانية الى مصر سنة ١٩٤٦ كان فيها جمهور يقرأ آثاره ويحبه دون ان يفقهوا شيئاً من اللغة الفرنسية .

كانت ترجمة « الباب الضيق » مناسبة لقاء فكري آخر بيننا ، وهو نوع من اللقاءات التي أولع بها جيد قبل كل شيء ، إلا أننا لم تكن هذه المرة على وفاق ، فبدا لي ان طريقة تفكيره لم تكن صحيحة ، ولم اكتمه ذلك ، فان جيد عبّر ، والحق يقال ، عند سماحه للشاب الشرقي بترجمة كتابه ، عن شك يكاد يكون يقيناً في ان كتابه سوف لايستساغ في بلد إسلامي ، لأن الاسلام ، في نظره ، دين يؤكد وهو يهدئه عقول أتباعه بصورة مطلقة لم يترك أي مكان للقلق . فقدمت المخطوطة للطبع ووجهت الى المؤلف رسالة مفتوحة حاولت فيها ان أبين له ان الاسلام الذي قيل له عنه ، او الذي توهم معرفته لاعلاقة له بالاسلام الحقيقي ، وهو إسلام لاينتفي منه طبعاً ، القلق ، وأن الشرق الاسلامي سيعنى بكتابه كما عني به تماماً الغرب المسيحي !.

وأحدثت رسالته وجوابي عليها ضجة ما ، وكانت زورته لي في شتاء سنة ١٩٤٧ شبيهة بزيارة صديق تربطنا به صلة قديمة .

كان ذلك في أحد الأصبحة ، ولم نكن تواعدنا قبلاً ، فقد هتف لي جيد معلناً ، قبل ثلاث دقائق ، زيارته ، ولن أنسى تلك الساعة الأولى التي قضيناها معاً ببساطة فائقة . ولم يتكلم جيد كثيراً بل كان يسأل وأنا أجيب ، وكان هذا من جـانبي ، أنا الخجول ، مدعاة للعجب ، وكنت أجيبه بلا تكلف ، وما كان أبرعه في جعل محاوره على سجيتـه ، عندما يريد ذلك ! ولم يتطرق الحديث عن رسالته الى مترجم « الباب الضيـق » وجوابي عليها ، ولكنه كان يستعلم بدقة عن الاسلام كما لو أنه حضّر أسئلته مسبقاً ، وبعـد مضي ساعة من هذا الامتحان اللطيف قال بصوته الأخاذ ، واضعاً يده على كتفي ، « لقد كنت على حق يومئذ فيما ذكرته في رسالتك التي لم أقرأها إلا قبل وصولي مصر ! »

وأزعجنا رنين الهاتف ، وكان على جيد أن يذهب الى كلية الآداب لملاقاة أساتذة وطلاب الأدب الفرنسي ، ولكن عميد الكلية طلب من جيد تأجيل زيارته بسبب حدوث اضطرابات طلابية ، فأعلمت جيد بالأمر فانفجر بالضحك معلناً بأنه مسرور جداً لأنـه يعشق العوائق الزمنية الطارئة ، فامتدت الزيارة إذاً فكسبت بذلك الساعـة التي كانت مخصصة للكلية واستمر الحديث ، ولكن ليس عن الاسلام ، وكنت أنا السائل هذه المرة فتكلمنا عن الأدب الفرنسي وانضمت إلينا زوجي وابنتي ، واعتقد ان جيد شعر حينئذ بألفة صميمية فاتته الى الآن على هذه الارض الاجنبية .

كان نزول اندره جيد القاهرة الحادث الجلل في نظر أهلها ، والتعب الاكبر بالنسبة اليه ، ذلك التعب الذي أراد أن يتحاشاه بانعزاله عن الناس ، فلم يقم في فنادق ، ولم يحضر حفلات تقريباً ، بَيد انه لم يستطع ان يتجنب القاء محاضرة في احدى الامسيات في بهو « الليسيه فرانسيه » فما اشد عذابه ، وما اكثر تردده .. فقد اعتلى المنصة يعتريه خجل المبتدىء وشرع في الكلام ، واعتقد أن هذا الخجل قد قطع عليه سياق الافكار ، ولكي يهتدي الى وصل ما انقطع طلب ، بلطف أنيق عرف به الإذن من مستمعيـه بأن يدخن لفافة ، وكانت الإذاعة ، أثناء ذلك ، سجلت حديثه ، وفي المساء ارادوا ان يسمعوه إياه ولما سمع الجمل الأولى كاد ، لشدة استيائه وعدم رضاه عنه ، يحطم المـذياع فترك الجلسة للانزواء في غرفته ؛ وظل ذلك الحديث البسيط ، على اضطرابه وتفككه ، ولكنه المتزه عن التفاهة والشبيه بالصميمي ، في نظر الكثيرين من أجمل الذكريات .

أود ان اقول لكم كما أنا مدين له بالجميل على مظاهر الثقة اللطيفة الناعمة التي حباني بها في تلك الأمسية عقب تناول العشاء حين سحب فجأة من جيبه الورقات الاخيرة من

تجارب « ثيسيوس » طالباً مني بهدوء اذا كنت اريد ان يتلوها امـامي ، فقرأ عندئذ بصوته الجهوري المتناغم حوار أوديب مع ثيسيوس فحبست بحياء ، ولكن بصعوبة ، دموع عيني فبأي لطاقة خاطبت Thesée محاورها الذي اغمض عينيه امام اضواء الدنيا ليفتح قلبه للضوء الداخلي . وقال لي في الغد إن اوديب و Thesée هما اثراه المفضلان فهو يحبها بحنان ، فطلبت منه الاذن بترجمتها بنفسي فقال ، ممسكاً بيدي ، « ينبغي إذاً ان تضمها في كتاب واحد » وهذا مافعلته .

وكنا نتلاقى في كل رحلة من رحلاتنا الى باريز عندما يكون موجوداً فيها .

وليعذرني القراء لتكلمي عن نفسي ، وليس لدي ما اعلمكم به عنه ، ولا يسعني إلا ذكر ما أسداني من خير فان وجوده وفكره وحديثه اجدتني ، دون علم منه، شجاعة وربما ثقة بالنفس .

ايها العزيز والعزيز جداً أندره جيد ! أنت في حاجة الى رجل أكثر مني فصاحة للكلام بجدارة عنك ، فاغفر لي هذه السطور الضعيفة الخرقاء فإني لم اكتبها إلا لأقول لك : شكراً .

رسالة الكويت الثقافية

من خالد محيي الدين البرادعي

هموم الخليج العربي

في مؤسستين: الجامعة ورابطة الاجتماعيين

كان الخليج العربي في الازمنة القديمة دربا .. ثم تحول الى معبر للحضارات ، ثم اصبح في الزمن الحديث مطعما شهيا لجوع الامبريالية العالمية ، بعد ان امد العالم الصناعي بجزء كبير جدا من طاقاته البترولية التي تشكل عصب التقدم الصناعي .

وكان كل شيء هادئا في منطقة الخليج العربي لسنوات مضت وذلك لثلاثة اسباب:

١ - انشغال الامة العربية بشكل او بآخر بقضية فلسطين وخاصة الاقطار المعنية بالجرح الفلسطيني .

٢ ـ عدم توفر الوعي القومي لدى جزء كبير من عرب الوطن ومحاولة الامبريالية العالمية الابقاء على هذه الغفلة لاسباب لاتخفى .

٣ ـ وجود الاسد البريطاني العجوز بين عدن والكويت عبر امتداد الساحل المنحني بين شمالي الخليج وشرقي اليمن . وكان مترتباً على وجود السيطرة الانكليزية في الخليج، ابقاؤه دويلات يسهل النيل منها والفتك بها اذا اشتد سعار الجوع بالاسد العجوز وظل أهم ما تريده الامبريالية العالمية يتحرك لصالحها عبر حليفها البريطاني . وظلت بلايين براميل النفط تزحف اليها دون ابطاء ، حتى تحرك الوعي القومي في المنطقة لسنوات. ومن هـذه النقطة اخذت الاشياء تتحرك بشكل يدعو الى التساؤل واليقظة والوعي مجدداً لكبح جماح الذئاب الجائعة عن هذه البقعة الحيوية في شرقي الجزيرة العربية .

ومعروف ان بريطانيا لم ترحل عن الخليج العربي إلا بعد أن أخذت البيعة بالسر لإيران لتحل محلها . وكانت بداية ممارسة إيران لهذه الخلافة غير الشرعية ، احتلالها جزر أبوموسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى منذ سنتين ، ورفضها رفضاً باتاً أن يسمى الخليج إلا بـ « الفارسي » .

ومعروف أنه كلما تحرك الوعي العربي لتثبيت بصمته على منطقة الخليج التي هي جزء من الارض العربية ، وشعبه جزء من الشعب العربي ، يتحرك بشكل تلقائي سعار العالم المستعمر للإبقاء على هذه المنطقة تحت نفوذه ، أو على الأقل خارجة عن النفوذ العربي .

ومع تحرك الوعي القومي في الخليج ، صحب هذا الوعي نوع من تبريره الطبيعي ووضعه في المكان الصحيح من خارطة المستقبل للانسان العربي ، وللانسان الخليجي بشكل خاص . واصبحنا نسمع في السنين الاخيرة صرخة تطلقها الفصائل الواعية والثائرة على سيادة السكونية الراهنة في المنطقة تنادي بضرورة الاندماج العربي الخليجي، والاحتفاظ بموارد النفط التي تقتتل عليها ذئاب العالم ، ونشر التوعية القومية على اوسع نطاق لتشمل قاعدة الجماهير المحركة لعجلة التاريخ . فثورة ظفار التي لا تزال حتى الان صوتاً مبهماً بالنسبة لكثير من العرب ، وقضية الجزر المسروقة، وامتلاك موارد النفط ، والتحركات الطلابية في البحرين ، وملابسات الخلع والتثبيت في عمان ، جزء او اجزاء من هـذه الصرخة التي لاتزال تتخـذ شكلا مدنيا ينقصه التنظيم ويفتقر الى المنهجية العلمية في التخطيط .

وبمنا في هذا الحديث الاشارة ــ مجرد الاشارة ــ الى بادرتين هامتين جداتقومان الان في الكويت لتحقيق هوية الخليج العربية ، وتحريك الوعي القومي بشكل منظم ، والمناداة بربط الخليج جذريا بمصير الامة العربية . . . هاتان البادرتان هما :

أ ــ تركيز موسمين ثقافيين لرابطة الاجتماعيين ، يشارك فيها عدد من العلماء والمتخصصين وأساتذة الجامعة ، لشرح كل مايتعلق بالخليج العربي من حيث جغرافيته وموقعه ومصيره التاريخي مع التركيز الاعلامي الموسع على نشاط هذين الموسمين .

٢ ــ انشاء مجلة فصلية متخصصة من قلب جامعة الكويت على غرار مجلة «شؤون فلسطينية» للعناية بكل هموم الخليج : الحاضرة والمستقبلة ، يشارك في تحريرها وأصدارها عدد من علماء المنطقة المتخصصين الى جانب العرب والاجانب ، وتنفق عليها الجامعة نفسها.

الخليج العربي في مواجهة التحديات

وراء هذا الشعار الذي تطرحه كافة الفصائل القومية والتقدمية في كل أقطار الخليج العربي تقريباً ، اقامت رابطة الاجتماعيين موسمها الثقافي السابع خلال الشهور الماضية . وطرحت عبر اربع عشرة ندوة ومحاضرة العديد من المشاكل والقضايا التي تواجهها هذه المنطقة من العالم ــ ضمن كونها ــ جزءا من الوطن العربي . فعولجت في هذه الندوات ، خصائص البيئة ، ومشكلة التكامل الاقتصادي ، ومسائل الثروة المادية ودورها في تقدم الخليج العربي . ومن اخطر واهم المواضيع التي طرحت ، أهمية انفتاح دول الخليج العربي على التيارات الفكرية المعاصرة ، ومعالجة ميزان القوى في منطقة الخليج العربي ، مع التركيز على دور كل من الدولتين الكبريين في الخليج والتعرض من خلال الارقام والشواهد لأطماع كل من الدولتين في المنطقة . كما تعرضت احدى ندوات هذا الموسم للتشريعات الاجتماعية والعمالية في دول الخليج العربي . وكانت هذه البادرة الأولى من نوعها والتي طرحت في المنطقة ليناقشها الجمهور على سبيل المشاركة في تفهم قضاياه وهمومه .

واخر محاضرات الموسم السابع طرحت مشكلة ارتباط دول الخليج العربي بعضها بالبعض الاخر وتمثيلها في الاسرة الدولية .

وحرصت الرابطة على انتقاء المشاركين في بحث مواضيع الموسم ، واستقدمت فئة من المتخصصين والضالعين كل في الموضوع الذي طلب اليه .

أهم ما يلفت النظر في هذا النشاط الثقافي الذي قدمته رابطة الاجتماعيين هو الجرأة في المكاشفة، والصدق في معالجة القضايا المطروحة، مما يترك لدى المتتبع أثرا بقيمتها أولاً، وارتياحاً بالغاً للمدى الذي وصل إليه الوعي القومي عندما تطرح أي قضية ذات مساس بمصير الخليج العربي، ثانياً.

وكان من أثر تعرية النوايا الاستعمارية في المنطقة ومحاولاتها السابقة واللاحقة لافتراس المنطقة أجزاء متفككة، انتشار شعور مؤثر وعميق حول أهمية تعميق عروبة الخليج وترسيخها. وهذا بحد ذاته كسب يعادل الكثير من الثروات التي ينتجها الخليج ويوزعها على العالم. فهناك احساس بالخطر من جراء التمزق الاقليمي، يقابله ارتياح لكل محاولة تقام من أجل ربط أقطار الخليج في وحدة تكون طرفاً في وحدة الأمة العربية ككل. أي ان الغزو والامبريالي الحديث المتمثل في تزيين الاقليمية وتعميقها لدى طائفة من شعب الخليج العربي أضحت من المسرحيات الاستعمارية التافهة والمضحكة، والتي اكتشفها ابسط المتنورين في المنطقة. وإذا كان الموسمان الثقافيان - السابق واللاحق - لرابطة الاجتماعيين كمؤسسة اهلية ينتمي إليها عدد كبير من مثقفي الكويت، مخصصين لبحث جوانب هذا الموضوع الخطير الذي اصبح في الآونة الأخيرة هماً من هموم الدول الكبرى. كما اصبح هماً مصيرياً بالنسبة للعرب في الخليج، فما ذلك إلا نتيجة إحساس المثقف العربي في الكويت بخطر يداهمه من اكثر من جانب. وعبر الاستاذ عبد العزيز الصرعاوي(١) بوضوح عن مثل هذا الاحساس في محاضرة طويلة شاملة افتتح بها الموسم الثقافي للرابطة: «وكنا ولا نزال نحس على وجه اليقين الذي لايداخله ادنى شك.. بأننا على ضفاف هذا الخليج، نعتبر انفسنا بحكم الانتماء المصيري والشعور القومي، بمثابة الامناء الساهرين على حراسة هذه الحدود الشرقية لوطننا العربي الكبير، الواسع الخير، الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي». وكان الصرعاوي يتحدث بوعي شامل عن كل الملابسات التي تدور في منطقة الخليج العربي بإلحاح ليظل أي قطر مهدد ماثلاً امام ابناء المنطقة:

«وكما يبدو لنا الآن، لكأن العالم يتشكل من جديد، ولكأن الادوار على المسرح العالمي أخذت تتبدل وتتغير ويعاد توزيعها، ولكأن من كان بالأمس بطل المسرحية

---

(١) عبد العزيز الصرعاوي: خريج كلية الحقوق - جامعة القاهرة. أسس رابطة الاجتماعيين عام ١٩٦٧، وما زال رئيسا. يشغل حالياً منصب وزير البريد والبرق والهاتف. له اهتمامات فكرية متنوعة. ونشاطات ثقافية عديدة.

الدولية ، أخذت تنسحب من حوله الأضواء وتلفه الظلال ، ليأخذ خبره مكانه ويبرز في في إطار أكبر مما كان هو فيه من قبل . » وكانت مكاشفة الاستاذ الصرعاوي بداية للوضوح قضية معالجتها بشكل موسع ، ليتبعه فيما بعد عدد من المثقفين الكبار ومعظمهم أساتذة جامعيون مرموقون ،في توسيع المكاشفة وبحث الامور الخليجية بجدية وإسهاب .

وكان من الثمار التي تركها هذا الموسم كتاب نشرتـه الرابطة ، هو توسيع لاحدى المحاضرات التي ألقيت في الموسم .. والتي تناولت أهمية الخليج العربي استراتيجياً ،للاستاذ الدكتور محمد رشيد الفيل وتحولت المحاضرة المكثفة إلى كتاب موسع نهج الدكتور الفيل في كتابته منهجاً علمياً . تحدث عن موقع الخليج تاريخياً وجغرافياً ، وعن ثرواته التي أرقت أذهان الطامعين ، وعن الخطوات الفعالة الممكن اتخاذها محلياً وقومياً لحماية الخليج من أشتات صنوف الغزو ، مع تركيز خاص عـلى المناحي القومية التي اعتبرها المؤلف أهم مايجب أن تقوم بـه أقطار الخليج « بغض النظر عن أنواع الانظمة السياسية القائمة في المرحلة الراهنة » . وطالب الكتاب بوقف الهجرة الاجنبية الطوعية أو العفوية منها والمقصودة ، وفتح أبواب الخليج للعرب فقط ، كتأكيد لعروبته من جهة ، ودعم للعنصر العربي فيه من جهة ثانية . وأشار بشكل مأساوي الى تفاوت أنماط الحيـــاة في الخليج ، وإلى ان بعض أقطاره تعيش في قلب العصر الحديث كالكويت ، وبعض أقطاره الاخرى تعيش في عصر حجري حديث على حد تعبيره ، مع إشارات مدعمـــة بالوقائع إلى ما تقدمـه الكويت لخدمة عروبـــة الخليج ، والنهوض بمستوى حياة أفراده . وإلى المنجزات التعليمية والصحيـة الـتي حققتها الكويت اسهامـاً منهـا في تعزيز عروبـة هـــذه المنطقة .

« مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية »

أما المشروع الثقافي الآخر الذي يطرح هموم الخليـج العربي بعلمية وموضوعيـة فهو المجلة الفصلية التي ستصدرها الجامعة تحت هذا الاسم . وستظهر إلى الوجود في أول عام ١٩٧٥ .

نبتت الفكرة مبـدئياً مـع طموحات الدكتور « محمـد الرميحي » الذي كتب أطروحة دكتوراه عن المجتمع في البحرين . وتنامت لديه فكرة التوسع في معالجة الكثير من القضايا المهملة أو البكر في المنطقة على ضوء مشاهداته ودراسته ، حيث اطلـع عن

قرب على العديد من تلك القضايا الملحة والتي لا تحتمل التجاهل أمام التحولات التي تمر بالعصر ، في كل مناطق العالم . وسرعان ما وافق مجلس ادارة جامعة الكويت على اصدار المجلة ، وخصص لها مكاناً ضمن أبنية الجامعة ، لتكون تحت اشرافها وطرفاً من مسؤولياتها ، ولتحمل صبغة الدراسات الجامعية المتخصصة ، ولتحقق الجامعة — من جهة ثانية — خطوة جديدة في إنجازات خطتها الرامية الى ربط المجتمع بالجامعة ، المسألة الهامة التي أعلنت عنها منذ نشأتها في أواسط الستينات .

وبعد كافة المشاورات المتعلقة بطبيعة المجلة وحجمها ونوع كتاباتها والتزام كتابها بتلك الطبيعة المخصصة لها ، اتضح مخططها العام كمشروع ، وسميت هيئة تحريرها ، ومجلس ادارتها ، وشرع المسؤولون بتهيئة العدد الأول .

سُمّي الأستاذ أنور النوري أمين عام الجامعة ، رئيساً لمجلس ادارة المجلة . والدكتور محمد الرميحي رئيساً لتحريرها . وحجم العدد يأتي في حوالي مائتين وخمسين صفحة . وستحتل الدراسات والبحوث نصف المجلة . وهي الدراسات الخاصة بالعلوم الانسانية والطبيعية والاجتماعية المتعلقة بمنطقة الخليج والجزيرة العربية ، كسد لحاجة المنطقة الملحة لمثل هذه الابحاث على أيدي جامعيين متخصصين عرب وأجانب .

ويحتل التعريف بالكتب المتعلقة بالخليج والجزيرة العربية قسماً آخر منها. بينما يخصص جزء من مساحتها للبيبلوغرافيا .

نعتقد أن هذه المجلة ستكون مزدوجة الفائدة والأهمية بالنسبة للكويت والخليج على حد سواء .

فهي بالاضافة الى كونها أول مجلة من نوعها في المنطقة تعالج قضاياها من جميع الوجوه ، ستكون مركزاً علمياً للافادة من الطاقات الجامعية المتوفرة لديها على شكل باحثين اجتماعيين تفرزهم الجامعة سنوياً، وتحميل المثقفين الخليجيين جانباًمن مسؤولياتهم القومية ،ومشاكل الخليج العربي كما هو معروف لا يستطيع معالجتها ودراستها بصورة واقعية وجادة الا أبناؤها المتخصصون .

ومع هذه المجلة تتحرك فكرة طموحة أخرى —لا تزال مجرد فكرة — هي انشاء مركز للابحاث والدراسات الخليجية ، ينمو هذا المركز حول المجلة ، على غرار مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية .

واضافة مجلة من هذا النوع الى العدد الهائل من ركام الصحف والمجلات في الكويت تكون أكثر من مشروعة وضرورية، كبداية لتحويل الصحافة المحلية نحو وجهها الطبيعي ومسؤولياتها الكبيرة .

قراءات في كتب جديدة

عادل أبو شنب

العصافير : الشاعرية أسلوب شخصي للكاتب

القبلة من شفة السيف : نبوءة متفائلة

الأنهار : شاهد على مرحلة في تاريخ العراق

السياسة المسلحة : نظرة واحدة الى العالم

ليعذرني أصحاب هذه الكتب ، إن كتبت في كتبهم أقل مساحة مما كنت أريد ، لكن هذا لم يمنع من ان أحيط هذه الكتب باهتمامات كبيرة ومتساوية ، في وقت أصبح فيه اهمال الكتاب الجديد ، في قطرنا خاصة ، ظاهرة تلفت النظر . كأن اصحاب المساحات المخصصة لنقد الكتب والتعريف بها في الصحف والمجلات ، يعيشون في زمان آخر ومكان آخر . ولنأت الآن الى الكتب :

* * *

● العصافيـــر :

وضعتني « عصافير » ياسين رفاعية ، من جديد ، عـلى مائدة هذا القاص الذي سكت طويلاً ، وكان قد غرد في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات طويلاً (١) بسبب من هموم الكتابة اليومية التي تطعم الخبز ليس إلا ، وبسبب من مشقة الاغتراب المفجع (٢).

« العصافير » ثالثة مجموعاته القصصية ، وهي مختلفـة عن سابقتيها اللتين كتبها من منطلق رومانسي ، سوداوي ، عن عالم يتضخم فيه الميل الى المبالغة والاحساس بالمرارة اللزجة ، ، الضبابية ، وسر هذا الاختلاف أن الكاتب قد امتص من تجربته الحياتية نضجاً في النظرة الواحدة الى العالم ، في حين كانت تجربته ، في مستهل حياته الادبية ، تتأرجح وتتزلق الى منزلقات ، حتى لا أقول مدارس ، تنأى بنتاجه عن أن يكون منطلقاً من نظرة موحدة الى العالم .

تلك هي الخاصية الأولى ، العامة ، التي يمكن ان يستنبطها كاتب يتتبع خطى كاتب آخر . أما الخاصية الثانية . . فهذه المرونة في دفع السياق القصصي ، ألفاظاً و بناء ، لتشكيل ما يمكن أن يسمى بالقصة القصيرة الحديثة ، بعد أن كانت ولادة قصصه في مجموعتيـــه السابقتين، تمر في مرحلة الكد في استحضار الالفاظ الملائمة والبناء القصصي المناسب للقصة، مما كان يفقدها عفويتها وسلاستها .

ثمـة خاصيـة ثالثة هي الشاعرية والشفافية المتوفرتان في قصص « العصافير » جميعها (٣) ولم تكونا متوفرتين من قبل ، الا في حدود طبيعة الموضوع المتناول ، ها هنا تصبح الشاعرية أسلوباً شخصياً للكاتب ، وبها يحدد معالم نَفَسَه القصصي الجديد المختلف ، بل بها يرسم لنفسه الشخصية القصصيـة التي سيكونها ، أو الاداة المغرية التي سيستعملها في الكتابة ، والتي يصر على أنها أداته الشخصية .

ولست اريد ان ادخل في تفاصيل مضامين القصص نفسها ، لئلا افقدها مـيزة

---

(١) له الحزن في كل مكان . — ١٩٦٠ — و « العالم يغرق » — ١٩٦٣ ، وكان قد نشر معظم اقاصيصها في مجلات سورية ولبنانية متفرقات .

(٢) يقيم حالياً في لبنان ويعمل في ميادين الصحافة الأدبية .

(٣) تضم « العصافـيـر » بضع عشر قصة قصيرة ، بعضها لا يمتد على اكـــثر من صفحتين .

الادهاش ، التي يطلبها القارىء ، في مقابل ميزة التوتر الـتي تتطلبها في فنون اخرى ، لكنني اشير الى ان ياسين رفاعية قد عاد الى حقائق الحياة الاولى ليغرف منها ، فكأنه بذلك يريد ان يعيد بناء العالم ، على وهج نظراته الجديدة ، الساخنة ، الى العالم .

* * *

● القبلة من شفة السيف

لعل احدث ما كتب الشاعر خالد محي الدين البرادعي قصائد ديوانه الجديد «القبلة من شفة السيف » (١) ، فباستثناء قصيدتي الديوان الأخيرتين ، كتبت قصائد الديوان خلال الشهور الثلاثة الاخيرة التي اعقبت حرب تشرين الاول ، انها قصائد طازجة إذاً ، قصائد تلائم المرحلة التي صدرت فيها وتعبر عنها :

اتيت اخيراً
وكان الرهان بأنك لن تستجيب
علمت بأنك آت على رأس قافلة الظافرين
غداة انتهى العصر
واصفر وجه السنين
وذابت محاصيل فصل الضياع
وان قدومك مثل القدر (٢)

بمثل هذه النبوءة المتفائلة يحكي الشاعر عن النصر الذي لابد سيجيء وقد جاء ، خالعاً بوابة المستحيل رافعاً سارية العلم الاموي كما يقول في احدى قصائده .

يمكن القول أن البرادعي كان اول شاعر عربي ينفعل مع حرب تشرين ويستمد منه مادة شعره ، وليس هذا بمستغرب ، فالشعر عادة اول الفنون الادبية التي تملك خاصية التعبير السريع عن الاحداث ، لانه فن فردي :

آه لو اني املك في الجولان مساحة شبر
اغسله

---

(١) صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق عام ١٩٧٤
(٢) من قصيدة « الفارس الذي عاد »

بدموع الفرح التشريني
من نار الغزو ورائحة البرود
انصب فيه الراية
أملأ من تربته كتب الشعر (١)

ضم الديوان تسع عشرة قصيدة يمكن القول انها شيء من شعرنا القومي ذي الثوب الجديد الذي يجمع « بين اصالة الماضي ونضارة البعث »(٢) . انها قصائد حديثة، لكن الحديث عن حداثتها والمسالك الفنية التي سار عليها الشاعر ليست بذات بال مادام المضمون أغنى واكثر نفوذاً وتسللاً الى اعماق القارىء . ولا يعني هذا أن القصائد لا تنطوي على فن اصيل . بل العكس انها من هذا الشعر الحديث الذي يخلق له مضمونه قوالب سلسلة تضطرك الى التجاوب معها ، وان كنت من انصار الشعر الكلاسيكي ، لأنها لا تطرح الروي والموسيقى جانباً ، ولأنها تحاول أن تحدث قارئك بايقاع محبه :

— بسمتك المحزونة
تفضح كل الاسرار
وتربص هذا الصمت بعينيك زحام حوار
أفديك أخي
هل اتعبك السيف
وهل أضناك الاسفار(٣)

للشاعر سبعة دواوين(٢) قبل هذا ، لكن هذا يبزّها جميعاً ، لأنه « فعل محبة يتلوه الشاعر ، فعل وخبر . خبر عن الأمة التي عادت »(٤) .

★ ★ ★

(١) من قصيدة « تراتيل وراء الفارس العائد » .
(٢) من مقدمة الديوان .
(٣) من قصيدة « هموم سيف الدولة وملاحظات الاميرة خولة » .
(٤) من مقدمة الديوان .

● الأمـــار

تابعنا هذا القاص العراقي، عبد الرحمن مجيـــد الربيعي، في مجموعاته القصصية القصيرة، فلفت انظارنا بصوته المتميز المتفرد بين اصوات الذين ولجوا عـــالم القصة القصيرة في دنيا العروبة، وها هو يلفت انظارنا كروائي، فقد تلقفنا روايته الجديدة « الانهار »(١) بشوق لنرى الى الموقع الذي احتله في هذا العالم الجديد الذي لم يـــدل بدلوه فيه الا قليلا، واذا به ينجح في احتلال موقع متقدم آخر .(٢)

في المقدمة التي كتبها الناشر اشارة الى ان هذه الرواية تناول « لفترة اخرى من تاريخ العراق السياسي » طرح فيها المؤلف « ابطـالاً جدداً من شبانه وهم في مواجهة الظروف والمهام المنبثقة من التحولات السريعة في تاريخ البلد »(٣) .

ومع انه لا يمكن تلخيص الرواية في اسطر فانه يمكن القول انها شاهد على المرحلة التي عاشها العراق، في فترة حاسمة من تاريخه، ودليل على ان الكاتب الواعي الملتزم بقضايا امته ووطنه يستطيع ان ينتج ادباً عاكساً موحياً وقادراً على احتضان الآمال والآلام وتوجيهها .

هناك ملاحظات على الرواية، لابد ان النقاد سيشيرون اليها، وهي ليست على درجة كبيرة من الخطورة، واكتفي بذكر واحدة، هامشية، منها : ففي الصفحـة ٢٢٩ يجري سيـاق الرواية على لسان الراوية صلاح كامـل بصيغة المتكلم الماضي : « وقلت لها » . ثم « وطوقتني » ثم « وفرشت يدي » الخ .. وفجـأة ينتقل الى صيغة المتكلم المضارع : « واغمغم » ثم « وتعود موجـة الضحك » .. ليعود من جديد الى الصيغة السابقة، الامر الذي يخلخل السياق قليلا، ويفسد على القارىء المتوتر متعة التلذذ باستمرارية الحدث وانسيابيته .

على ان مثل هذه الملاحظات ليست بذات بال، وهي لاتقلل قط من قيمة الرواية وفنيتها ومضمونها المتقدم .

---

(١) الانهار : رواية صدرت عن مكتبة الثورة العربيـة ببغداد عام ١٩٧٤ وساعدت وزارة الاعلام العراقية على نشرها .

(٢) له رواية أخرى بعنوان « الوشم » اصدرتها دار العودة في بيروت .

(٣) من مقدمة الناشر .

السياسة المسلحة

من الكتب القلية التي صدرت في هذا القطر ، وهدفها الحديث في الفكر السياسي المعاصر كتاب صفوان قدسي « السياسة المسلحة » (١) .

إن الكاتب اسهامات سابقة ، معروفة ، في الكتابة والتنظير السياسيين ، وهـذا الكتاب ، وان كان باكورة أعماله المنشورة ، ليس عمل هاو يدلي بدلوه في هذا المجال ، وانما هو عمل كاتب مجرب ، ينطلق من موقف ونظرة واضحين ، ولهـذا تبدو أهمية إصداره في وقت يشح فيه نشر مثل هذا النوع الكتب .

ماذا يريد صفوان قدسي ان يقول في كتابه هذا ؟

من الصعب جـداً تلخيص الكتاب ، فهو ابحاث (٢) متعددة ، لكن من السـهل الاشارة الى الخط الواحد الذي يجمع بينها ، او الى النظرة الشاملة الـتي تنطوي الأبحاث التسعة تحت لوائهـا ، فالكاتب ينطلق في تقييمه وتحليله لاحداث أو لنظريات وافكار سياسية من منطلق علاقة هذه الاحداث والنظريات والافكار بأمتنـا العربية وتفاعلاتها معها وتأثيراتها فيها . والواقـع ان واحدة من كوارثنا السياسية ، كأمة واحدة ، اننا لم ننظر ، وبالتحديد قبل حرب تشرين ، الى العالم من زاوية كوننا نتفاعل معه ، نؤثر فيه ونتأثر فيه ، لا فرادى ، وانما كمجموعة واحدة ذات وزن صفوان قدسي يحث على هذا ، فكأنه ، بفعله ، يخط طريقا للكيفية التي يجب التعامل مع العالم على أساسها .

في القسم الاول من الكتاب ودراسات في الفكر الصهيوني المعـاصر . . وخلاصة رأي الكاتب ان السياسة « في الصراع العربي الاسرائيلي تبرز كعنصر فاعـل ومؤثر » وان العدو « حقق انتصاره الاول علينـا في ميدان السياسة قبل ان يحققه في سـاحة القتال » وأنه « كما ان الحرب شكل من اشكال السياسة ، فان السياسة شكل من اشكال الحرب ، والذي يربح المعركة سياسياً يكون قد ربح نصف المعركة » (٣) .

---

(١) صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق ١٩٧٤ .

(٢) يضم هذا الكتاب اربعة اقسام ، في كل منها ثلاثة بحوث ، كما يضم ملحقاً في آخره .

(٣) صفحة ١٠ .

وفي القسم الثاني من الكتاب ابحاث تتعلق بغطرسة القوة وبعالم الديغولية ، وبتحليل معالم العصر الجديد الذي نحياه ، وفي هذا القسم، يتجلى مدى فهم الكاتب لدلالات الأحداث في عالم متغير ، وعلاقة هذه المتغيرات بأمتنا العربية .

ولعل القسمين الثالث والرابع من الكتاب هما أهم الأقسام جميعا لأنهما يتحدثان عن همومنا السياسية ، كعرب ، وعن موقع البروليتاريا العربية من الخارطة السياسية العربية ، وعن غياب الفكر القـومي ، وعن الحتمية واللاحتمية ومعناهما ، ثم عن الوحدة . . وهل تتحقق بالتطور التلقائي ، ففي هذين القسمين يحلق الكاتب في لمس الجراح التي نشكو منها جميعاً . إن الفكر القومي غائب في هذه الحقبة من تطور تاريخنا، التي ندخل فيها « في مجابهة محتومة مع عدو يحاول ان يعيد العرب الى صحرائهم ، على نحو ماجاء على لسان احد قادته »(١) ان الحركة القومية العربية تتعرض لخطر رهيب هو « ان تتعدد فيها الاصوات الى الحد الذي تحقق معه هذه الحركة في الوصول الى صيغة مشتركة للتفكير والسلوك ، أي الى الحد الذي تفقد معه هويتها »(٢) فاذا حاولت أن تبذل جهدا في البحث عن هوية متميزة تسلحت بأسلحة الماضي « بمعنى أنه — اي الفكر العربي القومي — مازال يجد في اللغة والتاريخ والجغرافيا عناصر اساسية في نشوء القومية وتكون الأمة ، وهو في ذلك يستعمل ذراعا واحدة »(٣) والذراع الثانية التأكيد على أن الوحدة « ليست قضية تتصل بما مضى أو بما هو قائم فعلا فحسب ، وانما هي قضية مستقبل ومصير »(٤)

والواقع ان الكتاب بحاجة الى قراءة متأنية لمناقشة افكاره الكثيرة والتي تنصب كلها في نهر واحد : كوننا أمة عربية واحدة، يجب ان تنظر الى نفسها على هذا الاساس وتتعامل مع العالم من هذا المنطلق .

★ ★ ★

(١) صفحة ١٨١

(٢) صفحة ١٨٤

(٣) صفحة ١٨٥

(٤) صفحة ١٨٦


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب يوم الثلاثاء من كل اسبوع